



حواشي ابن المحرّومة

على كتاب

«تنقيح الأبحاث للملأ الثلاث»

لأب كرمونة

حققه وقّعه له

المطران جيت باشا

المعهد الباثوني الشرقي
روم
إيطالياالتراث العربي المسيحي
تأليف المطران جيت باشا
ص. ١٠٠
طبعة مطران جيت باشاالمكتبة البوليسية
جوتيه. ص. ١٢٥
لبنان

فهرس الكتاب

الفسم الأول

صفحة

١٩	تمهيد
٢٣	مقدمة
٢٣	سعد بن منصور بن كقوت
٢٣	أ - حياته
٢٦	ب - مؤلفاته
٢٦	١ - تذكرة في الكيمياء
٢٦	٢ - الكافي الكبير في الكحل
٢٦	٣ - الحكمة الجديدة في المنطق
٢٦	٤ - شرح الأصول والجمل من مهمات العلم والعمل
٢٧	٥ - رسالة في بقاء النفس
٢٧	٦ - التنقيحات في شرح التلويحات
٢٧	٧ - مراسلات
٢٨	٨ - رسالة في العقليات
٢٨	٩ - فوائد من تلخيص المحصل

٢٨	١٠ - كتاب الرَبَائِيْنَ وَالْقَرَائِيْنَ
٢٨	١١ - تنقيح الأبحاث للملل الثلاث
٢٨	ج - مذهبه
٣٥	أبولطسن بن الحُرُومَة
٣٥	أ - سيرته
٣٦	ب - بعض المعالم التاريخية
٣٩	ج - مذهبه
٤١	د - بيته التاريخية والأدبية
٤٥	كتاب التنقيح لابن كَمُونَة
٤٥	أ - وصف الكتاب
٤٦	ب - نهج الكتاب
٤٧	ج - بيئة الكتاب
٤٧	د - قيمة الكتاب
٤٩	هـ - نزاهة الفكر الكموني
٥٠	الرَّدود على التنقيح
٥٠	أ - الدر المنصود في الرد على فيلسوف اليهود
٥١	ب - نهوض حثيث اليهود إلى خوض خبيث اليهود
٥٢	ج - كتاب إثبات النبوة

٥٢	حواشي ابن الحُرُومَة
٥٣	أ - هدف الحواشي
٥٣	١) الطعن في اليهودية
٥٧	٢) الذود عن المسيحية
٥٨	١ - نقض السيد المسيح للشرعة الموسوية
٦٠	٢ - معجزات السيد المسيح وأصحابه
٦١	٣ - التثليث والتانس
٦٧	ب - أسلوب الحواشي
٧١	خلاصة

القسم الثاني

حواشي ابن الحُرُومَة
على الباب الثاني من كتاب
"تنقيح الأبحاث للملل الثلاث"
(في اليهودية)

فهرس الكتاب

٨٤	حاشية ٥
٨٨	حاشية ٦
٨٩	حاشية ٧
٩٠	حاشية ٨
٩٣	حاشية ٩
٩٤	حاشية ١٠
٩٥	حاشية ١١
٩٦	حاشية ١٢
٩٧	حاشية ١٣
١٠٠	حاشية ١٤
١٠١	حاشية ١٥
١٠٩	الاعتراض الأول
١٠٩	وجوابه
١١١	حاشية ١٦
١١١	الاعتراض الثاني
١١٢	حاشية ١٧
١٢٣	وجوابه
١٢٣	حاشية ١٨
١٢٤	حاشية ١٩

فهرس الكتاب

١٢٥	حاشية ٢٠
١٢٦	حاشية ٢١
١٢٧	حاشية ٢٢
١٢٨	حاشية ٢٣
١٢٨	حاشية ٢٤
١٣٠	حاشية ٢٥
١٣٠	حاشية ٢٦
١٣٠	حاشية ٢٧
١٣٠	حاشية ٢٨
١٣٢	الاعتراض الثالث
١٣٢	وجوابه
١٣٢	حاشية ٢٩
١٣٣	حاشية ٣٠
١٣٤	حاشية ٣١
١٣٤	حاشية ٣٢
١٣٥	حاشية ٣٣
١٣٦	حاشية ٣٤
١٣٧	حاشية ٣٥
١٣٨	حاشية ٣٦
١٣٨	حاشية ٣٧

الاعتراض الرابع

وجوابه

حاشية ٣٨

حاشية ٣٩

حاشية ٤٠

حاشية ٤١

حاشية ٤٢

حاشية ٤٣

حاشية ٤٤

حاشية ٤٥

حاشية ٤٦

حاشية ٤٧

حاشية ٤٨

حاشية ٤٩

حاشية ٥٠

الاعتراض الخامس

وجوابه

حاشية ٥١

حاشية ٥٢

حاشية ٥٣

فهرس الكتاب

١٣٩

١٤٠

١٤٠

١٤٠

١٤١

١٤٢

١٤٣

١٤٤

١٤٤

١٤٩

١٥٠

١٥١

١٥١

١٥٢

١٥٣

١٥٣

١٥٤

١٥٤

١٥٧

١٥٨

فهرس الكتاب

حاشية ٥٤

حاشية ٥٥

حاشية ٥٦

حاشية ٥٧

حاشية ٥٨

حاشية ٥٩

حاشية ٦٠

حاشية ٦١

حاشية ٦٢

حاشية ٦٣

حاشية ٦٤

حاشية ٦٥

حاشية ٦٦

الاعتراض السادس

وجوابه

حاشية ٦٧

حاشية ٦٨

حاشية ٦٩

١٥٩

١٦٠

١٦١

١٦١

١٦٣

١٦٣

١٦٥

١٦٦

١٦٧

١٦٨

١٦٨

١٦٩

١٦٩

١٧٠

١٧٠

١٧١

١٧٢

١٧٣

١٧٣

١٧٤

١٧٥

١٧٥

١٧٦

١٧٦

١٧٧

١٧٧

١٧٨

١٧٩

١٧٩

١٧٩

١٧٩

١٨٠

١٨١

١٨١

١٨٢

١٨٢

١٨٣

١٨٤

حاشية ٧٠

حاشية ٧١

حاشية ٧٢

حاشية ٧٣

حاشية ٧٤

حاشية ٧٥

حاشية ٧٦

حاشية ٧٧

حاشية ٧٨

حاشية ٧٩

حاشية ٨٠

حاشية ٨١

حاشية ٨٢

حاشية ٨٣

حاشية ٨٤

حاشية ٨٥

حاشية ٨٦

حاشية ٨٧

الفصل الثالث

حواشي آبن المحرومة
على الباب الثالث من كتاب
«نقيح الأبحاث للملل الثلاث»
(في المسيحية)

١٨٧

١٩٤

١٩٤

١٩٤

١٩٥

١٩٥

١٩٦

١٩٧

١٩٧

١٩٨

١٩٩

١٩٩

٢٠٠

٢٠٠

٢٠٠

حاشية ٨٨ (١)

حاشية ٨٩ (٢)

حاشية ٩٠ (٣)

ومخالفو النصارى لهم أن يقولوا

حاشية ٩١ (٤)

حاشية ٩٢ (٥)

حاشية ٩٣ (٦)

حاشية ٩٤ (٧)

حاشية ٩٥ (٨)

حاشية ٩٦ (٩)

حاشية ٩٧ (١٠)

حاشية ٩٨ (١١)

حاشية ٩٩ (١٢)

حاشية ١٠٠ (١٣)

٢٠٢	حاشية ١٠١ (١٤)
٢٠٤	حاشية ١٠٢ (١٥)
٢٠٤	حاشية ١٠٣ (١٦)
٢٠٤	حاشية ١٠٤ (١٧)
٢٠٥	حاشية ١٠٥ (١٨)
٢٠٦	حاشية ١٠٦ (١٩)
٢٠٦	حاشية ١٠٧ (٢٠)
٢٠٦	حاشية ١٠٨ (٢١)
٢٠٧	حاشية ١٠٩ (٢٢)
٢٠٨	حاشية ١١٠ (٢٣)
٢٠٨	حاشية ١١١ (٢٤)
٢٠٨	حاشية ١١٢ (٢٥)
٢٠٩	حاشية ١١٣ (٢٦)
٢١٠	حاشية ١١٤ (٢٧)
٢١١	حاشية ١١٥ (٢٨)
٢١٢	حاشية ١١٦ (٢٩)
٢١٢	حاشية ١١٧ (٣٠)
٢١٣	حاشية ١١٨ (٣١)
٢١٤	حاشية ١١٩ (٣٢)
٢١٤	حاشية ١٢٠ (٣٣)
٣١٥	حاشية ١٢١ (٣٤)

٢١٥	حاشية ١٢٢ (٣٥)
٢١٥	حاشية ١٢٣ (٣٦)
٢١٧	حاشية ١٢٤ (٣٧)
٢١٨	وأجود ما لهم أن يجيبوا به
٢٢٠	حاشية ١٢٥ (٣٨)
٢٢٢	حاشية ١٢٦ (٣٩)
٢٢٢	ولقائل أن يقول
٢٢٣	قلتُ
٢٢٣	حاشية ١٢٧ (٤٠)
٢٢٤	حاشية ١٢٨ (٤١)
٢٢٥	ولهم أن يقولوا
٢٢٦	حاشية ١٢٩ (٤٢)
٢٢٦	وما استشهدتُ به
٢٢٦	حاشية ١٣٠ (٤٣)
٢٢٧	والحق
٢٢٧	حاشية ١٣١ (٤٤)
٢٢٨	حاشية ١٣٢ (٤٥)
٢٢٨	حاشية ١٣٣ (٤٦)

القِسْمُ الرَّابِعُ

فَهْرَسُ الْحَوَاشِي

أولاً - فهرس الأعلام	٢٣١
ثانياً - فهرس الأماكن	٢٣٣
ثالثاً - فهرس الأقوام والملل	٢٣٣
رابعاً - فهرس أهم المفردات	٢٣٥

القِسْمُ الْخَامِسُ

المَرَّاجِع

القِسْمُ الْأَوَّلُ

تمهيد
مقدمته
خلاصته

تمهيد

في مخطوطة عربية فريدة من القرن الرابع عشر، مسجلة تحت الرقم ١٥ من مكتبة الأنجليكا في روما^(١)، نفع على مجموعة من الحواشي وضعها كاتب مسيحي من هاردين، اسمه أبو الحسن بن المحرومة، ردًا على مصنف ديني كتبه في القرن الثالث عشر، فيلسوف يهودي من بغداد، اسمه سعد بن منصور بن كمونة.

عنوان المصنف الديني: «تنقيح الأبحاث للبلل الثالث» ونشر إليه ملخصًا بكتاب «التنقيح». ويشتغل على أربعة أبواب: ١ - في النبوة. ٢ - في اليهودية.

٣ - في المسيحية. ٤ - في الإسلام.

وقد نشره المستشرق اليهودي موشي برلمان تحت الرقم ٦ من «منشورات جامعة كاليفورنيا»^(٢) ونقله إلى الإنكليزية^(٣) مع مقدمة وتعليقات.

أما حواشي ابن المحرومة فليس لها تسمية رسمية ونشر إليها «بالحواشي» أو «التحشية»، وهي مجموعة من الملاحظات مدموجة في نص «التنقيح»، يتعرّض فيها الكاتب المارديني للفيلسوف اليهودي في بحثه للديانتين اليهودية والمسيحية (في البابين الثاني والثالث) «دون غيرها من هذا الكتاب» على حد قول المعلق.

(١) GUIDI, *Catalogo dei Codici... della Biblioteca Angelica di Roma*, Firenze 1878.

(٢) تنقيح الابحاث للبلل الثالث، من مطبوعات جامعة كاليفورنيا ١٩٦٧.

Kammuna's *Examination*, Ed. Berkeley 1967.

Kammuna's *Examination*, Tr. Berkeley 1971.

مَجْمُوعُ هَذِهِ الْحَوَاشِي مِئَةٌ وَثَلَاثُ وَثَلَاثُونَ. سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ فِي الْبَابِ الثَّانِي (فِي الْيَهُودِيَّةِ) وَسِتٌّ وَأَرْبَعُونَ فِي الْبَابِ الثَّلَاثِ (فِي الْمَسِيحِيَّةِ)، وَتُسَبِّحُ إِلَيْهَا بِأَرْقَامِهَا الْمُسْتَسْلِسَةِ.

وَقَدْ قَامَ نَفْسُ الْمُسْتَشْرِقِ الْيَهُودِيِّ مُوشِي بَرْلَانْ، فِي مَقَالٍ لَهُ عَنْ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ^(٤)، بِنَشْرِ بَعْضِ تَقَاتٍ مِنْ تَعَالِيكِ الْكَاتِبِ الْمَارْدِيْنِيِّ. وَأَمَّا مُعْظَمُ الْحَوَاشِي فَبَقِيَ مَطْوًى فِي مَخْطُوطَةِ الْأَنْجِيلِيكََا، إِلَى أَنْ قَدَّرَ لِلَّهِ نَشْرُهَا بِنَفْسِهَا الْكَامِلِ فِي هَذِهِ الْحَلْفَةِ مِنْ سِلْسِلَةِ «التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ الْمَسِيحِيِّ».

وَهَا نَحْنُ نَقْدِمُهَا لِلْقُرَاءِ كَامِلَةً لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، مُتَوَخِّينَ بِذَلِكَ الْكَشْفَ عَنْ أَثَرٍ مِنْ أَنْدَرِ أَثَارِ الْأَدِيبِ الدِّفَاعِيِّ الْمَسِيحِيِّ، وَالْمُسَاهِمَةِ فِي بَعْثِ حِوَارٍ بَيْنَ مُتَبَارِزَيْنِ طَوَّرَتِ الْمَيَّةَ رَفَاتُهَا وَبَقِيَ الْفِكْرُ مِنْهَا فِي تَجَاوُزِ نَابِضٍ بِالْحَيَاةِ.

وَلَكِنْ هَذَا الْأَثَرُ لَا يُفْهَمُ إِلَّا فِي قَرَائِنِهِ. فَحَوَاشِي ابْنِ الْمَحْرُومَةِ رَدٌّ عَلَى «التَّنْفِيحِ» فِي بَابَيْهِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ. فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيمِ نَصْرِ الْحَوَاشِي مَدْمُوجًا بِنَصْرِ «التَّنْفِيحِ» فِي إِخْرَاجِ صِيغَةِ الْحِوَارِ بَيْنَ الْكَاتِبَيْنِ، مَعَ مُرَاعَاةِ مُقْتَضَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ نَصْرِ الْفِيلَسُوفِ الْيَهُودِيِّ وَتَعَالِيكِ الْكَاتِبِ الْمَسِيحِيِّ.

وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ، قَلِيلٌ أَنْ نَقْدِمَ «الحَوَاشِي»، أَنْ نَتَعَرَّفَ بِصَاحِبِهَا الْكَاتِبِ الْمَارْدِيْنِيِّ، وَأَنْ نَلِمَ «بِالتَّنْفِيحِ» وَمُؤَلِّفِهِ الْفِيلَسُوفِ الْيَهُودِيِّ. فَاجْتَمَعَتْ لَنَا، تَهْنِئَةً لِهَذَا الْأَثَرِ الْأَنْفَرِ. مَادَّةٌ مُتَوَافِرَةٌ قِوَامُهَا عَرْضُ لِسِيرَةِ ابْنِ كَمْوَنَةِ وَسِيرَةِ مُنَاطِرِهِ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ، وَمَا يَنْصِلُ بِهِمَا مِنْ وَصْفِ بَيْتَيْهَا الدِّينِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَتَحْلِيلِ لِكُلِّ مِنْ كِتَابِ الْفِيلَسُوفِ الْيَهُودِيِّ وَحَوَاشِي الْمَعْلُوقِ الْمَارْدِيْنِيِّ.

وَقَدْ اعْتَمَدْنَا لِنَصْرَ «التَّنْفِيحِ» طَبْعَةَ الْمُسْتَشْرِقِ مُوشِي بَرْلَانْ مَعَ مَا بَدَأَ لَنَا مِنْ تَصْحِيحَاتٍ طَبَقِيَّةٍ عِنْدَ اقْتِضَاءِ الْأَمْرِ. وَاكْتَفَيْنَا بِالنَّصْرِ الْمُحَقَّقِ الْمُدْرَجِ فِي مَتْنِ الْكِتَابِ، دُونَ التَّعَالِيكِ الْمُدَوَّنَةِ فِي الْحَوَاشِي، وَذَلِكَ تَحَاشِيًا لِلْإِطَالَةِ وَعِلْمًا بِأَنَّ مَنْ يَرَعِبُ فِي التَّحَقُّقِ مِنْ نَصْرِ «التَّنْفِيحِ» يُمْكِنُهُ الرُّجُوعُ إِلَى طَبْعَةِ مُوشِي بَرْلَانْ. وَاقْتَرْنَا الْإِثْقَاءَ عَلَى الصِّيغَةِ الَّتِي اعْتَمَدَهَا بَرْلَانْ فِي طَبْعَتِهِ مِنْ حَيْثُ رَسَمَ الْحُرُوفَ وَتَشَكَّلَهَا. وَأَمَّا «الحَوَاشِي» فَقَدْ اتَّخَذْنَا نَصَّهَا مُبَاشَرَةً مِنَ الْمَخْطُوطَةِ الْفَرِيدَةِ الْمُدَوَّنَةِ فِي مَكْتَبَةِ الْأَنْجِيلِيكََا فِي رُومَةٍ، مُعْتَمِدِينَ الطَّرِيقَةَ الْحَدِيثَةَ فِي كِتَابَةِ الْهَمْزَةِ وَالْأَلِفِ وَحُرُوفِ الْعَدِّ، وَمُؤَيِّدِينَ، فِي النَّصْرِ، تَصْحِيحَ الْأَخْطَاءِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالتَّحْوِيلِ وَغَيْرِهَا مَعَ الْإِشَارَةِ فِي الْحَوَاشِي إِلَى مَوَاقِعِ الْخَطَا وَالتَّصْحِيفِ.

وَلَا يَسْنَعُنَا، خَتَمًا، إِلَّا أَنْ نَشْكُرَ اللَّهَ عَوْنَهُ، وَلِجَمِيعِ مَنْ أَزْرُونَا فِي هَذَا الْعَمَلِ نُصْحَهُمْ وَمُسَانَدَتَهُمْ^(٥). آمِينَ أَنْ يَأْتِيَنَا مَجْهُودُنَا هَذَا بِالْإِمَارِ الْمُرْتَقِبَةِ فَيَكُونَ حَجَرًا صَغِيرًا فِي بِنَاءِ التَّقَارُبِ بَيْنَ الْأَذْيَانِ، وَخُطُوةً مُتَوَاضِعَةً فِي مَسِيرَةِ الشُّعُوبِ شَطْرَ التَّقَاهِمِ وَالتَّعَاوُنِ.

(٥) نَحْصُ بِالشُّكْرِ وَالتَّعَاوُنِ حَضْرَةَ الدُّكْتُورِ حَكِيمِ حَمْصِيٍّ مِنْ حَامَةِ حَلَبِ الَّذِي تَوَلَّى فَهْرَسَةَ أَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ وَالْأَمَاكِنِ وَالْأَنْوَامِ وَالْمَلَلِ وَأَهَمَّ الْمَقْرَدَاتِ الْوَارِدَةِ فِي حَوَاشِي ابْنِ الْمَحْرُومَةِ.

(٤) Ibn al-Mahrūma, A Christian opponent of Ibn Kammūna, dans American Academy for Jewish Research, H.A. Wolfson Jubilee Volume, vol. II, Jérusalem 1965, p. 641-655.

مقدمة

سعد بن منصور بن كوثن

أ - حياته

في أواخر سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وقع في بغداد واقعة أتى على ذكرها كتابُ عَرَفَ خَطَأً « بالحوادث الجامعة والتجارب النافعة في الميعة السابعة »^(١) كتب صاحبُ « الحوادث » :

« سنة ٦٨٣ وفيها اشتهر في بغداد أنَّ عزالدولة بن كمونة اليهودي ، صنَّف كتاباً سمَّاه « الأبحاث عن الملل الثلاث » تعرَّض فيه بذكر النُّبُات وقال ما تعود بالله من ذكره . فتارَّ العوامُ وهاجوا ، واجتمعوا لِكَبْسِ داره وقتلوه . فركب الأميرُ يمساكي ، شيخنة العراق ، ومجد الدين بن الأثير وجماعة الحكَّام إلى المُستنصِرِيَّة ، واستدعوا قاضي القضاة والمُدرِّسين لتَحْقِيقِ هذا . وطَلَبُوا ابنَ كمونة فاحتُفِيَ . وأتفقَ ذلكَ اليومَ يومَ جمعة . فركب قاضي القضاة للصلاة فَمَنَعَهُ العوامُ فَعَادَ إلى المُستنصِرِيَّة . فخرَجَ

(١) نشر هذا الكتاب السيد مصطفى جواد سنة ١٩٣٢ في بغداد ، ونسبه إلى ابن الفوطي (انظر حاشيتنا ٣) ، متبعاً في ذلك رأي الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف (مجلة العرفان ١٩٢٦ ، ص ٦٢٥) ، والسيد يعقوب معوم سرکيس البغدادي . إلا أن السيد جواد عاد وتراجع عن رأيه في مقاله عن ابن الفوطي ، المدرج في دائرة المعارف (مجلد ٣ ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٤٣٩ - ٤٦٠) . وقد دفعه « حب الحقيقة التاريخية » - كما قال - إلى الإقرار بأن المصنَّف المنشور في بغداد سنة ١٩٣٢ ، ليس هو الحوادث الجامعة المعروف لابن الفوطي ، وإنما هو كتاب غفل لا بد من الاستمرار في البحث عن صاحبه .

ابن الأثير لُسْكِنَ الْعَوَامَ، فَأَسْمَعُوهُ قَبِيحَ الْكَلَامِ، وَنَسَبُوهُ إِلَى التَّعَصُّبِ لِابْنِ كَمُونَةَ وَالذَّبِّ عَنْهُ. فَأَمَرَ الشَّيْخَةُ بِالْبِدَادِ بِالْمُبَاكَرَةِ فِي غَدِ إِلَى ظَاهِرِ السُّورِ لِإِحْرَاقِ ابْنِ كَمُونَةَ. فَسَكَنَ الْعَوَامُ وَلَمْ يَتَجَلَّدْ بَعْدَ ذَلِكَ لَهُ ذِكْرٌ. وَأَمَّا ابْنُ كَمُونَةَ، فَإِنَّهُ وَضَعَ فِي صُنْدُوقٍ مُجَلَّدٍ وَحُمِلَ إِلَى الْحِلَّةِ. وَكَانَ وَلَدُهُ كَاتِبًا بِهَا، فَأَقَامَ أَيَّامًا وَتَوَفَّى هُنَاكَ^(٢).

سَعْدُ بْنُ مَتَّصُورٍ بَنُ كَمُونَةَ هَذَا، نَجَّدَهُ ذِكْرًا آخَرَ فِي كِتَابِ «تَلْخِصِ مَجْمَعِ الْأَدَابِ فِي مُعْجَمِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ» لِكَامِلِ الدِّينِ أَبِي الْفَضْلِ ابْنِ الْفُوطِيِّ^(٣):

«عَرُّ الدَّوْلَةِ أَبُو الرَّضَا سَعْدُ بْنُ نَجْمِ الدَّوْلَةِ مَتَّصُورُ بْنُ سَعْدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ هَبِ اللَّهِ بْنِ كَمُونَةَ الْإِسْرَائِيلِيِّ الْبَغْدَادِيِّ الْحَكِيمِ الْأَدِيبِ. كَانَ عَالِمًا بِالْقَوَاعِدِ الْحَكِيمَةِ وَالْقَوَانِينِ الْمُنَظَّمَةِ، مَبْرَزًا فِي فُنُونِ الْأَدَابِ وَعِيُونِ الثَّكَلِ الرِّيَاضِيِّ وَالْحِسَابِ. شَرَحَ كِتَابَ «الْإِشَارَاتِ» لِأَبِي عَلِيٍّ بْنِ سِينَا، وَقَصَّاهُ النَّاسُ لِلْإِقْتِبَاسِ مِنْ فَوَائِدِهِ، وَلَمْ يَقِفْ لِي إِلَّا جَمَاعٌ يَخْدُمُونِي، لِلْمَرَضِ الَّذِي عَرَّضَ لِي، وَكَتَبْتُ إِلَى خِدْمَتِهِ أَلْتَمِسُ شَيْئًا مِنْ فَوَائِدِهِ لِأَطْرَحَ بِهَا كِتَابِي، فَكَتَبَ لِي مَعَ صَاحِبِنَا وَصَدِيقِنَا شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ ابْنِ أَبِي الرَّبِيعِ الْحَاسِبِ الْمَعْرُوفِ بِالْحَشَفِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةَ:

(٢) الحوادث الجامعة، ص ٤٤١ - ٤٤٢.

(٣) التلخيص ١/٤، دمشق ١٩٦٢، ص ١٥٩ - ١٦١. وابن الفوطي من المؤرخين المعروفين. وُلِدَ فِي بَغْدَادِ سَنَةِ ١٢٤٤، وَهُوَ مِنْ نَوَائِجِ الْعِرَاقِ فِي صُلْحِ الْقُرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، سَاهَمَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْفُنُونِ وَبِخَاصَّةٍ فِي التَّارِيخِ وَالْأَنْسَابِ، فَكَانَ لَهُ فِيهَا إِبْدَاعٌ وَابْتِكَارٌ. وَقَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِي، فَوَكَّلَ إِلَيْهِ مَبَاشَرَةَ خِزَانَةِ الرُّسُودِ فِي مَرَاغَةِ، مِمَّا خَرَّجَتْهُ كَتَبُ الْمُسْتَضَرَّةِ فِي بَغْدَادِ. مِنْ أَهَمِّ مَوْلَفَاتِهِ «تَلْخِصُ مَجْمَعِ الْأَدَابِ فِي مُعْجَمِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ» وَ«الْحَوَادِثُ الْجَامِعَةُ وَالتَّجَارِبُ النَّافِعَةُ فِي الْمِلَّةِ السَّابِقَةِ» الَّذِي لَمْ يَعْرِ عَلَيْهِ بَعْدَ، حَسْبَ رَأْيِ السَّيِّدِ مُصْطَفَى جَوَادِ.

صُنِّ الْعِلْمُ عَنْ أَهْلِ الْجَهَالَةِ دَائِمًا وَلَا تُؤْلَفُ مَنْ لَا يَكُونُ لَهُ أَهْلًا فَيُؤَرِّكُهُ كِبَرًا وَمَقَنًا وَثِيرَةً وَيَقْبَلُهُ النُّقْصَانُ مِنْ عَقْلِهِ جَهْلًا فَكُنْ أَبَدًا مِنْ صَوْنِهِ عَنْهُ جَاهِلًا وَلَا تَطْلُبَنَّ الْفَضْلَ مِنْ جَاهِلٍ أَضَلَّ «تَوَفَّى بِالْحِلَّةِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةَ».

وَجَاءَ أَيْضًا فِي حَاشِيَةِ الدُّكْتُورِ مُصْطَفَى جَوَادِ، مُدْرَجَةً فِي الطَّبَعَةِ الْحَدِيثَةِ لِكِتَابِ «التَّلْخِصِ» لِابْنِ الْفُوطِيِّ:

«ابْنُ كَمُونَةَ مِنَ الْمُكَمَّلَةِ الْمَشْهُورِينَ وَالْمُتَفَلِّسِينَ الْمَذْكُورِينَ اشْتَهَرَ بِشُبُهَةِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ تَمَسُّ الدِّينَ، وَهِيَ: «لَمْ يَجُزْ أَنْ تَكُونَ هَوْنَانِ بَسِطَانِ مَجْهُولَتَا الْكُنْهُ مُحْتَلِفَتَانِ بِتَمَامِ الْمَاهِيَّةِ يَكُونُ كُلُّ مِنْهَا وَاجِبَ الْوُجُودِ بِذَاتِهِ، وَيَكُونُ مَقْهُومُ وَاجِبِ الْوُجُودِ مُنْتَزَعًا مِنْهَا، مَقُولًا عَلَيْهَا قَوْلًا عَرَضِيًّا». وَهَذَا تَعَرُّضٌ يَقُولُ الْمُتَكَلِّمِينَ: «إِنْ وَاجِبَ الْوُجُودِ أَحَدِيهِ الذَّاتُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ»^(٤).

مِنْ هَذِهِ الْوَتَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ الثَّلَاثِ، وَمِنْ تَنْفَرٍ أُخْرَى مَشْهُورَةٌ هُنَا وَهُنَاكَ فِي مُقَدِّمَاتِ الْأَثَارِ الْمَخْطُوطَةِ لِابْنِ كَمُونَةَ يُمكنُ تَكْوِينُ مَلَاحِظِ الرَّجُلِ: فَهُوَ يَهُودِيٌّ مِنْ بَغْدَادِ سَكِلَ أَسْرُهُ عَرِيقَةً شَرِيفَةً، أَدِيبٌ وَفَيْلسُوفٌ وَطَبِيبٌ، مُتَّصِلٌ مِنَ الْعُلُومِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ، عَاشَ فِي الْقُرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، أَتَامَ حُكْمَ الْمَعُولِ، فِي بَيْتَةِ الْأَشْرَافِ وَالْحُكَمَاءِ، مُحَفَّوًّا بِالْأَحْتِرَامِ وَالتَّجْبِيلِ وَالشُّهْرَةِ، فَهُوَ «الشَّيْخُ الْمُعْظَمُ» وَالْحَكِيمُ الْمُقَدَّمُ، قُدْوَةُ الْحُكَمَاءِ «الْيَهُودِيِّينَ»^(٥) وَهُوَ «الشَّيْخُ الْفَاضِلُ الْمُؤَيَّدُ فِي مَطَالِبِهِ، مُشِيدُ

(٤) التلخيص ١/٤، ص ١٥٩ - ١٦١، حاشية

(٥) رسالة في بقاء النفس (عظام الرسالة) L. Nemoi, The arabic Treatise on the immortality of the soul, Facsimile reproduction, New-Haven, Yale University Library, 1944
Voir aussi: Traduction du précédent dans Ignaz Goldzither Mémorial Volume 2. Jerusalem 1958, p. 85-99.

حُجِّجَ الْمُحَدِّثِينَ وَمُرْشِدُ فِرْقِ الْبَاحِثِينَ^(٦) بل هو «أَوَحَدُ عَصَرِهِ وَقَرِيدُ دَهْرِهِ»^(٧) وَعَلَامَةُ الْعِرَاقَيْنِ^(٨).

ب - مؤلفاته

لأبن كُمُونَةُ مؤلفاتٌ كثيرةٌ بعضها علميٌّ ومُعظمها فلسفيٌّ وكلاميٌّ. المعروف من مَصْنُوعَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ:

١ - تَذْكِرَةُ فِي الْكِيمِيَاءِ

٢ - الكافي الكبير في الكحل: وَقَدْ ذَكَرَهُ صَدَقَةُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمِصْرِيُّ الْحَنَفِيُّ الشَّاذِلِيُّ فِي مَوْسُوعِيهِ «عَمْدَةُ الْكُحْلِيَّةِ فِي الْأَمْرَاضِ الْبَصَرِيَّةِ»^(٩)، فِي طَلَبَةِ الْكُتُبِ الْعَمَلِيَّةِ بِهَذَا الشَّانِ.

أَمَّا مُعْظَمُ نَتَاجِهِ الْفِكْرِيِّ، فَهُوَ فِي حَبِيزِ الْفَلَسَفَةِ، شَرْحًا وَتَأْلِيلًا، وَمِنْ أَمَمٍ مُصَنَّفَاتِهِ:

٣ - الْحِكْمَةُ الْجَدِيدَةُ فِي الْمَنْطِقِ (٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م)

٤ - شَرْحُ الْأَصُولِ وَالْجَمَلِ مِنْ مَهْمَاتِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ: وَهُوَ تَعْلِيْقٌ عَلَى كِتَابِ

(٦) تنقيح، ص ١٠٩.

(٧) مقدمة كتاب القرائن والربابيين.

(٨) cf. H. Hirschfeld, *Arabic Chrestomatie in Hebrew Characters*, London 1892, p. 69 (2).

(٩) D. H. Baneth, in *MGWJ*, vol. 69 (1925) p. 308. راجع

(٩) حاجي خليفة، كشف الظنون ٤، ليزيز ١٨٣٥، ص ٢٦٥، رقم ٨٣٤٤، راجع أيضًا.

V. Rosen, *Les manuscrits arabes de l'Institut des langues orientales*, St. Pétersbourg 1878, p. 101 n° 175.

ابن سينا «الإشارات والتنبیيات»^(١١). وقد ختمه ابن كُمُونَةُ بِقَوْلِهِ: «هَذَا مَا تَبَسَّرَ عَلَى حُكْمِ الْعَجَلَةِ فِي أَوَاقٍ مُحْتَلَسَةٍ مِنَ الشَّوَاغِلِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ غَيْرِ مُعَاوَدَةٍ تُنْفِخُ وَلَا مُرَاجَعَةٍ تُهْدِي». وقد يكونُ هَذَا الْكِتَابُ آخِرَ مُؤَلَّفَاتِ ابْنِ كُمُونَةَ.

٥ - رسالة في بقاء النفس: وهو كتابٌ فلسفيٌّ يَعْتَمِدُ الْبَرَاهِينَ الْعَقْلِيَّةَ دُونَ التَّقْلِيَّةِ، وَيُؤَكِّدُ الْكَاتِبُ أَنَّهُ اسْتَبْطَأَهَا بِذَاتِهِ وَلَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهَا غَيْرُهُ^(١٢).

٦ - التَّنْقِيحَاتُ فِي شَرْحِ التَّلَوِيحَاتِ: وَهُوَ شَرْحٌ لِكِتَابِ السُّهْرَوَرْدِيِّ: «تَلَوِيحَاتُ فِي الْمَنْطِقِ وَالْحِكْمَةِ». وَالسُّهْرَوَرْدِيُّ الْمَلْفُ بِالْمَقْتُولِ (٥٧٩ هـ/ ١١٩١ م) هُوَ، فِي نَظَرِ لُؤِيْس مَاسِيْنِيُون، «آخِرُ الصُّوفِيَّيْنَ غَيْرِ الْحَوْلِيَّيْنَ فِي الْإِسْلَامِ»^(١٣).

٧ - مُرَاسِلَات: مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّسَالِاتِ مِنْ ابْنِ كُمُونَةَ إِلَى «عَلَامَةِ الْعَالَمِ، مَلِكِ الْعُلَمَاءِ، قُدْوَةِ الْفُضَلَاءِ... مُفْتِي الْقُرْنِ، جَامِعِ الْعُلُومِ، نَجْمِ الدُّوَلَةِ وَالْحَقِّ وَالْدِّينِ...» وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ نَجْمَ الدِّينِ هَذَا هُوَ أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ الْقَزْوِينِيُّ الْكَاتِبِيُّ دَبِيرَان (٧٦٥ هـ/ ١٢٧٦ م) أَحَدُ تَلَامِيذَةِ الطُّوسِيِّ^(١٤).

(١٠) «ألفه [ابن كُمُونَةُ] لِوَلَدِهِ شَمْسِ الدِّينِ صَاحِبِ دِيَوَانِ الْمَالِكِ بِمَرْجَا، أُنْشِئَ فِيهِ بِمَجْمَعِ الْفَاظِ الرَّئِيسِ (ابْنِ سِينَا) مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ إِلَّا بِمَا هُوَ لَظَرُورَةٌ لِتَدْرَاجِ الْكَلَامِ. وَمَزَجَ مَا تَقَطَّعَ مِنْ كُتُبِ الْحِكْمَاءِ وَمِنْ شَرْحِ الْعَلَامَةِ نَصِيرِ الدِّينِ (الطُّوسِيِّ) وَمَا اسْتَبْطَأَ بِفِكَرِهِ، مَرْجَا غَيْرَ مُتَمِّرٍ، فَصَارَ كِتَابًا كَالشَّرْحِ لِلْإِشَارَاتِ، (حَاجِي خَلِيفَةَ، كَشَفُ الظُّنُونِ الْجُزْءِ ١، ص ٣٠٣، رَقْمُ ٧٤٣).

(١١) L. Nemoy, *op. cit.*

راجع أيضًا للمؤلف نفسه، الترجمة الانكليزية للرسالة في Ignaz Goldzither *Mémorial*, Paris 1954, p. 61, n° 7. أيضًا Steinschneider, *Die ar. lit. der Juden*, Frankfurt 1902, p. 240, n° 5.

(١٢) L. Massignon, *Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane*, Paris 1954, p. 61, n° 7. أيضًا Steinschneider, *Die ar. lit. der Juden*, Frankfurt 1902, p. 240, n° 5.

(١٣) من المستبعد جدا ان يكون ابن كُمُونَةُ قد وَجَّهَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَى ابْنِهِ، كَمَا يَتَوَهَّمُ مَوْثِي رِثَانٍ فِي الْمَقْدَمَةِ الَّتِي وَصَفَهَا لِكِتَابِ التَّنْقِيحِ، ص XII راجع Brockelmann, *G A L SI*, p. 769, n° 9.

٨- رسالة في العقليات: وهو كتاب مجهول العنوان، غرضه «ذكر مهمات العقائد والأعمال». ويقول المؤلف في مقدمته: «أكثره ملغط من كلام من تقدم، إنها الأقل التزمنة هو الذي أدرته يفكري أو سح لخطاري...» ويعترف فيه بالتقصير «وقلة البصاعة من العلم»^(١٤).

وأما مؤلفاته الكلامية فالمعروف منها ثلاثة:

٩- قواعد من تلخيص المحصل: وهو مجموعة منطقات من «تلخيص المحصل» لتبصير الدين الطوسي (١٢٠١ - ١٢٧٤ م) «والمحصل» كتاب لفخر الدين الرازي وصنفه الطوسي بأن «اسمه غير مطابق لمعناه»^(١٥).

١٠- كتاب الربائين والفرائين: وهو كتاب غفل اختلف في نسبه إلى ابن كمونة، وبتميز بالزرعة التوفيقية التي انصف بها هذا الكاتب^(١٦).

١١- تنقيح الأبحاث للجلل الثلاث: وسوف نعرف به مذهباً فيما بعد.

ج - مذهبه

يبقى سؤال مطروح في شأن ابن كمونة: هذا الكاتب الذي نجع الوثائق التاريخية على تسميته «باليهودي» و«الإسرائيلي»، هل ارتد إلى الإسلام؟

^(١٤) هذا المصنف هو الجزء الأول من مخطوطة طهران رقم ٥٩٣، وهي تحتوي أيضاً في جزئها الثالث نص «التنقيح» وفي جزئها الرابع نص «انعام اليهود لسؤال المغربي». راجع أيضاً:

Brockelmann, *GAL SI*, p. 769, n° 8.

^(١٥) حاجي خليفة/٥، ص ٤٢٢، رقم ١١٥٣٧، راجع أيضاً:

Brockelmann, *GAL SI*, p. 769, n° 4.

^(١٦) نشره Hartwig Hirschfeld أخذاً عن مخطوطة برلين رقم ٢٥٦ التي تحتوي أيضاً نص التنقيح لابن كمونة: Arab. Chrestomatie in Hebrew Characters, London 1892, p. 69 - 103.

راجع أيضاً برهان، تنقيح، ص XII

هناك من المؤرخين والباحثين من يظن ذلك^(١٧)، استناداً إلى عبارات التبجيل التي يستعملها المسلمون عند ذكرهم لنبينا الإسلام، والتي نجدُها في كتاب «التنقيح» وفي كتب أخرى من مؤلفات ابن كمونة^(١٨).

ومنهم من يذهب إلى أن ابن كمونة إنما ارتد ظاهراً إلى الإسلام، بدافع الخوف أو التقيّة أو الانتهازية. ولكننا نرى، مع د. ه. بانث^(١٩) في تحليله الدقيق لنص «التنقيح»، أنه «من المستحيل أن يكون قد وضع هذا الكتاب إنسان معتق للدين الإسلامي ولو ظاهراً». فالتنقيح بالرغم مما يدّعيه من بعية الإنصاف والحياد، يدوله «كتاب طعن في الإسلام، أكثر منه كتاب دفاع عن اليهودية»^(٢٠).

والواقع أن ابن كمونة، في موضعين من كتابه، يورد بهكم الدوافع النفسية

(١٧) من هؤلاء:

- M. Steinschneider, *Pol. u. ap. lit.*, Leipzig 1877, p. 39.
Die ar. lit. der Jud., Frankfurt 1902, p. 289.

- G. Brockelmann, *GAL SI*, p. 768

- Neubauer, *Cat. of the Heb. Manus. Bodl. Libr.*, Oxford 1886, p. 453, n° 1281

- Uri, *Cat. of the Manus. Bodl. Libr. Pars I*, Oxoniæ 1878, p. 66, n° CCCLXI.

- G. Vajda, *Arabica*, vol. IX (1962), p. 392: «Quelques personnalités intellectuelles marquantes comme les philosophes Hibat Allah Abu-I-Barakât et Ibn Kammuna qui ont, d'ailleurs, au déclin de leur carrière, payé un tribut aux circonstances adverses, plutôt qu'à une conviction intime, en se convertissant à l'Islam».

(١٨) نجد في منهل الرسالة في بقاء النفس: «والصلاة على ملائكة المقربين وأنبيائه وأوليائه اجمعين وخصوصاً على محمد وآله الطاهرين» ص ١ L. Nemoy

وكذلك في مطلع الرسالة في العقليات: «وصلواته على ملائكة المقربين وأنبيائه المرسلين وأوليائه المحصلين، وخصوصاً على محمد وآله الطاهرين» (مخطوطة طهران ٥٩٣). أما التنقيح فجاء في مطلعته: «وخصوصاً على رسوله المصطفى» (تنقيح ص ١)، وفي ختامه، في المخطوطات العبرية: «وخصوصاً على محمد وآله الطاهرين».

(١٩) D. H. Baneth, *Ibn Kammuna*, MGIW 69 (1925), p. 295-311.

(٢٠) ذات المرجع ص ٣٠٤

والضغوط المجتمعية التي تدفع برئيسي الثغور إلى انتحار الإسلام بظاهرة، «كثير ممن نجلده في زماننا يدخل في دين الإسلام ليستظهر بذلك على الأقران وبصير بطبيع مائلاً إلى نصرة ذلك الدين، مع كونه لا يكون مؤمناً به في الباطن...» (٢١).

ويقول ابن كُمونة، في موضع آخر من كتاب التفتيح: «ولهذا لا نرى أحداً إلى اليوم يدخل في الإسلام إلا أن يكون عليه خوف أو في طلب العز، أو يوخذ في خراج ثقيل، أو يهرب من الدل، أو يوخذ في سبي، أو يعشق مسلمة أو ما أشبه ذلك. ولم نر رجلاً عالماً بدينه ودين الإسلام، هو عزيز مؤبر متدين، انتقل إلى دين الإسلام بغير شيء من الأسباب المذكورة أو ما مائلها» (٢٢).

إلى هذه الأدلة المستقاة من تحليل نص «التفتيح» يتضاف دليل القرائن التاريخية. فالزائقات التي اعتمدناها في تكوين معالم سيرته، تُجمع على وصفه باليهودي والإسرائيلي، ولا تأتي إحداها على ذكر اهتدائه إلى الإسلام. والرودود التي أثارها «التفتيح» عبر التاريخ، وفي طبيعتها تعاليق ابن المحرومة على هذا الكتاب، تنصدي كلها للمصنف «اليهودي» وتعرض على موقفه المتحاز وتعبئه للدين اليهودي (٢٣).

كل هذا يحملنا على استبعاد رأي القائلين بارتداد ابن كُمونة إلى دين الإسلام، باطلاً أو ظاهراً. لا بل نجدنا أدنى إلى نفي هذا المزعم نفيًا جازماً. ولكن كيف نعلل

وجود عبارات التحميد لنبي الإسلام في كتاب «التفتيح» وفي غيره من مؤلفات الفيلسوف اليهودي وبخاصة في مطالعها وذويلها؟

ثمّة وجوه عديدة في تفسير هذه الظاهرة. فممنهم من يُسندُها إلى التقلد والسُخ. وممنهم من يعتبرها محاولة من محاولات ابن كُمونة للترويج لكتابه في الأوساط الإسلامية، مثال ذلك ما رواه ابن العداري في كتابه «المغرب في أخبار المغرب» عن الكاتب اليهودي صموئيل بن نجدلا: «صار يكتب... بالعربي في ما احتاج إليه من فصول التحميد لله والصلاة على رسوله محمد» (٢٤).

وممنهم أخيراً من يزعم استعمال هذه العبارات، عند ابن كُمونة، إلى الانفتاح الذهني والتسامح الديني اللذين نادى بهما بعض الفلاسفة من أمثال الفارابي وابن سينا ونصير الدين الطوسي. ففي نظر هؤلاء الفلاسفة ومن نهج نهجهم، كل الأديان متساوية وجديرة بالاحترام، من حيث هي وجوه مختلفة وتعايير متكاملة للأمر الإلهي.

من هذا المنحط، يصبح طبيعياً ومفهوماً أن يردف ابن كُمونة ذكر موسى وعيسى ومحمد بعبارات التقريظ والتحميد المألوفة عند أتباع الأديان الثلاثة، فيعرب بذلك من جهة عن احترامه لمعتقداتهم ويحقق، من جهة أخرى، رواج كتبه في أوساطهم.

ولكن هذا التفسير الذي يعتقده د. ه. بانث في البحث الذي أشرنا إليه، على ما ينقسمه من عناصر إيجابية، لا يعكس تماماً الصورة الذهنية التي تميز بها صاحب التفتيح. فابن كُمونة، بالرغم من سعيه إلى التحيل الديني وانتسابه إلى مدرسة الفارابي

(٢٤) راجع كتاب

(٢١) تفتيح، ص ٩٢

(٢٢) تفتيح ص ١٠٢

(٢٣) انظر لاحقاً بحثنا في الردود على التفتيح، ص ٥٠ - ٥٢.

وابن سينا والطوسي، لا يبدو لنا - كما يراه د. هـ. بانث - ممن يؤمنون بتكافؤ الأديان الثلاثة. قطعهُ الشَّدِيدُ في الإسلام وتَجْرِيعُهُ الْمُتَحَامِلُ لِلْمَسِيحِيَّةِ بِرُشْحَانٍ يَمَّا كَانَ يُضَيِّرُ لَهَا مِنْ تَصَدِّ مُبَيَّتٍ وَلِلْيَهُودِيَّةِ مِنْ تَعَسُّبٍ مُنْحَازٍ.

بَيْدَ أَنْ مَوَاقِفَهُ الصَّارِمَةَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْمَسِيحِيَّةِ لَا تُنْفِي خُلُوصَ نِيَّتِهِ وَنَزَاهَةَ بَحْثِهِ فِي الْأَدْيَانِ الثَّلَاثَةِ. «فَالْمَقَاوِصَاتُ» الَّتِي يَذْكُرُهَا فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِ «التَّنْقِيحِ» تُبَيِّنُ بِمُنَاطَرَاتٍ وَجَوَارِتٍ دِينِيَّةٍ مُفِيدَةٍ، سَوَّعَتْهَا أَحْوَالُ الْمُنَاطَقَةِ الْوَاقِعَةِ تَحْتَ حُكْمِ الْمَعُولِ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَتَصَوَّرَ تِلْكَ الْمَقَاوِصَاتِ بَيْنَ مُمْتَلِكِي الدِّيَانَاتِ الثَّلَاثِ، وَفِي أَوْسَاطٍ مَحْدُودَةٍ وَمُتَقَاةٍ، عَلَى جَانِبٍ مِنَ الْمَوَدَّةِ وَالصَّرَاحَةِ.

الْمَوَدَّةُ وَالصَّرَاحَةُ: لَنُظَنِّ أَنْ تَلْخَصَانِ، فِي الْيَهَايَةِ، الدِّهْنِيَّةَ الْكُمُونِيَّةَ وَالطَّائِعَ الْجَوَارِيَّ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ كِتَابُ «التَّنْقِيحِ». فَإِذَا كَانَتْ الصَّرَاحَةُ هِيَ الَّتِي أَمَلْتُ عَلَى صَاحِبِ الْكِتَابِ مَوَاقِفَهُ الْقَلْبِيَّةَ الصَّارِمَةَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْمَسِيحِيَّةِ، فَلَمْ لَا يَكُونُ مِنْ بَابِ الْمَوَدَّةِ اسْتِعْمَالُهُ لِعِبَارَاتِ التَّقْرِيطِ لِنَبِيِّ الْمُسْلِمِينَ وَنَبِيِّ الْمَسِيحِيِّينَ، لَا إِفْرَارًا بِنُبُوَّتِهَا، بَلْ تَوَدُّدًا وَاحْتِرَامًا لِأَتْبَاعِهَا.

هَكَذَا يَكُونُ ابْنُ كُمُوتَةَ قَدْ اكْتَشَفَ، مُنْذُ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، مُسْتَلْزَمَاتِ الْجَوَارِ اللَّيْنِيِّ فِي صِفَتَيْهِ الْأَسَاسِيَّتَيْنِ: الصَّرَاحَةِ فِي مَوَاجَهَةِ الْحَقِيقَةِ، وَالْمَوَدَّةِ فِي مُخَاطَبَةِ الْمُحَاجِرِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ «الْحَكِيمَ» وَ«الْفَيْلَسُوفَ»، صَاحِبَ كِتَابِ «التَّنْقِيحِ»، فِي تَنْقِيهِهِ عَنِ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ - وَرُبَّمَا عَانِي فِي ذَلِكَ صِرَاعًا ضَمِيرِيًّا أَلِيمًا - فِي تَسْلِيْلِهِ النَّدَى عَلَى مُحَنَوَاهَا الْعَقَائِدِيَّةِ، لَمْ يَنْجَرِفْ فِي طَرِيقِ الْمُدَالَسَةِ وَالْمُدَاهَنَةِ. وَلَكِنْ رَفَضَ الْمُسَاوَمَةَ فِي الدِّينِ لَا يَفْرُسُ تَرْكَ الْبَاقَةِ فِي مُعَامَلَةِ أَتْبَاعِ الدِّينِ. وَمِنْ مَظَاهِرِ هَذِهِ الْبَاقَةِ اسْتِعْمَالُ عِبَارَاتِ التَّجْبِيلِ الْمُتَدَاوِلَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ فِي ذِكْرِ أَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ.

تِلْكَ هِيَ الْمَصَادِرُ التَّارِيخِيَّةُ الَّتِي تُمْكِّنُنَا مِنْ رَسْمِ مَلَاحِجِ الْفَيْلَسُوفِ الْيَهُودِيِّ، سَعْدِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ كُمُوتَةَ، صَاحِبِ كِتَابِ «تَنْقِيحِ الْأَبْحَاثِ لِلْمِلَالِ الثَّلَاثِ». وَقَدْ تَصَدَّقَ لِهَذَا الْمُصَنِّفِ كَاتِبُ مَارْدِينِيٍّ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ، هُوَ ابْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْمَحْرُومَةِ، فَعَلَّقَ عَلَيْهِ بِحَوَاشِي بَلِيغَةٍ مُتَضَمِّنَةٍ فِي الْمَخْطُوطَةِ رَقْمَ ١٥ مِنْ مَكْتَبَةِ الْأَنْجِيلِيكََا فِي رُومَةِ. وَنَقُومُ بِنَشْرِهَا هُنَا كَامِلَةً لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

فَمَنْ هُوَ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ؟ وَمَا قِيَمَةُ هَذِهِ الْحَوَاشِي الدِّفَاعِيَّةِ الْمَرْجُوحَةِ بِنَصْرِ «التَّنْقِيحِ» فِي بَابِيهِ الثَّانِي (فِي الْيَهُودِيَّةِ) وَالثَّلَاثِ (فِي الْمَسِيحِيَّةِ)؟.

أبو الحسن بن المحرومة

أ - سيرته

هو أبو الحسن بن إبراهيم بن يعقوب بن نخوما القبازي بن المحرومة. وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي كِتَابِ «اللُّؤْلُؤِ الْمَشْهُورِ فِي تَارِيخِ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ السُّرْيَانِيَّةِ» (٢٥). وَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَنَّهُ «نَسَخَ سَنَةَ ١٢٩٠» كِتَابَ الْحَمَامَةِ «بِالسُّرْيَانِيَّةِ» (٢٦) لِابْنِ الْعَبْرِيِّ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ بِتَعَالِيقٍ عَرَبِيَّةٍ بَلِيغَةٍ. وَيُنْقَلُ الْبِنَا صَاحِبُ «اللُّؤْلُؤِ الْمَشْهُورِ» فِي كَلَامِهِ عَنِ «كِتَابِ الْحَمَامَةِ» أَنَّهُ نُقِلَ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ سَنَةَ ١٢٩٩، بِعُتْوَانِ «كِتَابِ الْوَرَقَاءِ فِي عِلْمِ الْارْتِقَاءِ»، وَأَنَّ ابْنَ

(٢٥) مؤلفه البطريرك اغناطيوس افرام الاول برصوم، حمص ١٩٤٣، ص ٥٤١. أهم الذين اشاروا الى ابن الخرومة قبل البطريرك برصوم وبعده:

Jo. Alb. Fabricius, *Delectus argumentorum et Syllabus Scriptorum qui veritatem Religionis Christianae adversus Atheos, Epicureos, Deistas se Naturalistas, Idolatras, Judaeos et Muhammedanos lucubrationibus asseruerant*, Hamburgi 1725, p. 739; «Notas sive breves postillas adjunxit Scriptor Christianus, Abulhasan ben Abraham»

Steinschneider, *Pol. u. Apol. Lit.*, p. 409.

Guidi, *Cat. dei. Cod. Orient. Della Bibl. Angelica di Roma*, Firenze 1878, p. 64-66. L. Hirschfeld, *Sa'ad b. Mansūr Ibn Kammuna u. seine pol. Schrift*, Berlin 1893, p. 12, n° 4.

Graf. *GCAL* 2, n° 133, Citta del Vaticano 1947, p. 270, n° 90.

M. Perlmann, *Ibn al-Mahrūma, A Christian Opponent of Ibn Kammuna*, Harry Austryn Wolfson Jubilee Volume, vol. II, Jerusalem 1965, p. 641-665.

(٢٦) بقيدنا المنيبوليت زكا عيوس الذي قام بنشر النسخة السريانية لكتاب «الحمامة» ان ناسخه هو ابو الحسن بن ابراهيم بن يعقوب بن نخوما المعروف بابن الخرومة الماردني.

cf. Zakka 'Iwāṣ, *Bar Hebraeus Book of the Dove*, Bagdād 1975, p. 7

المَحْرُومَةُ هُوَ الَّذِي خَطَّ يَدِهِ الْمُقْلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِهَذَا الْكِتَابِ ، وَقَدْ وُضِعَتْ «بِإِنشَاءِ بَلْعٍ» .

فِي أَيِّ قَرْنٍ عَاشَ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ؟ يَوْكِدُ الْبَطْرِيْقُ بِرُصُومٍ أَنَّهُ كَانَ فِي قَبْدِ الْحَيَاةِ فِي ٥ كَانُونِ الْأَوَّلِ ١٢٩٩ ، وَذَلِكَ اسْتِنَادًا ، عَلَى مَا نَظُنُّ ، إِلَى التَّارِيخِ الْمُثَبَّتِ فِي «كِتَابِ الرِّوَاةِ» وَهُوَ التَّرْجَمَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِكِتَابِ «الْحَامَةِ» لِابْنِ الْعِرِّي (٢٧) .

وَأَمَّا غَرَابُ قَبْدِهِ إِلَى أَنَّ ابْنَ الْمَحْرُومَةِ كَتَبَ حَوَاشِيَهُ «يَقِينًا قَبْلَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ» (٢٨) وَلَا يُورِدُ آيَةً تَفَاصِيلُ أُخْرَى فِي هَذَا الشَّانِ . فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الْإِمْعَانِ فِي تَحْدِيدِ الزَّمَنِ الَّذِي كَتَبَتْ فِيهِ الْحَوَاشِي؟

ب - بَعْضُ الْمَعَالِمِ التَّارِيخِيَّةِ

تَمَّعَ الْمَعَالِمُ تَارِيخِيَّةٌ تُسَاعِدُ فِي حَضَرِ الْفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي انْدَرَجَتْ فِيهَا حَيَاةُ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ . فَالْحَدُّ الْأَدْنَى هُوَ تَارِيخُ قَالِيْفِرِ «التَّنْفِيحِ» أَي سَنَةِ ١٢٨٠ ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْحَوَاشِي قَدْ وُضِعَتْ حَتْمًا بَعْدَ هَذَا التَّارِيخِ .

وَأَمَّا الْحَدُّ الْأَقْصَى فَهُوَ التَّارِيخُ الْمُدْرَجُ فِي مَطْلَعِ مَحْطُوطَةِ الْأَنْجِيلِيكَا ، أَي ٢ كَانُونِ الثَّانِي ١٣٥٤ م . فِي هَذَا الزَّمَنِ ، ابْنُ الْمَحْرُومَةِ هُوَ ، بَلَا رَيْبٍ ، فِي عِدَادِ الْأَمْوَاتِ ، بِشَهَادَةِ النَّاسِخِ مَسْعُودِ بْنِ أَرْجُولِ الْمَارْدِيْنِي ، الَّذِي يَضُمُّ فِي صَلَاةِ اسْتِزْحَامٍ وَاحِدَةٍ ، صَاحِبَ التَّنْفِيحِ ابْنَ كُمُونَةَ (+ ١٢٨٤) وَصَاحِبَ الْحَوَاشِي ابْنَ الْمَحْرُومَةِ ، سَائِلًا اللَّهَ أَنْ «يَقْلِسَ أَنْفُسَهُمَا وَيُثَوِّرَ صُرِيحَيْهِمَا بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ» (٢٩) .

(٢٧) بِرُصُومِ، الذَّلُؤُ الْمَشُورِ، ص ٥٤١ .

(٢٨) GCAL 2, p. 271

(٢٩) تنفيح، ص ١٠٩ .

بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَدَّيْنِ الثَّانِيَيْنِ - وَبَيْنَهُمَا فَتْرَةٌ ٧٤ سَنَةً - أَلَا يُمَكِّنُ الْعُثُورُ عَلَى مَعَالِمِ تَارِيخِيَّةٍ أُخْرَى؟

فِي تَضَاعِيفِ الْحَوَاشِي إِشَارَاتُ تَارِيخِيَّةٍ مُعْقِدَةٍ يُمَكِّنُ التَّعْوِيلَ عَلَيْهَا . فِي الْحَاشِيَةِ ٦ مِنْ حَوَاشِيِ الْبَابِ الثَّالِثِ (فِي مُعْتَقِدِ النَّصَارَى) ، يَأْتِي ابْنُ الْمَحْرُومَةِ عَلَى ذِكْرِ الْإِمَامِ الْعَلَامَةِ شَمْسِ الدِّينِ السَّمَرْقَنْدِيِّ مُتَرْجِمًا يَقُولُ: «بَرَدَ اللَّهُ مَضْجَعَهُ» . وَلَمَّا كَانَ ثَابِتًا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، أَنَّ السَّمَرْقَنْدِي كَانَ بَعْدَ فِي قَبْدِ الْحَيَاةِ سَنَةَ ١٢٩١ (٣٠) ، سَاعَ تَقْرِيبُ الْحَدِّ الْأَدْنَى لِكِتَابَةِ الْحَوَاشِي إِلَى سَنَةِ ١٢٩١ .

هُنَاكَ خُصُوصًا نَصَابِرُ فِي الْحَوَاشِي بِشَأْنِ نُبُوَّةِ دَانِيَالِ النَّبِيِّ (٢٤/٩) ، يُعِيدَانِ فِي تَعْيِينِ تَارِيخِ كِتَابَتِهَا .

يَقُولُ الْمُعَلِّقُ الْمَارْدِيْنِيُّ: «كَافَّةُ الْيَهُودِ فِي انْتِظَارِهِ [الْمَسِيحَ] عَنْ قَرِيبٍ ، حَتَّى قَدْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّ كَثِيرِينَ مِنْ عُلَمَائِهِمُ الْمُعَاصِرِينَ أَنَّ يَكُونُ فِي زَمَانِ الْقِرَانِ (٣١) الثَّانِي لِهَذَا الْقِرَانِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ . وَقَدْ بَقِيَ مِنْ هَذَا الْقِرَانِ قَرِيبُ تِسْعِ سِنِينَ ، وَمُدَّةُ الْقِرَانِ الثَّانِي لَهُ جَمِيعُهُ قَرِيبُ عَشْرِينَ سَنَةً ، فَيَكُونُ الْمَجْمُوعُ دُونَ ثَلَاثِينَ سَنَةً . وَهَذَا الْمَبْلَغُ يُقْتَضِي قَبْلَ سَنَةِ سَعِينَ وَسَبْعٍ مِائَةً لِلْهِجْرَةِ» (٣٢) .

فَإِذَا كَانَتْ الْفَتْرَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَ تَارِيخِ كِتَابَةِ هَذِهِ الْأَسْطُرِ وَالسَّنَةِ ٧٧٠ هـ هِيَ قَرَابَةُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، فَيَكُونُ تَارِيخُ كِتَابَتِهَا سَنَةَ ٧٤٠/٧٤١ هـ ، أَي سَنَةَ ١٣٣٩/١٣٤٠ م .

(٣٠) GAL I, p. 468; GAL SI, p. 849-850.

(٣١) الْقِرَانُ هُوَ التَّقَاعُ زَحْلُ وَالْمَشْتَرِي . وَيَمِ الْقِرَانُ مَرَّةً كُلَّ عَشْرِينَ سَنَةً وَهُوَ الْقِرَانُ الْأَصْفَرُ ، وَمَرَّةً كُلَّ ٢٤٠ سَنَةً وَهُوَ الْقِرَانُ الْأَوْسَطُ ، وَمَرَّةً كُلَّ ٩٦٠ سَنَةً وَهُوَ الْقِرَانُ الْكَبِيرُ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْكَلَامَ هُنَا فِي الْقِرَانِ الْأَصْفَرِ .

رَاجِعِ Kirān, E. Wiedemann, dans EI, tome 2, 1927, p. 1082-1083

(٣٢) حَاشِيَةُ ١٢٣ ج

ثُمَّ إِشارةً أُخْرَى إِلَى نُبوَّةِ دَانِيالَ ، يَقُولُ ابْنُ المَحْرُومَةِ : «مَعْلُومٌ أَنَّ المَسِيحَ قُتِلَ مِنْذُ مَدَّةٍ تُقْبِلُ عَلَى أَلْفٍ وَثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ» (٣٣) فَإِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّ السَّيِّدَ المَسِيحَ ، عِنْدَ مَقْتَلِهِ ، كَانَ فِي نَحْوِ الثَّلَاثَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، رَجَعَ تَارِيخُ وَضْعِ الحَوَاشِي حَوَالِي السَّنَةِ ١٣٣٣ م.

كُلُّ هَذَا يُعَارِضُ رَأْيَ غَرَفٍ الَّذِي يَعُودُ بِتَارِيخِ كِتَابَةِ الحَوَاشِي إِلَى مَا قَبْلَ القَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ^(٣٤) . هَذَا ، وَيُشِيرُ بِرَبَّانٍ الَّذِي يَعُدُّ ابْنَ المَحْرُومَةِ «مِنْ كُتَّابِ القَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ» (٣٥) إِلَى أَنَّ مَحْطُوطَيْنِ مِنْ بَيْنِ المَحْطُوطَاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ نَصَّ «التَّقْصِيقِ» مَصْدَرُهَا مَارْدِينُ ، وَتَعُودُ إِحْدَاهُمَا إِلَى سَنَةِ ١٣٤١ ، وَالْأُخْرَى إِلَى سَنَةِ ١٣٥٤ . وَثُمَّ مَحْطُوطَةٌ ثَالِثَةٌ إِتْبَاعُهَا صَاحِبُهَا سَنَةَ ١٣٥٣^(٣٦) . كُلُّ هَذَا يُدْعِمُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ تَارِيخَ كِتَابَةِ الحَوَاشِي يَقَعُ حَوَالِي سَنَةِ ١٣٣٣ .

هَذَا التَّارِيخُ يَنْسَجِمُ أَيْضًا مَعَ التَّوَابِتِ التَّارِيخِيَّةِ الْآخَرَى الْمُرتَبِطَةِ بِالنَّشَاطِ الْأَدْبِيِّ لِابْنِ المَحْرُومَةِ . فَالسَّنَةُ ١٢٩٠ هِيَ السَّنَةُ الَّتِي نَسَخَ فِيهَا الْكَاتِبُ الْمَارْدِينِيُّ بِالسُّرْيَانِيَّةِ «كِتَابَ الحَامَةِ» لِابْنِ العَبْرِيِّ ، كَمَا مَرَّبْنَا . وَالْخَامِيسُ مِنْ كَانُونِ الْأَوَّلِ سَنَةَ ١٢٩٩ ، هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي أُنْجِزَ فِيهِ نَسْخُ مُقَدِّمَةِ التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِتَقْسِ الْكِتَابِ^(٣٧) .

اسْتِنَادًا إِلَى هَلِهِ الدَّلَالَاتِ ، يَسُوِّ الْقَوْلُ إِذْنًا ابْنَ المَحْرُومَةِ وَلِدَ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي

مِنْ القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ ، وَتَوَفَّى فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ ، وَكُتِبَ الحَوَاشِي حَوَالِي سَنَةِ ١٣٣٣ .

ج - مَذْهَبُهُ

سُئِلَ آخَرُ يُطْرَحُ فِي شَأْنِ ابْنِ المَحْرُومَةِ : مَا كَانَ مَذْهَبُهُ؟ مِنَ الثَّابِتِ أَنَّهُ كَانَ مَسِيحِيًّا . وَيُؤَكِّدُ البَطْرِيكَ بَرْصُومَ ، صَاحِبُ «اللُّؤْلُؤِ الْمَثُورِ» أَنَّهُ كَانَ سُرْيَانِيًّا . الْوَاقِعُ أَنَّ قِرَاءَةَ نَصِّ الحَوَاشِي لَا تُتَبِعُ مَعْرِفَةَ مَذْهَبِ صَاحِبِهَا ، وَقَدْ عَمِدَ فِي أَسْأَلِهِ الدِّفَاعِيِّ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُتَّبَعَةِ عُمُومًا عِنْدَ الْكُتَّابِ الْمَسِيحِيِّينَ آنَذَلِكَ فِي مُنَاطَرَاتِهِمْ مَعَ غَيْرِ الْمَسِيحِيِّينَ ، وَهِيَ اعْتِمَادُ الْبَرَاهِينِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ جَمِيعِ الْفِرَقِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَمُحَايَدَةُ مَا يُشْتَمُّ مِنْهُ الْإِتِمَامُ بِمَذْهَبٍ مُعَيَّنٍ .

وَقَدْ أَعْلَنَ ابْنُ المَحْرُومَةِ طَرِيقَتَهُ هَذِهِ فِي إِحْدَى حَوَاشِيهِ : «عَلَى أَنِّي لَا أَلْتَرِمُ رَضَى جَمِيعِ فِرَقِ الْبِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، لَكِنِّي أَلْتَرِمُ رَضَى النَّصْرَانِيَّةِ مُطْلَقًا لَا غَيْرَ...»^(٣٨) . وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ : «قَصْدِي فِي هَذِهِ الحَوَاشِي ، التَّنْبِيهُ عَلَى غِلَطِ الطَّاعِنِينَ فِي مُطْلَقِ الْبِلَّةِ لَا فِي مَذَاهِبِ الْفِرَقِ الْمُتَشَبِّهِةِ بِهَا»^(٣٩) .

وَقَدْ وَفَى ابْنُ المَحْرُومَةِ بِوَعْدِهِ ، وَظَلَّ سَالِكًا فِي نَهْجِهِ ، فَمَا بَدَرَ مِنْهُ مَا يُثْبِتُ إِتِبَاعَهُ بِمَذْهَبٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْمَسِيحِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ قَرَائِنَ يُمَكِّنُ اعْتِمَادَهَا لِتَرْجِيحِ نِسْبَتِهِ إِلَى الْكَنِيسَةِ السُّرْيَانِيَّةِ .

(٣٨) حاشية ٩١ ب

Cet irénisme est caractéristique aussi de la pensée de Yahya b. 'Adyq qui, dans sa réfutation du livre d'Abn 'Isa al-Warrāq, «se fait tour à tour l'avocat des trois sectes chrétiennes». M. Allard, les Chrétiens à Bagdad, in Arabica (1962) p. 375-388.

(٣٩) حاشية ١٠١ ب

(٣٣) حاشية ١٢٣ د

(٣٤) GCAL 2, p. 271

(٣٥) التقصيق، ص ١١

(٣٦) التقصيق، ص ١٢

(٣٧) برصوم، اللؤلؤ المثور، ص ٥٤١.

القرينة الأولى هي الصلة القائمة بين نشاطه الأدبي ومؤلفات المفكر السرياني الكبير ابن العبري. فابن المحرومة نسخ له بالسريانية «كتاب الحمامة» والمقدمة العربية لترجمة هذا الكتاب، على ما مر بنا. ونحن نعرف كتاباً من الكنيسة السريانية أمثال دانيال الماروني وأخي ابن العبري،^(٤٠) توفروا على استكمال كتب ابن العبري والتعليق عليها. ولكننا لا نعرف مسيحيين من مذاهب أخرى التزموا ببطل هذا النشاط الأدبي.

القرينة الأخرى للتدليل على انتماء ابن المحرومة إلى الكنيسة السريانية هي اعتماده الخط المصحح عند السريان الغربيين أو العياقة^(٤١) في المخطوطة السريانية التي نسحها سنة ١٢٩٠.

وأما القرينة الأخيرة فهي انتماء ابن المحرومة إلى مدينة ماردين. ولا يخفى أن تاريخ هذه البلدة، من الملخص الديني، مدين بكتير من مقوماته إلى الكنيسة يعقوبية. فقد أصبحت، منذ منتصف القرن الحادي عشر، مقر البطريركية يعقوبية من بعد زواجها من أنطاكية^(٤٢). وقد ثبت حولها عدد من الأديرة

(٤٠) GCAL 2, p. 284-291; GSL, p. 313, n° 2.

(٤١) «The Serja Script Which is also called jacobite from the name of the sect which used it», W. H. P. Hatch, *An album of dated Syriac Manuscripts*, Boston Mass. 1946, p. 27.

(٤٢) *Chronique de Michel le Syrien*, éd. par J. - B. Chabot, Paris, 1899 - 1910, livre XIII, chap. VII (566).

- اسحق أرملة: في البطريكية، المشرق ٢١ (١٩٢٣)، ص ٤٠٩ - ٥٠٧ - ٥٨٩ - ٥٩٩، ٦٦٠ - ٦٧١.

اليعقوبية أهمها دير مار حنانيا (دير الزعفران)^(٤٣) الذي امتدت شهرته إلى جميع أنحاء بلاد ما بين النهرين. وقد عدّ اسحق أرملة^(٤٤) لا أقل من ١٧ ديراً يعقوبياً مثبتة في المراجع التاريخية.

كل هذا يحيل على القول ترجيحاً بأن ابن المحرومة كان على المذهب يعقوبي السرياني. بيد أن تعبيرة اللاهوتية هي أقرب إلى العقيدة الخلقيدونية منها إلى المذهب الأوثيخي. فهو يأبى القول بامتزاج الطبعين في السيد المسيح، ويوافق النصارى جميع طوائفهم، على أن السيد المسيح إنما ساوى الثامن بناسوته في جميع أحوالهم ما عدا الخطيئة^(٤٥).

د - بيئته التاريخية والأدبية

ما هي البيئة التاريخية والأدبية التي نشأ وألف فيها صاحب الحواشي؟ في سنة ١٢٩٣، تمكن أسقف ماردين بر وهيب، بمعاونة الوالي الأرثوذي في المدينة، أن يعلن نفسه بطريركاً ببايعة ثلاثة أساقفة من المنطقة. بيد أن المقيان وكنيسة الشرق (الموصل) أبيا الخضوع له، فاستعان ثانية بالوالي الأرثوذي، وتمكن بمعاوضته أن ينال الاعتراف بولايته البطريركية سنة ١٢٩٨. وهكذا قام في تلك

(٤٣) للوقوف على تاريخ دير الزعفران، راجع اغناطيوس افرام برصوم: ترجمة الأذهان في تاريخ دير الزعفران، ماردين ١٩١٧.

- Paul Kruger, *Das Syrisch-monophysitische Mönchtum im Tūr 'Abdin*, dans OCP 4 (1938) p. 5 - 46 (21-22).

(٤٤) اسحق أرملة: لغة تاريخية في أديار ماردين، المشرق ١٢ (١٩٠٩)، ص ٧٦٠ - ٧٧٠.

(٤٥) حاشية ١٠٦.

الحَقِيقَةِ، بِطَرِيقَ كَانَ يَعْقُوبِيَانِ شَرْعِيَّانِ: أَحَدُهُمَا فِي قَبْلِيَقِيَا وَالْآخَرُ فِي مَارْدِينِ^(٤٦).

وَلَمْ يَكُنْ بَرُوهِب، فِي ذَلِكَ الْمُعْتَرِكِ الْمُضْطَرِ، لِتَهْمِلِ النَّشَاطَ الْأَدْبِيَّ. وَمِنْ آثَارِهِ نَاقُورَةُ سُرْيَانِيَّةً، وَكُتِبَتْ بِـ ٣٦٦ صَفْحَةٍ، يُعْثَرُ فِي «كِتَابِ الْمَوَادِّ» بِتَضَمُّنِ تَعْلِيْقَاتٍ رَمَزِيًّا صُوفِيًّا عَلَى أَحْرَفِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ^(٤٧).

وَقَدْ بَرَزَ، فِي تِلْكَ الْحَقِيقَةِ، طَائِفَةٌ مَرْمُوقَةٌ مِنَ الْكُتَّابِ الْيَعَاقِبَةِ وَرَدَ ذِكْرُهُمْ فِي تَضَاعِيفِ الْمُصَنَّفَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ، فِي كِلْتَا اللَّغَتَيْنِ السُّرْيَانِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ، نَحْصٌ بِالذِّكْرِ مِنْهُمْ: ابْنُ سَكَا يَعْقُوبُ بْنُ عِيسَى الْبَرْطَلِيَّ (١٢٤١+) (٤٨)، وَقَدْ وَضَعَ خُلَاصَةً لِأَهْوِيَّةٍ بِالسُّرْيَانِيَّةِ نُقِلَتْ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ يُعْثَرُ فِي «كِتَابِ الْكُنُوزِ» أَوْ «كِتَابِ الدُّخَائِرِ»^(٤٩).

وَفِي مَارْدِينِ أَيْضًا عَاشَ إِسْحَقُ بْنُ أَبِي الْفَرَجِ بْنِ الْقَبْسَرِ الْمُطْطَبِّ، وَهُوَ نَسَاجُ مَعْرُوفٌ، حَطَّ بِبَيْدِهِ، سَنَةَ ١٢٩٩، النُّسخَةَ الْعَرَبِيَّةَ لِإِنْجِيلِ مَنْحُولِ يَرْوِي طُفُولَةَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، وَهُوَ مَحْفُوظٌ فِي مَخْطُوطَةٍ فِي فُلُورَنْسَا^(٥٠).

وَمِنْ يَجْدُرُ ذِكْرُهُمْ أَيْضًا، فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، الرَّاهِبُ إِبْرَاهِيمُ الْمَارْدِينِيُّ^(٥١)،

٤٦ BO 2, p. 381-382; J.S. Assemani, *De Syris Monophysitis Dissertation*, Romae 1730, p. 49.

٤٧ GCAL 2, p. 271.

٤٨ حسب عراف، وفي سنة ١٢٩٠ حسب برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٥٣٩ - ٥٤٠.

٤٩ برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٥٣٩ - ٥٤٠؛ GCAL 2, p. 269.

٥٠ Flor. Pal. Med. or. 32 (n° 387); cf. aussi M. Provera, *Il Vangelo arabo dell'infanzia*, Gerusalemme 1973, p. 26-27.

٥١ BO 2, p. 471.

وَدَانِيَالُ الْمَارْدِينِيُّ^(٥٢)، وَشِعْرُ بْنُ خَبْرُونَ^(٥٣) (١٢٧٥ - ١٣٣٥)، وَقَدْ عَاشَ فِي دَيْرِ الْقَطْرَا، أَوْ دَيْرِ السَّيِّدَةِ فِي مَارْدِينِ، وَخَلَّفَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْقَصَائِدِ تَتَنَاولُ أَحْدَاها وَصَفَ الْقُورَةِ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي مَارْدِينِ سَنَةَ ١٣٣٣، وَأَدَّتْ إِلَى هَذِهِ كَبِيرَةِ الْأَرْبَعِينَ شَهِيدًا وَكَتَائِسَ أُخْرَى فِي الْمَدِينَةِ، وَأَذِيرَةً فِي مُخْتَلِفِ مَنَاطِقِ الشَّرْقِ. وَعُرِفَ وَالِدُهُ، صَلِيحُ بْنُ خَبْرُونَ^(٥٤) بِمِلَافَانِ الشَّرْقِ، وَتَوَفَّى مِنْ بَعْدِ ابْنِهِ الرَّاهِبِ سَنَةَ ١٣٤٠.

هَذِهِ الْأَضْطِرَابَاتُ الطَّائِفِيَّةُ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي مَارْدِينِ إِثْرَ وَقَاةِ الْبَطْرِيرِكِ بَرُوهِبِ وَتَنْصِيبِ ابْنِ أَخِيهِ خَلْقًا لَهُ، تَشْهَدُ بِأَنَّ الْمَسِيحِيَّينَ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ لَمْ يَكُونُوا بِمَأْمَنٍ حَرِيصٍ مِنَ الْمَخَافَةِ وَالْمُكَارِهِ، مَعَ أَنَّ الْأَنْثِقِيَّينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ حَظِيَ بَرُوهِبُ بِجَاهِيَّتِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ كَانُوا إِجْمَالًا عَلَى جَانِبٍ مِنَ التَّسَامُحِ فِي مُعَامَلَةِ رَعَايَاهُمْ الْمَسِيحِيَّينَ، مُنْتَهَجِينَ فِي ذَلِكَ سِيَاسَةَ أَسْيَادِهِمُ الْإِلْخَانِيَّينَ الْمَغُولِ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَتَقَى لِيَلْبِي أَرْثُقَ الْعُدُولِ أَحْيَانًا عَنْ هَذَا التَّهَجُّجِ الْمُنَوَازِنِ، وَحَجَبَ عَطْفُهُمْ وَجَاهِيَّتَهُمْ عَنِ الْمَسِيحِيَّينَ^(٥٥)، وَهَذَا مَا يُعَلِّعُ رُبَّمَا أَنَّ ابْنَ الْمَخْرُومَةِ الَّذِي وَضَعَ

٥٢ برصوم يميزه من دانيال الخطاب في اللؤلؤ المنثور، ص ٥٥١.

٥٣ برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٥٤٦.

٥٤ المرحوم نفسه، ص ٥٤٧.

٥٥ حدث ذلك في حق الصراخ بين الارثوذكس والايوبيين سنة ١٣٣٤، وفي فترات التطاحن بين الارثوذكس والمغول والتركمان والملك للاستيلاء على البقاع العليا من بلاد ما بين النهرين. راجع:

E. Quatremère, *Histoire des Mongols de Perse (de Rasid al-Din)*, Paris 1836, I, p. 378; Mufaddal Ibn Abi al-Fadā'il, *Histoire des Sultans Mameluks*, éd. E. Blochet, PO 12 (1919) p. 435; 10 (1920) p. 526; Ibn al-Fuwa'if (naguère attribué à Al-hawādīt al-gām'a wa-l-tagārib al-nāfi'a. fr l-mi'a al-sāb'a, éd par Mustafā Gāwād, Bagdad 1351 H / 1932 A. J.C., p. 499-500; B. Spuler, *Die Mongolen in Iran*, Berlin 1955², p. 359; Cl. Cahen, *L'histoire du Diyār Bakr au XI^e s.*, dans *Journal Asiatique*, 243 (1955) p. 65-100; Ibn Taghribirdī, Abū l-Mahāsīn Gāmil al-Dīn Yūsuf, *K. al-nuḡūm al-zāhira fī mulūk Miṣr wa l-Qāhira*, viii, Le Caire 1348 H / 1929 A. J.C.; Rasid al-Dīn, Faḍl Allāh, *Gām'at al-tawārīq*, tr. ar., Le Caire 1960, I, p. 326.

حواشيه في تلك الحِفْظَةِ عَيْنَهَا، آثَرَ الْأَبْجَازِ فِي التَّعْلِيلِ عَلَى الْمُعْتَقَدِ الْإِسْلَامِيِّ فِي
الباب الرابع من كتاب «التنقيح».

هذا المَوْقِفُ الْحَكِيمُ جَنَّبَهُ، وَلَا رَبَّ، الْكَارِثَةَ الَّتِي تَعَرَّضَ لَهَا، بَعْدَ ثَلَاثِينَ
سَنَةً، ابْنُ مَذْهَبِهِ دَانِيَالُ بْنُ الْخَطَّابِ الْمَارْدِينِيِّ (١٣٨٢+)، إِذْ خَطَرَ لَهُ أَنْ يُضْعَ كِتَابًا
فِي الْجَدَلِ الدِّينِيِّ، بِعُتْوَانٍ «فِي أُصُولِ الدِّينِ» فَاضْطُرَّ إِلَى الْمُتَوَلَّى أَمَامَ وَالِي مَارْدِينٍ
الْمَلِكِ الطَّاهِرِ الْأَرْنَؤَيْ، فَأَمَرَ بِجَلْدِهِ وَجَرَّوهُ فِي الشَّوَارِعِ. وَلَكِنَّهُ ظَلَّ عَلَى الْمُجَاهَرَةِ
بِإِيمَانِهِ فَسُجِّنَ حَتَّى أَقْبَلَ بَعْضُ الْمَسِيحِيِّينَ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَافْتَدَوْهُ بِالْمَالِ، وَهَكَذَا
اسْتَطَاعَ أَنْ يَكْتُبَ قِصَّةَ جِهَادِهِ (٥٦).

تِلْكَ هِيَ الْبَيْئَةُ الَّتِي عَاشَ فِيهَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ نَحُومَ الْخَبَّازِ
ابْنُ الْمَحْرُومَةِ. كَانَ نَاشِطًا فِي التَّأْلِيفِ سَنَةَ ١٢٩٠، وَتُوفِّيَ أَكِيدًا قَبْلَ سَنَةِ ١٣٥٤.
أَتَقَنَّ السَّرْيَانِيَّةَ لُغَةً وَخَطًّا، وَنَسَخَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ «كِتَابَ الْحَمَامَةِ» لِابْنِ الْعَبْرِيِّ، كَمَا أَتَقَنَّ
الْعَرَبِيَّةَ لُغَةً وَخَطًّا، وَنَسَخَ الْمُقَدِّمَةَ الْعَرَبِيَّةَ لِتَرْجَمَةِ كِتَابِ ابْنِ الْعَبْرِيِّ. وَهُوَ أَيْضًا
صَاحِبُ الرَّدِّ عَلَى كِتَابِ «تَنْقِيحِ الْأَبْحَاثِ لِلْمَلِكِ الثَّلَاثِ»، الَّذِي وَضَعَهُ الْفَلَسُوفُ
الْيَهُودِيُّ الْبَغْدَادِيُّ ابْنُ كَمُونَةَ سَنَةَ ١٢٨٠. وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّ تَارِيخَ هَذَا الرَّدِّ - أَوْ هَذِهِ
التَّحْشِيَةِ - يَرْجِعُ إِلَى الْفَتْرَةِ مَا بَيْنَ سَنَةِ ١٣٣٣ وَسَنَةِ ١٣٤٠.

كِتَابُ «التنقيح» لابن كَمُونَةَ

أ - وَصْفُ الْكِتَابِ

أَهَمُّ مَوْقِفَاتِ ابْنِ كَمُونَةَ، عَلَى الصَّعِيدِ الْفِكْرِيِّ، كِتَابُهُ «تَنْقِيحُ الْأَبْحَاثِ لِلْمَلِكِ
الثَّلَاثِ»، وَقَدْ نَشَرَهُ الْمُسْتَشْرِقُ الْيَهُودِيُّ مُوشِي بِرْلَانْ مَمَهْدًا لَهُ بِصَفَحَاتٍ قَلِيلَةٍ، ثُمَّ نَقَلَ
إِلَى الْإِنْكَلِيزِيَّةِ مَعَ مُقَدِّمَةٍ وَتَعَالِيْقٍ وَافِيَةٍ (٥٧).

وَقَدْ وَصَفَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْمَانِيَّةُ شْتِيفَنْبِلِرْ بِقَوْلِهِ: «لَعَلَّهُ أَهَمُّ الْمُصَنَّفَاتِ الْعَرَبِيَّةِ
فِي الْجَدَلِ الدِّينِيِّ» (٥٨) وَقِيلَ فِيهِ أَيْضًا: «إِنَّهُ يَتَمَيَّزُ بِالْبَحْثِ فِي الْمُغْضِلَاتِ
الْأَلَاهُوتِيَّةِ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَالِمِ الْمُكِبِّ عَلَى نَمُوذَجٍ فِي الْمُحْتَبَرِ» (٥٩).

وَقَدْ وَصَلَ إِلَيْنَا «التنقيح» عِبْرَ مَخْطُوطَاتٍ خَمْسٍ، مِنْهَا مَا هُوَ مَكْتُوبٌ بِالْخَطِّ
لِعَبْرِيٍّ وَمِنْهَا بِالْخَطِّ الْعَرَبِيِّ (٦٠) أَحَدُهَا وَأَوْضَحُهَا الْمَخْطُوطَةُ رَقْمَ ١٥ مِنْ مَكْتَبَةِ
الْأَنْجِيَلِيكَا فِي رُومَةِ (سَنَةِ ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م) «نَسَخَهَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ،

(٥٧) راجع حاشية ٢ و ٣ في التمهيد

(٥٨) Die pol. u. apol. Lit. in arab. Spr., Leipzig 1877, p. 409.

(٥٩) L. Nemoy, The arabic Treatise on the Immortality of the soul, New-Haven 1944.
Introduction.

(٦٠) راجع M. Perlmann, Ibn Kammuna's Examination, Ed. Introduction.

(٥٦) F. Nau, Rabban Daniel de Mardin, auteur syro-arabe du XIVe s., dans ROC 10 (٥٦)
(1905) p. 314-318; برصوم، الذُّلُوفُ الْمَشْهُورُ، ص ٤١٦ - ٥٥١

المُؤَرِّذَيْنِ، الرَّاجِي عَنَّا رَبِّهِ، مَسْعُودَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ أَرْجُولِ الْمَارِدِيِّ مَوْلِدًا، الْمَسِيحِي مُعْتَقِدًا»^(٦١).

وَيَسَّأَلُ «التَّنْفِيحُ» مِنْ أَرْبَعَةِ فُصُولٍ، أَوَّلُهَا فِي النُّبُوَّةِ، وَالثَّلَاثَةُ الْآخَرَى، عَلَى التَّوَالِي، فِي الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ.

وَتَمْتَأُزْ مَحْظُوطَةٌ الْأَنْجِيلِيكَ، دُونَ غَيْرِهَا مِنْ مَحْظُوطَاتِ «التَّنْفِيحِ»، بِأَنَّهَا تَنْتَضِعُ رَدَّ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ عَلَى صَاحِبِ «التَّنْفِيحِ» فِي مَعْرِضِ كَلَامِهِ عَنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ أَبْوَابِ الْكِتَابِ.

ب - نَهْجُ الْكِتَابِ

وَصَفَّ ابْنُ كَمُونَةَ، فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ، النَّهْجَ الَّذِي اتَّبَعَهُ فِي تَنْفِيحِ الْأُبْحَاثِ لِلْمِلَلِ الثَّلَاثِ. فَبَعْدَ عَرْضِ أَحْوَالِ النُّبُوَّاتِ مَجْمَلًا، فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ، تَنَازَلَ مَا يَخْتَصُّ بِكُلِّ مِلَّةٍ مِنَ الْمِلَلِ الثَّلَاثِ، عَلَى تَرْتِيبِ أَرْبَعِيَّتِهَا، أَيْ مِلَّةِ الْيَهُودِ وَمِلَّةِ النَّصَارَى وَمِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَحَكَى «عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ أَصُولَ مُعْتَقَدِهَا دُونَ الْفَارِغِ لِتَعْدُّ اسْتِيفَائِهَا، وَأَرَادَ ذَلِكَ بِحِكَايَةِ أَدْلَةٍ أَرْبَابِهَا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ الْآتِي بِهَا، وَأَوْرَدَ مَا وَجَّهَ مِنَ الْمَطَالَعِينَ عَلَيْهَا، وَمَا ذُكِرَ مِنَ الْأُجُوبَةِ عَنْهَا، مُنْبِئًا عَلَى مَوَاقِعِ الْأَفْظَارِ فِيهَا وَمُمَيِّزًا مَا يَصْلُحُ لِأَنْ يُعَوَّلَ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْأُجُوبَةِ عَمَّا لَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ مِنْهَا»^(٦٢).

(٦١) تتألف هذه المخطوطة من ١٦٣ ورقة، وفي كل صفحة ١٦ سطرا. وهي مكتوبة بالخط النسخي على يد خطوط واحد. ويقرأ في دقة المخطوطة: Abrah. Echel. وفي ذلك إشارة إلى أن المخطوطة مرت فتره بين يدي العلامة اللبناني إبراهيم الخالقي.

(٦٢) مقدمة التنفيح، ص ١

ج - بَيِّنَةُ الْكِتَابِ

كِتَابُ «التَّنْفِيحِ» كَكُلِّ نِتَاجٍ أَصِيلٍ، يَعْكِسُ الْبَيِّنَةَ الَّتِي كُتِبَ فِيهَا: بَعْدَادٌ فِي الْقُرُونِ الثَّالِثِ عَشَرَ، تَحْتَ حُكْمِ الْمَغُولِ.

فَعَلَى الصَّعِيدِ السِّيَاسِيِّ، نَشَهُدُ احْتِصَارَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَزَحْفَ الْمَغُولِ فِي الشَّرْقِ وَمَا وَكَبَ ذَلِكَ مِنْ سَقُوطِ عُرُوشٍ وَسَقَطِ دِمَاءٍ وَأَنْدِيَارٍ حَضَارَةٍ، وَمَا عَقِبَ ذَلِكَ مِنْ سَجْيٍ إِلَى تَنْظِيمِ الْأَفْظَارِ الْمُجْتَاحَةِ تَنْظِيمًا إِدَارِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا.

عَلَى الصَّعِيدِ الدِّينِيِّ، تَمَيَّزَ حُكْمُ الْمَغُولِ، فِي حِقْفِيَّةِ الْأَوَّلَى، بِالتَّسَامُحِ فِي عِلَاقَاتِ الدَّوْلَةِ بِمُخْتَلِفِ الْأَذْيَانِ وَالْمَذَاهِبِ، وَبِشَيْءٍ مِنَ الْعَطْفِ عَلَى الْأَقْلِيَّاتِ الْمَسِيحِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَالشَّيْعِيَّةِ. هَذَا التَّسَامُحُ مَا عَتَمَ أَنْ اسْتَحَالَ، مَعَ أَحْمَدَ ١٢٨٣ - ١٢٨٤) وَمُنْذُ عَهْدِ غَازَانَ (١٢٩٥) إِلَى نَمَطٍ مِنَ التَّشَدُّدِ عَلَى هَذِهِ الْأَقْلِيَّاتِ وَوُجُوحِ كَفَّةِ الْإِسْلَامِ وَاسْتِعَادَةِ مَكَانَتِهِ وَهَيْبَتِهِ مِنْ بَعْدِ أَنْ اعْتَنَقَ الْإِلْخَانَاتُ، فِي بِلَادِ فَارِسَ.

وَأَمَّا عَلَى الصَّعِيدِ الْحَضَارِيِّ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْيَسِيرِ التَّصَدِّي لِعَوَامِلِ التَّفَكُّكِ الاجتماعيِّ وَالانْحِلَالِ الْخُلُقِيِّ. فَجَمَعَ عَنْ ذَلِكَ، مِنْ بَعْدِ أَقُولِ حَقْبَةِ الْإِبْدَاعِ الْفِكْرِيِّ وَالْعِلْمِيِّ، عُكُوفُ الْأَدْبَاءِ عَلَى التَّكْرَارِ وَالتَّقْلِيدِ، وَانْكِثَاءُ الْعُلَمَاءِ بِمَشْغَرَاتِ السَّلَفِ. وَلَمْ يَبْزُرْ مِنْ بَيْنِ هَذَا الْحُطَامِ إِلَّا الْمُؤَرِّخُونَ، وَقَدْ وَجَدُوا فِي أَحْدَاثِ تِلْكَ الْحَقْبَةِ مَادَّةَ غَزِيرَةٍ وَجَدِيدَةٍ لِإِنْتَاجِهِمْ، وَفِي تَشْجِيعِ الْحُكَّامِ حَافِزًا لِنَشَاطِهِمْ اسْتَعْلَاهُ أَوَّلُو السُّلْطَانِ لِيَسْطُو نَفوذِهِمْ وَإِعْلَافُ شَائِنِهِمْ.

د - قِيَمَةُ الْكِتَابِ

قَدْ يَبْدُو لَنَا «التَّنْفِيحُ» لِأَوَّلِ هَذِهِ، مَجْمُوعَةٌ مُقَمَّشَةٌ مِنَ النُّصُوصِ الْمُخْتَلَسَةِ

من كُتِبَ السَّلَفُ وَمُصَنَّفَاتُ الْأَقْدَمِينَ. والواقعُ أَنَّ ابْنَ كُمُونَةَ، كَالكَثِيرِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ وَأَسْلَافِهِ، لَا يَتَوَقَّعُ عَنِ الْإِزْكَازِ عَلَى غَيْرِهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِأَقْطَابِ الْفِكْرِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ. وَقَدْ يَسْتَشْهَدُ بِهِمْ أَحْيَانًا صِرَاحُهُ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِمْ وَعَنَاوِينَ كُتُبِهِمْ. وَلِكَيْتَهُ فِي مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ، يَفْتَقِطُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ مِنْ دُونِ ذِكْرِ الْمَرَاجِعِ وَالْمَنَاصِعِ.

يَبْدُو أَنَّ هَذَا الْكَاتِبَ الْمُتَوَهَّبَ وَالْمُفَكِّرَ الْأَصِيلَ يَسْرِعُ فِي قَرِّ التَّصْنِيعِ وَالتَّرْوِيقِ، وَيَعْرِفُ كَيْفَ يُفْرِغُ عَلَى مُقَرَّرَاتِهِ طَابَعَهُ الشَّخْصِيَّ، وَيَتَنَاوَلُهَا بِالتَّرْتِيبِ وَالتَّضْيِيدِ وَالتَّوَضُّيْحِ، وَيُضْفِي عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ طِلَافًا أَدْبِيًّا وَفَكْرِيًّا يُمَوِّهُ مَوَاضِعَ التَّقْمِيشِ وَمَعَالِمَ التَّرْكِيبِ، وَيَجْعَلُ مِنْهُ مُصَنَّفًا مِنْ أُنْدَرِ الْمُصَنَّفَاتِ الْكَلَامِيَّةِ تَرْبِيًّا وَتَسْنِيفًا وَوُضُوحًا، وَنَمُودَجًا خَالِصًا مِنْ نَازِحِ الْبَيْتَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَالذِّينِيَّةِ فِي عَهْدِهِ الْمَعُولِ.

وَيَتِمَّازُ ابْنُ كُمُونَةَ بِمَعَارِفِهِ الْكِتَابِيَّةِ وَاطِّلَاعِهِ الدَّقِيقِ عَلَى التَّوَرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَهَارَتِهِ فِي عُلُومِ التَّفْسِيرِ وَوُجُوهِ اسْتِعْلَالِهَا فِي مُعْتَرَكَاتِ الْجَدَلِ الدِّينِيِّ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الْحَذَاقَةَ الْكِتَابِيَّةَ لَا تَمْتَنِعُ صَاحِبَ «التَّفْقِيعِ» مِنْ أَنْ يَبْدُو، فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى، مُمَيَّلًا لِلتَّرَوُّعِ الْعَقْلَانِيَّةِ الْمُتَدَبَّرَةِ، عَلَى طَرِيقَةِ الْفَارَابِيِّ وَابْنِ سِينَا وَالطُّوسِيِّ وَالرَّازِيِّ وَغَيْرِهِمْ. فَإِنَّ كُمُونَةَ فَيْلَسُوفٌ وَمُفَكِّرٌ، بُغْيَتُهُ «تَفْقِيعُ الْأَبْحَاثِ لِلْمَلَلِ الثَّلَاثِ»، أَيْ تَسْلِيْطُ الْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ عَلَى مَا تَتَدَاوَلُهُ الْأَذْيَانُ مِنْ أَصُولٍ مُعْتَقَدَاتِهَا، وَمَا تَتَمَرَّضُ لَهُ مِنَ الْمَطَاعِينِ وَمَا تَسْتَنْبِطُهُ مِنَ الْأَجْوِبَةِ عَلَيْهَا (٦٣). وَغَايَتُهُ فِي آخِرِ الْمَطَافِ إِعْلَانُ رَأْيِهِ الشَّخْصِيِّ فِي كُلِّ مِنَ الْأَذْيَانِ الثَّلَاثَةِ، بِاعْتِبَارِ كُلِّ مِنْهَا وَحْدَةً مُتَمَاسِكَةً لَهَا مُعْتَقَدَاتُهَا وَمُتَحَوِّتُ إِيمَانِهَا وَمُسْتَنْدَاتُهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْإِعْجَازِ، مِنْ جِهَةٍ، وَالتَّوَاتُرِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

هـ - نَزَاهَةُ الْفِكْرِ الْكُمُونِيِّ

أَذْيَانُ ثَلَاثَةٌ: أَسْئَلُهُ ثَلَاثَةٌ! وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ أَنَّ ابْنَ كُمُونَةَ قَدْ عَالَجَ الَّذِينَ الْيَهُودِيَّ لَا كَسَالَتَهُ مَطْرُوحَةً بَلْ كَحَلِّ جَاهِزٍ وَكَجَوَابِ مُسَبِّحٍ. وَأَمَّا الْمَسِيحِيَّةُ فَقَدْ وَجَدَتْهَا، بَعْدَ التَّرْكِيزِ عَلَى الْمَطَاعِينِ الْمُوجَّهَةِ إِلَيْهَا، أَجْوِبَةً سَرِيعَةً وَغَيْرَ شَافِيَةٍ بِوَجْهِ الْإِجْمَالِ. وَأَمَّا الْفِرْيَةِ الْمُوجَّعَةُ، فِي هَذَا الْأَمْتِحَانِ الْعَقْلَانِيِّ، فَقَدْ تَلَقَّاهَا الْإِسْلَامُ فَكَانَ أَكْثَرُ مَنْ نَادَى مِنْ عَمَلِيَّةِ التَّفْقِيعِ الَّتِي تَوَخَّاهَا الْفَيْلَسُوفُ الْيَهُودِيَّ.

كُلُّ هَذَا يَطْرَحُ السُّؤَالَ: هَلْ كَانَ ابْنُ كُمُونَةَ مُنْصِفًا نَزِيهًا فِي أَحْكَامِهِ عَلَى الْأَذْيَانِ الثَّلَاثَةِ؟ لَقَدْ صَرَّحَ فِي مَقْلَعِ كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: «لَمْ أَمِلْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَعَ الْهَوَى، وَلَا تَعَرَّضْتُ لِتَرْجِيعِ مِلَّةٍ عَلَى أُخْرَى، بَلْ قَرَّرْتُ مَبَاحِثَ كُلِّ مِلَّةٍ إِلَى غَايَتِهَا الْفَقْصَى» (٦٤). فَهَلْ وَفَى بِوَعْدِهِ؟

لَا شَكَّ أَنَّ ابْنَ كُمُونَةَ حَاوَلَ الْإِتِمَامَ الْمَوْضُوعِيَّةَ فِي عَرْضِهِ وَتَمَحْصِيصِهِ لِلأَذْيَانِ الثَّلَاثَةِ، وَتِلْكَ صِفَةٌ فَلَمَّا تَجَدَّهَا عِنْدَ مَنْ سَبَقَهُ أَوْ عَاصَرَهُ مِنْ أَصْحَابِ الْمُصَنَّفَاتِ الْمُعْيِيَّةِ بِالْمُنَاطَرَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَقَدْ أَقْرَأَ هَا، بِشَيْءٍ مِنَ الْمُبَالَغَةِ، الَّذِينَ أَلْمَوْا بِكِتَابَتِهِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْمُعَاصِرِينَ. فَإِنَّ كُمُونَةَ يَتَحَرَّى الدَّقَّةَ الْعِلْمِيَّةَ فِي عَرْضِ الْمُعْتَقَدَاتِ وَذِكْرِ الْبُرْهَانِ وَالْمَطَاعِينِ وَالْأَجْوِبَةِ. وَهُوَ، إِلَى ذَلِكَ، يَسْتَبْنِي ذَهْنِيًّا مَوْقِفَ أَرْبَابِ الْمِلَّةِ الَّتِي يُعْرِضُ لَهَا، فَيَتَوَبُّ مِنْهَا بِهَمٍّ فِي الْوَفَاقِ عَنْ مُعْتَقَدِهِمْ، وَيُكَيِّلُ مَا نَقَصَ مِنْ أَدْلَتِهِمْ (٦٥)، وَيُبْرِزُ مَا فَاتَهُمْ مِنْ حَسَنَاتِ دِينِهِمْ وَإِعْجَازِيَّاتِهِ.

وَلَكِنَّ مَنْ يَجْهَلُ صُعُوبَةَ هَذَا الرِّهَانِ الْكَبِيرِ، وَوُغُورَةَ التَّقْيِيدِ بِالتَّرَاهَةِ وَالْإِنْصَافِ

(٦٤) مقدمة التفقيع، ص ١

(٦٥) يقول ابن كُمُونَةَ فِي خَتْمِ عَرْضِهِ لِلْمَسِيحِيَّةِ: «وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْأَجْوِبَةِ لَمْ أَجِدْهَا فِي كَلَامِ النَّصَارَى، وَلَكِنِّي أَجَبْتُ بِهَا نَابَةَ عَهْمِ وَتَمَنِّيَا لِلظُّلْمِ فِي مَعْتَقَدِهِمْ» (تفقيع ص ٦٦).

في البحث والتقصي، ولا سيما في أمور المعتقد والمذهب؟ فالذين هو من الشؤنين التي يتعذر فيها التزام الجهاد المطلق. فهو جزء من ذاتنا ويتناول أعماق ما في ضميرنا وأخطر ما في مصيرنا، وأدق ما يمكن أن ينس إحساسنا.

وجملة القول أن ابن كمونة الفيلسوف اليهودي، بالرغم من محاولته الصادقة ونهجه الجديد في الانفتاح على الغير، لم يوفق في التجرد تاما عن عصبية، والانغلاق من مشاعيره، فكان شديد التساهل مع اليهودية، مشككا في المسيحية، صارما في حكمه على الإسلام.

وهذا ما يعجل انقضاء العوام سنة ١٢٨٤ على صاحب «التفتيح»، ومطابقتها الحكام بالفضاء عليه.

وهذا ما يسر رد ابن المحرومة على «التفتيح»، ستن سنة من بعد ظهوره، فكان آخر الردود التي أثارها كتاب الفيلسوف اليهودي.

الرّدود على «التفتيح»

هناك لا أقل من أربعة ردود على كتاب «التفتيح» آخرها تحشية ابن المحرومة.

١- الدر المنصود في الرد على فيلسوف اليهود (٦٥١-٦٩٤ هـ/١٢٣٣-١٢٩٥ م)

صاحبه مظفر الدين أحمد بن علي بن تغلب بن أبي الصياء ابن الساعاتي^(٦٦). بعلبكبي الأصل ولد في بغداد حيث استندعي والده بوضع الساعات في واجهة

(٦٦) نجد عنه معلومات ضافية في كتاب «تاريخ علماء المستنصرية» ناجي معروف، بغداد ١٩٥٩، ص ٦٠

لمدرسة المستنصرية، فلقب ولده بابن الساعاتي. وقد عين أستاذا في المستنصرية، واتدب شاهدا في محكمة قاضي القضاة ابن الزنجاني الذي تولى النظر في قضية ابن كمونة. وأغلب الظن أن ابن الساعاتي اطلع في تلك المناسبة على كتاب «التفتيح» لابن كمونة وعقد العزم على الرد عليه.

ولابن الساعاتي مؤلفات أخرى أشهرها «مجمع البحرين»^(٦٧)، أنجزه سنة ٦٩٠ هـ/١٢٩١، ثم شخص إلى مصر فلم يكن حظها فيها أفضل منه في بغداد حيث تردت، على ما يبدو، أوضاعه المالية. توفي سنة ٤٩٤ هـ/١٢٩٤-٩٥ م، عثر سجين بعد وفاة ابن كمونة.

أما كتابه «الدر المنصود»، فلم يبلغ إلينا منه سوى العنوان، وقد أورد حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون»^(٦٨)، وذكره ابن الرافعي في كتابه «منتخب المختار»^(٦٩).

٢- نهوض حثيث اليهود إلى خووض خبيث اليهود

لا تعرف إلا القليل عن واضع هذا الكتاب، وهو سريجة زين الدين محمد سلطحي الشافعي المتوفى سنة ٧٨٨ هـ/١٣٨٦-٨٧ م، والأقل عن ردو على كتاب ابن كمونة. أصله من مملكة في أرمينيا الصغرى، وعاش في ماردين، وربما عرف فيها ابن المحرومة في أيامه الأخيرة. نجد لائحة بتأوين تأليفه في كتاب «كشف

(٦٧) طر جرجس أفندي صفا، في مجلة المشرق ١٩٠٢، ص ١٦٤

(٦٨) كشف الظنون، ليزيخ ١٨٣٥، ص ١٩٣، رقم ٤٨٨٤.

(٦٩) طر ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، بغداد ١٩٥٩، ص ٦١

الطنون» (٧٠) حَيْثُ نَقَعَ عَلَى غُؤَانِ كِتَابِهِ «نُحُوسٌ حَيْثُ الْيَهُودُ»، مَعَ مُجَرَّدِ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ رَدٌّ عَلَى كِتَابِ ابْنِ كَمُونَةَ.

وَيَجْدُرُ التَّنْبِيهُ إِلَى أَنَّ هَذَا الرَّدَّ عَلَى «التَّنْفِيحِ» هُوَ مِنْ وَضْعِ كَاتِبٍ مَارْدِينِيٍّ، وَفِي ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ وَفْقَ كِتَابِ ابْنِ كَمُونَةَ فِي الْأَوْسَاطِ الْمَارْدِينِيَّةِ. فَنِي مَارْدِينٍ عَاشَ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ صَاحِبُ الْحَوَاشِي، وَنَاسِخُ مَخْطُوطَةِ الْأَنْجِيلِيكََا ابْنِ أَرْجُوكَ، وَالشَّخْصُ الَّذِي أَهْدَيْتُ إِلَيْهِ الْمَخْطُوطَةَ الْبَرْلِينِيَّةَ لِكِتَابِ «التَّنْفِيحِ» (٧١).

٣ - كِتَابُ إِبْرَاهِيمَ النَّبُوءَةِ

هُوَ كِتَابٌ غُفِّلَ غَيْرُ ذِي شَأْنٍ أَلْمَحَ إِلَى وُجُودِهِ الْأُسْتَاذُ تَانْجِي فِي مَجْمُوعَةِ مَخْطُوطَاتِ الْمَكْتَبَةِ السُّلَيْمَانِيَّةِ (اسطنبول) (٧٢).

حَوَاشِي ابْنِ الْمَحْرُومَةِ

النَّصُّ الْأَهَمُّ الَّذِي بَلَغَ إِلَيْنَا فِي الرَّدِّ عَلَى «التَّنْفِيحِ» هُوَ مَجْمُوعَةُ الْحَوَاشِي أَوْ النَّحْشَةِ الَّتِي وَضَعَهَا ابْنُ الْمَحْرُومَةِ فِي تَضَاعِيفِ كِتَابِ الْفَيْلَسُوفِ الْيَهُودِيِّ. وَهِيَ تَعَالَفُ مِنْ ١٣٣ حَاشِيَةً تَتَخَلَّلُ نَصُّ الْبَابِ الثَّانِي (فِي الْيَهُودِيَّةِ) وَالْبَابِ الثَّالِثِ (فِي الْمَسِيحِيَّةِ) مِنْ كِتَابِ «التَّنْفِيحِ».

وَيُمَيِّزُ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ لِلْحَوَاشِي بِذِكْرِ وَاقِعَةٍ اقْتَضَتْ كِتَابَتَهَا فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ عَلَى مِلَّةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ثَوْنٌ غَيْرِهَا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ (٧٣). وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ هَذِهِ

(٧٠) كَشَفَ الطَّنُونُ ٧، ص ١٢٥٦، رَقْم ٩٤٦٤.

(٧١) هُوَ عَيْدُ الْخَالِقِ كَمَالِ الدُّوَلَةِ بَيْرُوتِ الْمَارْدِينِيِّ

(٧٢) التَّنْفِيحِ، ص ١١، حَاشِيَةُ ٣

(٧٣) حَاشِيَةُ ١

الْمُلاحَظَةُ هِيَ مِنْ قَبْلِ التَّوَرِيَّةِ الْأَدْبِيَّةِ، وَلَا تُفِيدُنَا شَيْئًا فِي مَعْرِفَةِ الدَّوَاعِي الْحَقِيقِيَّةِ وَالْقَرَائِنِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي اكْتَشَفَتْ وَضَعَ هَذِهِ الْحَوَاشِي.

وَيَتَضَحُّ مِنْ هَذِهِ الْإِشَارَةِ التَّمْهِلِيَّةِ قَرَارُ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ الْاِقْتِصَارَ عَلَى «مِلَّةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى» دُونَ التَّعَرُّضِ لِمَوَاقِفِ ابْنِ كَمُونَةَ مِنَ الْإِسْلَامِ. وَهُوَ قَرَارٌ قَطِينٌ إِذَا قِيسَ بِالظُّرُوفِ السِّيَاسِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا الْحَوَاشِي (٧٤).

أ - هَدَفُ الْحَوَاشِي

يَبْقَى السُّؤَالُ الْجَوْهَرِيُّ فِي شَأْنِ هَذِهِ الْحَوَاشِي: مَا هِيَ الْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْهَا؟ حَسْبَنَا قِرَاءَةُ لَهَا سَرِيعَةً، لِتَتَبَيَّنَ مِنْ أَنَّ لَهَا مَقْصِدَيْنِ: الطَّنُّ فِي الْيَهُودِيَّةِ وَالذُّودُ عَنِ الْمَسِيحِيَّةِ.

١ (الطَّنُّ فِي الْيَهُودِيَّةِ)

فِي التَّلَقُّقِ عَلَى كَلَامِ ابْنِ كَمُونَةَ فِي الْيَهُودِيَّةِ، يَتَوَخَّى الْكَاتِبُ الْمَارْدِينِيُّ إِفْحَامَ الدِّينِ الْمُسَوِي، وَذَلِكَ بِالتَّيْلِيلِ أَوَّلًا مِنْ سِيرَةِ أَتْبَاعِهِ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَبِالطَّنِّ ثَانِيًا فِي التَّوَرَةِ، رَكِيزَةً دِينِيَّةً وَأَسَاسَ مُعْتَقِدِهِمْ.

فَالْيَهُودُ مُنْذُ فَجَّرَ تَارِيخِيهِمْ وَغَيَّرَ أَجْيَالَهُمْ، مُتَّهَمُونَ بِالْكَفْرِ بِرَبِّهِمْ وَعِصْيَانِ أَوَامِرِهِ

(٧٤) تَمَّةُ حَاشِيَتَيْنِ وَجِيزَتَانِ فِي هَامِشِ الْبَابِ الْأَوَّلِ، وَكَأَنَّهَا عَارِضَتَانِ أَوْ مَضَافَتَانِ، وَتَشِيرَانِ، بِطَرِيقَةٍ حَاسِمَةٍ، إِلَى هَوِيَّةِ ابْنِ كَمُونَةَ الْيَهُودِيَّةِ:

١ - إِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا، فَلَمَّا خَلَّتْ تَوَرَةُ الْمُصَنِّفِ عَنْهُ بِالْكَلِيَّةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهَا مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ وَكُنْ بِذَلِكَ تَبَكُّيتًا لِلْمُصَنِّفِ وَتَسْكِينًا لَهُ وَرَدًّا عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ مَنْ يُوَافِقُهُ، غَيْرِ الْوَحْدَةِ وَفِي التَّشْبِيهِ وَكُنْ!

٢ - فَلَمْ تَخْلُ تَوَرَاتُكَ عَنْ ذِكْرِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِهِمَا كَالْمَعَادِ؟

والتَّسْكُرُ لِمُعْجَزَاتِهِ وَالْانْجِرَافُ وَرَاءَ الْأَوْتَانِ وَالْأَصْنَامُ ، وهذا ما يُعْلِلُ تَعَرُّضَهُمْ ، خلالَ تاريخِهِم الطَّوِيلِ ، لِعِقَابِ الدَّلِّ وَالتَّغْيِ والتَّشْرِيدِ ، تَحْقِيقًا لِلنُّبُوءَاتِ الْوَاقِعَةِ عَلَيْهِمْ .

وَأَمَّا زِيَادَةُ التَّكَالِيفِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى الْأُمَّةِ الْيَهُودِيَّةِ ، فَلَبَسَتْ مِنْ دَوَاعِي «التَّشْرِيفِ» ، كَمَا يَتَوَهَّمُ ابْنُ كَمُونَةَ . «فَكثُرَةُ التَّكَالِيفِ إِنَّمَا تَحْتَاجُهَا الْأَنْفُسُ الشَّرِيرَةُ الَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنْهَا الْأَخْلَاقُ الرَّذِيئَةُ ... وعلى هذا ، لَا تَكُونُ الزِّيَادَةُ الْمَذْكُورَةُ تَشْرِيفًا لَهُمْ - كَمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ - بَلْ إِنَّمَا تَكُونُ قُبُودًا تَمْتَنِعُهُمْ عَنْ سُلُوكِ السَّبِيلِ الرَّبَّيَّةِ الَّتِي فِي طِبَاعِهِمِ الْمَبْلُ إِلَى سُلُوكِهَا ...» (٧٥) .

ثُمَّ «لَمْ لَا يَجُوزُ - يَقُولُ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ - أَنْ تَكُونَ زِيَادَةُ التَّكَالِيفِ جُعِلَتْ لَهُمْ عَذْرًا تَنْصَاعَفُ أَوْزَارُهُمْ بِتَجَاوُزِهَا ، فَيَشْتَدُّ بِهَا عَذَابُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَعَقُوبَتُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ...» (٧٦) .

وَقُصَارَى الْقَوْلِ أَنَّهُ مِنْ نَعَمِ اللَّهِ عَلَى الْبَشَرِ أَنَّهُ أَرَاهَهُمْ مِنْ حَمَلِ أَثْقَالِ الشَّرْعِ الْمُسَوِّمَةِ ، وَأَعْقَابَهُمْ مِنَ الدُّخُولِ تَحْتَ الْعَلَةِ الَّتِي ... لَا بُدَّ وَأَنْ تَلَزِمَ أَهْلَ الْعِلَّةِ الْيَهُودِيَّةِ إِذَا خَالَفُوا شَيْئًا مِنْ أَوْامِرِ التَّوْرَةِ وَنَوَاهِيهَا ...» (٧٧) .

هَذَا وَلَا يَنْقُصُ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ عَلَى الطَّعْنِ فِي أَتْبَاعِ الْعِلَّةِ الْيَهُودِيَّةِ بَلْ يَتَنَاوَلُ

(٧٥) حاشية ٩ أ

(٧٦) حاشية ١٠

(٧٧) حاشية ٨ هـ

التَّوْرَةَ نَفْسَهَا بِالتَّلَبُّرِ وَالتَّجْرِيعِ (٧٨) . فَالتَّوْرَةُ ، فِي نَظَرِ صَاحِبِ الْحَوَاشِي ، كِتَابٌ مَشْبُوهٌ مُلَفَّقٌ وَمُنْسُوحٌ .

أَمَّا الشُّبُهَةُ الْوَاقِعَةُ عَلَى التَّوْرَةِ فَلَاشَيْئًا لَهَا عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْقَصَصِ الْخَلَاعِي ، وَلِدَعْوَتِهَا إِلَى الْمَخَازِي وَإِتْبَاعِ الْهَوَى وَسَقَطِ الدِّمَاءِ ، وَلِتَضَمُّنِهَا جَمًّا مِنَ الْأَخْطَاءِ وَلِمُعَالِطَاتِ وَالتَّنَاقُضَاتِ وَعِبَارَاتِ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ ، وَلِخُلُوقِهَا مِنْ بَعْضِ مَا يُعْتَبَرُ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ كَالدَّعْوَةِ إِلَى الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ ، وَالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ... (٧٩) .

مِثْلُ هَذَا الْكِتَابِ الْحَافِلِ بِالْمَقَاسِدِ وَالْمَغَالِطِ - فِي نَظَرِ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ - لَا يُمكنُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُلَفَّقًا . وَهَذَا مَا يُعْلِلُ مَوَاقِفَ الصَّارِمَةِ مِنَ التَّوْرَةِ وَنَهْجَاتِهِ الْمَتَادِيَةِ عَلَيْهَا . وَفِي ذَلِكَ مَا يَتَعَارَضُ وَالتَّقْلِيدِ الْمَسِيحِيِّ فِي الشَّرْقِ الَّذِي لَمْ يُخَايَرُهُ شَكٌّ - فِي مَا عَدَا غُصْنِ الْأَحْوَالِ النَّادِرَةِ - فِي صِحَّةِ التَّوْرَةِ وَوُجُوبِ إِبْلَاقِهَا الْحُرْمَةِ الْمَرْغَبَةِ فِي تَدَاوُلِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ .

صِفَةُ التَّلْفِيْقِ هَذِهِ يُعْلِيئُهَا ابْنُ الْمَحْرُومَةِ صَرَاحًا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ حَوَاشِيهِ ؛ فَالتَّوْرَةُ لَيْسَتْ كِتَابَ مُوسَى بَلْ كِتَابُ عَزْرَا : «فَهَذَا الَّذِي تَقْلَنَاهُ وَأَمَثَلَهُ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ قَوْلِ الْمُعْتَرِضِ أَنَّ التَّوْرَةَ كِتَابُ عَزْرَا لَا كِتَابُ اللَّهِ» (٨٠) .

وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِالتَّلْفِيْقِ هُنَا إِدْحَالُ التَّخْرِيفِ أَوْ التَّبْدِيلِ عَلَى نَصِّ التَّوْرَةِ ، بَلْ

(٧٨) سوف نعرض لاحقا للأسباب التي دفعت هذا الكاتب المسيحي إلى الوقوف من التوراة هذا الموقف المستغرب .

(٧٩) «فإن كانت هذه التوراة هي التي انزلت فكيف استجاز موسى عليه السلام الإخلال بذكر هذا الأمر (والعناد والتواب والعقاب الأخروي) ، الذي هو أهم مهام الشرائع الصحيحة ، مع أنه ذكر أشياء لا فائدة منها» (حاشية ١٣ ز) . انظر أيضًا حاشية ٤٧ .

(٨٠) حاشية ١٧ ث . انظر أيضًا الحواشي ٢٣ ، ٣٢ ، ٨٧ .

استبدال النص المنزّل كُله بنصٍ مستحدث لا يمتُ إلى التوراة بصلّة. وعَبَثًا يُحاولُ الفيلسوفُ اليهوديُّ استبعادَ تهمة التجديد عن عزرا، وهو الرجلُ المشهورُ بالتعظيمِ وكثرةِ الخيرِ والدين... فلا يتصورُ في حقه أن يستحلَّ تخريفَ كتابِ الله تعالى وتجليده...^(٨١) فديانةُ عزرا وخبريته - يُجبِبُ ابنُ المحرومة - هي من أعظمِ البواعثِ على تلقينِ كتابِ يَتوبُ عن الكتابِ الذي ذهبَ، إشفاقًا على المِلّةِ لئلا تفسطربُ أمورهم وتفسدَ مصالحهم وتميلَ قلوبهم إلى متابعةِ بعضِ الأمم. وفي هذهِ الأمورِ من المَحذورِ أضعافُ ما في تلقينِ كتابِ تَضَيُّطُ فيه أمورهم إلى أن يبعثَ الله رسولًا يُجددَ لهم شريعةً تُغييهم عن هذا الكتابِ المَلْفَقِ^(٨٢).

هذا الكتابُ، على علائمه، لم تَنُ الأُمّةُ اليهوديّةُ عن مخالفتِهِ والخروجِ على شرائعِهِ وعصيانِ أوامره والانحرافِ به عن مقاصده، والزبادةِ على فرائضِهِ. ففريضةُ موسى قبلَ انشاختِ من تلقاءِ ذاتها، بتكرُّ أصحابها لها، وانقيادهم لمعتقداتها وتشريعاتها، ذلكَ يشهادُهُ الأنبياءُ أنفسهم من أمثالِ إرميا وأشعيا وميخا...^(٨٣) فالشريعةُ الموسويّةُ، قبلَ أن ياتمُرَ المسيحُ بنقضِها، كانتَ تحيلُ في ذاتها جرئومةَ الانسحاقِ، سواءً يتناولُ أصحابها عليها، زيادةً ونقصًا، أو يسأحَ من بعضِ أوليائها

(٨١) نضج، ص ٣٢

(٨٢) حاشية ٢٣. من الممكن أن يكون ادعاء التلقيح هذا مستوحى من كتاب «إفحام اليهود» لسموال العربي وكتاب «الفصل» لابن حزم، الجزء الأول، القاهرة ١٣٢٠ هـ، ص ١٨٦ - ٢٠٣. راجع أيضًا:

M. Schreiner in ZDMG 42 (1888) p. 658 (arabe), 617 (allemand); M. Perlmann, in Journal of Jewish Bibliography, New-York 1942, p. 71-74; id. in Studi Orientalistici in onore di Giorgio della Vida, vol. II, Roma 1956; Id. in Samaw'al al-Māgrībī, Iḥām al-Yahūd, New York 1964, p. 50-51.

(٨٣) حاشية ١٥ و ٥٥

الأمر فيها، كانقراضِ السبتِ يومَ حصارِ أريحا، وتَقَرُّبِ الذبيحةِ خارجِ الهيكلِ على يدِ إيليا، وإقدامِ داوودَ وصُغره على تناولِ خُبزِ التقدمة، وما سوى ذلكِ مما يُسهبُ ابنُ المحرومةِ في تعداده^(٨٤).

٢) الذؤودُ عن المسيحية

تَمّةٌ طائفةٌ أخرى من الحواشي - ومُعظمُها في معرضِ الردِّ على كلامِ ابنِ كَمُونَةَ في المُعتَقِدِ المسيحيِّ (البابُ الثالثُ) - تَمَيِّزُ بالغايةِ والمُنْهَجِيةِ الدِّفاعِيةِ. فبَيَّنّا ابنُ المحرومةِ في تعليقه على البابِ الثاني (في المُعتَقِدِ اليهوديِّ)، مُتَهِمَ لافِعُ، رَأه في دِفاعِهِ عن المسيحيةِ بِنَهْجِ أسلوبِ التشكي من خصمه والتبَرُّمِ بِجَهْلِهِ والتَنكِيدِ بِعَصِيهِ، والتَفْظُلِ من تَحِيْرِهِ وتَعْرِضِهِ، وَبِجَهْدِهِ في الذؤودِ عن مُعتَقِدِهِ المسيحيِّ بطرائقَ شَتَّى من التَهْكِيمِ والسُحْرِيةِ.

وَتَمَيِّزُ أيضًا هذا القسمُ من الحواشي بالموقفِ المسيحيِّ المُوَحَّدِ. فَقَدْ أَعْلَنَ الكَاتِبُ المَارِدينيُّ منذُ البدءِ قَصْدَهُ التَّيْبَةَ على غَلَطِ الطَّاغِيينِ في مَطلَقِ المِلَّةِ التَّضَرَّيَّةِ لا في مذاهبِ الفرقِ المُتَمَيِّنةِ إِلَيْهَا^(٨٥).

والواقعُ أنَّ ابنَ المحرومةِ، في مُواجهَتِهِ لِخصمِهِ اليهوديِّ، بَرَّ بِوعْدِهِ في التَّرامِ لنَظَرَةِ المسيحيةِ المُوَحَّدةِ، قَدَابَ بِكثيرٍ من الجُنْكَةِ واللِّبَاقَةِ، بَلْ مِنْ التَّعَتِ والتَّحَالُلِ أَحيانًا، في تَجَنُّبِ مواقِعِ الخِلافِ بَيْنَ الفرقِ المسيحيةِ، والبُرُوزِ لِنِدْوِ

(٨٤) حاشية ١٥ و ٥٢

(٨٥) حاشية ١٠١ أ

بمواقف وبراهين تعكس معتقداً مسيحياً متماسكاً، متوخياً بذلك «رضى النصرانية» مطلقاً لا غير، لا رضى جميع فرق الملة النصرانية»^(٨٦).

ولعل في هذا الرقص الحازم للصورة المسيحية المتصاعدة، مكمن الصعوبة في الوقوف على هوية ابن المحرومة الطائفية، انطلاقاً من نص الحواشي.

أما المباحث الرئيسية التي تشظّم حولها الحواشي الدفاعية فليس باليسر ضبطها وتحليلها. ولا غرو، فالتحشية، من طبيعتها، لكون عقوي، لا يدخل في قالب ولا يخص لقاعدة إلا لقاعدة المبارزة الفكرية والتصدّي الآني لتحديات الخصم. ومع ذلك، فهناك مسائل ثلاث تستقطب شتات الحواشي:

- ١ - نقض السيد المسيح للشرعة الموسوية
- ٢ - حقيقة المعجزات المنسوبة إلى السيد المسيح وأصحابه
- ٣ - الدفاع عن التثليث والتأنس.

١ - نقض السيد المسيح للشرعة الموسوية

لا يملُ ابن كمونة من التاكيد أن السيد المسيح لم ينقض التوراة بل ظلّ «متمسكاً بقوانينها إلى آخر وقته، وكذا أصحابه بعد رفعه. إلا أن بولس منهم عن ذلك بعد زمان طويل، عند احتياجهم إلى مخاطلة سائر الأمم»^(٨٧).

فجيب صاحب الحواشي على ذلك بأن أصحاب المسيح، فوراً من بعد حلول الروح القدس عليهم، تفرّقوا في البلاد ودعوا الناس إلى دين النصرانية، وكان ذلك

(٨٦) حاشية ٩١ ب

(٨٧) نتيج صفحة ٤٨، ٥١

قبل دخول بولس في دين النصرانية بسنوات كثيرة»^(٨٨)، ولم يتخلف سوى أقوام ظلوا في البقاع القريبة من القدس، على طاعة الشرعة الموسوية.

والسيد المسيح نفسه، ألم يأمر بحل السبت، فكان تشنيع اليهود به عاقبة نقضه للشرعة الموسوية^(٨٩). «فإن السيد المسيح لو تمسك بفرائض التوراة، كما ذكره المصنف، لما كان لليهود إلى قتله من سبيل. فإن أعظم ما شتموا عليه به كان حل السبت، لأنه في سبوت متفرقة فتح عيني الأكمه وأبرأ يد الأشل وأقام المحلل الذي كان ملقى منذ ثلاثين سنة، وأمره بحمل سريه، وغير ذلك مما نقل عنه»^(٩٠).

هذا، ولم يكن السيد المسيح بحاجة إلى نقض شرعية كان أصحابها وأولياء أمرها من قبله قد أنجزوا عليها، كما سبق القول. وإذا أقبل الرسل على فرك السبل يوم السبت وأخذ عليهم اليهود هذا النقض السافر للشرعة الموسوية، اكتفى السيد المسيح، دفاعاً عن أصحابه، بالتذكير بما فعله داوود وأصحابه يوم أكلوا من خبز التقدمة الذي لا يحل أكله، بمقتضى الشرعة الموسوية، إلا للكهنة وحدهم.

ولكن كيف تفسر قول السيد المسيح: «إني ما جئت لأنقض التوراة ولكن جئت لأتممها»؟ النقض، في نظر ابن المحرومة، يكون إما لهضم وإما لإعادة البناء. وظاهر أن المسيح لم ينقض الشرعة الموسوية إلا لتشجيعها يذكر ما أغفلته من شؤون

(٨٨) حاشية ٨٦ أ، ب

(٨٩) حاشية ٨٥، ٨٨، ١٢٦

(٩٠) حاشية ٨٥ ب

الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالْبَيْتِ وَالْمَجَازَةِ الْآخَرِيَّةِ. فَالَّذِي يَهْدِمُ جِدَارًا لِيُنْبِي قَوْفَهُ لَا يُدْعَى نَاقِضًا بَلْ مُتَمِّمًا^(٩١).

تفسير بارع، ولكنه يحمل ابن المحرومة وزر التناقض مع ذاته. فإذا كان السيد المسيح لم ينقض من الشريعة الموسوية إلا بقدر ما يمكنه من رفع بنائها والبلوغ بها إلى غايتها القصوى فذلك الدليل على أن التوراة ليست كلها، كما صورها لنا صاحب الحواشي، مفسدة للمعتقدات والأخلاق.

٢ - معجزات السيد المسيح وأصحابه

هناك مبحث آخر من مباحث ابن المحرومة في دفاعه عن المسيحية، وهو التنويه بحقيقة المعجزات المنسوبة إلى المسيح وأصحابه.

هذا اللون من الدفاع مبني على ادعاء ابن كموته في غير موضع من «التنقيح» أن معجزات موسى أعظم وأقل تعرضاً لشبهة الحيلة والتواطؤ من معجزات المسيح وأصحابه.

ومن غير أن يطعن ابن المحرومة في معجزات موسى - الذي يحله ويؤثره على غيره من أنبياء العهد القديم - نراه يجابه بشدة محاولات ابن كموته التلبيح من معجزات السيد المسيح وأصحابه. «فموسى ما أبرأ أكمة ولا أخيا متباً ولا أقام زمناً ولا ظهر أبصر»^(٩٢).

وأما أن تكون معجزات السيد المسيح وأصحابه قد وقعت بالحيلة أو بالتواطؤ

فمزدود بدليل أنها تمت بمشهد من المقاومين والمعارضين، وأنها «عمت في الأصقاع أضعافاً ما عمته معجزات موسى. وعمت من البشر... خلقاً يزيد مبلغ بعضه على جملة أهل زمان موسى... وفي طي ذلك الخلق من الأمم المختلفة والممالك العديدة التي دخلت في دين التصاريح بسبب تلك المعجزات ما لا يسع المعاينة النزاع في أنه أكثر من جملة اليهود الذين كانوا في زمان موسى بأضعاف الأضعاف»^(٩٣).

٣ - التلخيص والتأني

الموضوع الثالث الذي تعرض له حواشي ابن المحرومة، يتصل بالدفاع عن سري الثالث والتأني. في هذا المجال، يلتزم صاحب الحواشي خطأ من القناعة والاقصاف والاقصاف على القليل، ينسب إليه في مطلع تعليقاته على الباب الثالث، مغرباً عن اقتناعه «بالأجوبة التي ذكرها المصنف [ابن كموته] إلا في مواضع قليلة أهملها أو لم يستوف الجواب عنها»^(٩٤).

ويرى الكاتب المارديني أن «إشباع الكلام في دين التصارى تصديق عنه هذو الحواشي لوجوه يطول ذكرها... وأن جل مبتغاه تنبيه القارى على حائل الطاعنين في هذا الدين هل أنصفوا في الطعن أم لا...»^(٩٥) مع العلم، أخيراً، أن الدين المسيحي يستل على وجوه من المعتقد تتجلى فيها «حكمه الله الخفية عن عقول العقلاء من البشر، بل عن الملائكة المقربين»^(٩٦).

(٩٣) حاشية ٧ ب

(٩٤) حاشية ٩١ أ

(٩٥) حاشية ٩١ ب

(٩٦) حاشية ١٢٠

(٩١) حاشية ١٢٥

(٩٢) حاشية ٩١

وَمَعَ ذَلِكَ يَبْقَى فِي اللَّيْنِ هَامِشٌ يَسُوعُ فِيهِ إِعْمالُ الْبُرْهَانِ وَالتَّذَرُّعُ بِالْأَقْسَةِ الْعَقْلِيَّةِ. فَالْعَدَدُ الثَّلَاثِيُّ لِلْأَقَانِيمِ الْإِلَهِيَّةِ مَثَلًا لِفِسْرَةِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الصِّفَاتِ الدَّائِمَةِ وَهِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي تَصْدُقُ عَلَيْهِ تَعَالَى أَوَّلًا وَأَبَدًا، سِوَاةٍ وَجِدَتْ الْمَخْلُوقَاتُ أَمْ لَا... وَالصِّفَاتِ الْفَعْلِيَّةِ الْفَقِيرَةِ إِلَى التَّعَلُّقِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ» (٩٧).

وَيَكْتَفِي ابْنُ الْمَحْرُومَةِ بِهَذَا الْبُرْهَانِ مُعْرِضًا عَنِ الْخَوْصِ فِي تَفَاصِيلِ بَحْثِ لاهوتيِّ كَانَ بِإمكانِهِ أَنْ يُجَابِهُ بِهُ اعْتِرَاضَاتٍ خَصَصَهُ بِطَرِيقَةٍ أَقْرَبَ إِلَى الْإِقْنَاعِ. أَمَّا وَحْدَةُ الْجَوْهَرِ فِي اللَّهِ فَبُهِتَ - عَلَى حَدِّ قَوْلِ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ - مُعْتَقِدٌ مَسِيحِيٌّ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ جَمِيعُ النَّصَّارَى عَلَى اخْتِلَافِ رُفُقِهِمْ. وَلَكِنْ وَحْدَةُ الْجَوْهَرِ، بِتَثْلِيثِ الْأَقَانِيمِ، لَا تَعْنِي أَنَّ الْآبَ هُوَ الْإِنِّ وَأَنَّ الْإِبْنَ هُوَ الْآبَ. فَوَحْدَةُ الْجَوْهَرِ وَتَمْيِيزُ الْأَقَانِيمِ هُمَا رَكِيزَةُ سِرِّ التَّثْلِيثِ (٩٨).

وَيُؤَيِّدُ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ، فِي تَفْسِيرِ سِرِّ التَّالُوثِ، نَظْرِيَّةَ ابْنِ عَلِيٍّ، «أَنَّ اللَّهَ كَوْنُهُ عَقْلًا مُجَرَّدًا هُوَ الْآبَ، وَكَوْنُهُ عَاقِلًا لِذَاتِهِ هُوَ الْإِبْنُ، وَكَوْنُهُ ذَاتِيًّا مَعْقُولًا لَهُ فَهُوَ الرُّوحُ الْقُدُسُ» (٩٩).

مَوْضِعٌ آخَرُ مِنْ مَوَاقِعِ الْإِلْتِمَاسِ فِي فَهْمِ الْعَقِيدَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، هُوَ سِرُّ إِتْحَادِ الطَّبِيعَتَيْنِ فِي السَّيِّدِ الْمَسِيحِ. فَاعْتِبَارُ الْإِتْحَادِ لَوْثًا مِنْ أَلْوَانِ «الْمَازَجَةِ أَوْ الْمُخَالَطَةِ أَوْ التَّرْكِيبِ» - كَمَا يَتَوَقَّعُ الْمُعْتَرِضُ - «لَا يَجُوزُ فِي دِينِ النَّصَّارَى»، وَابْنُ

٩٧ حاشية ٩٢

٩٨ حاشية ٩٧

٩٩ حاشية ١٠٠ أ

الْمَحْرُومَةِ يَتَصَدَّى لِهَذِهِ النَّظْرِيَّةِ أَشَدَّ التَّصَدِّيِّ، مُنْكَرًا عَلَى «بَعْضِ عُلَمَاءَ» فِرَقَةٍ مِنْ فِرَقِ النَّصَّارَى تَشْبِيهُ إِتْحَادِ الْأَهْوَتْ وَالتَّائُوسِ «بِإِتْحَادِ نَقْشِ الْفَصِّ بِالشَّمْعِ». فَهَذَا التَّشْبِيهُ - فِي نَظَرِ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ - إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ «التَّقْرِيبِ إِلَى أَذْهَانِ الْعَوَامِّ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْمِثَالِ الْمُثَالَّةِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ» (١٠٠).

وَيَتَضَيَّحُ مِنْ الْحَاشِيَةِ أَنَّ لِبَابِ الْمُعْضَلَةِ، فِي الْمَطَاعِنِ الْمُوْجَّهَةِ إِلَى عَقِيدَةِ التَّائُسِ، هُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ «بَيْنَ أَقْنُومِ الْإِبْنِ الْأَرْثُوْدُكْسِيِّ الْمُتَّحِدِ بِالسَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَأَقْنُومِ الْآبَرِ الْمُتَزَوِّجِ عَنْ ذَلِكَ وَحَلَّ الْكَلَامِ الْمُنْسُوبِ إِلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ بِاعْتِبَارِ نَاسُوتِهِ عَلَى أَنَّهُ مُنْسُوبٌ إِلَى الْآبَرِ بِاعْتِبَارِ مُجَرَّدِ لاهوته» (١٠١).

فَالْحَصُّمُ الَّذِي يَسْتَعْرِضُ «التَّنْفِيقَ» اعْتِرَاضَاتِهِ عَلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ يُرَكِّزُ انْتِقَادَهُ عَلَى فِكْرَةٍ إِلَهٍ خَاضِعٍ لِأَحْوَالِ الْبَشَرِ، فَيَحْضُرُ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ هَمَّهُ فِي رَفْعِ هَذَا الْإِلْتِمَاسِ الصَّفِيقِ وَهَذِهِ الْمُخَالَطَةُ الْمُعْرِضَةُ الدَّالَّةُ عَلَى «قِلَّةِ إِنْصَافِهِ وَكَثْرَةِ مِيلِهِ مَعَ هَوَى نَفْسِهِ طَلَبًا لِرِضَى الْيَهُودِ» (١٠٢).

وَلَكِنْ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ لَا يَجِدُ لِدَفْعِ هَذِهِ الْاعْتِرَاضَاتِ سِوَى بَرَاهِينٍ بَسِيطَةٍ وَسَرِيعَةٍ، بَعْدَهُ عَنْ مُجَارَاةِ الْعُقَى الْفَلَسُفِيِّ الَّذِي تَمَيَّزَتْ بِهِ، مَثَلًا، كِتَابَاتُ ابْنِ قَرَّةٍ وَابْنِ عَلَدِيٍّ وَبُولُسِ الْأَنْطَاكِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ نَظَّرُوا إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ. فَالْكَاتِبُ الْمَارِدُنِيُّ لَا يَبْغِي يُرِيدُ فِي وَجْهِ الَّذِينَ يُنْكَرُونَ عَلَى اللَّهِ تَرَدُّدَهُ فِي أَحْوَالِ الْبَشَرِ وَخُصُوعَهُ لِعَوَامِلِ الطَّبِيعَةِ «أَنَّ النَّصَّارَى لَا يَنْسُبُونَ ذَلِكَ إِلَّا إِلَى نَاسُوتِ الْمَسِيحِ، وَهُمْ عَنْ

١٠٠ حاشية ٩٦

١٠١ حاشية ١١٨

١٠٢ حاشية ١١٨

آخِرِهِمْ يَتَرَهُونَ اللَّهَ تَتَرَبُّهَا» (١٠٣) وَأَنَّ الْمَسِيحَ، بِاتِّفَاقِ الطَّوَائِفِ الْمَسِيحِيَّةِ كُلِّهَا، «إِنَّمَا سَاوَى النَّاسِ بِنَاسُوتهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مَا عَدَا الْخَطِيئَةَ» (١٠٤).

فَإِذَا ثَبَتَ، بِإِجْمَاعِ الْمَسِيحِيِّينَ كُلِّهِمْ، أَنَّ جَسَدَ الْمَسِيحِ شَبِيهٌ بِسَائِرِ الْأَجْسَادِ الْبَشَرِيَّةِ، فِي مَا هُوَ مِنْ حَاجَاتِ الْبَدَنِ وَمُقْتَضَيَاتِ الْمَادَّةِ، فَلِمَ التَّنَكُّرُ لِلْمَلَامِيعِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي وَسَّطَتْ سِيرَةَ الْمَسِيحِ الْأَرْضِيَّةِ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبَدَنَ لَا يُدَلُّ مِنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَسَائِرِ الضَّرُورِيَّاتِ، وَالنَّصَارَى جَمِيعُهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ بَدَنَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ يُسَاوِي أَبْدَانِ النَّاسِ فِي الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ الَّتِي لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا الْبَدَنُ مَا دَامَ حَيًّا... فَهَذَا الْإِعْتِرَاضُ لَا يُغَيِّرُهُ النَّصَارَى لِأَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِالْبَدَنِ وَحْدَهُ، وَلَا تَعْلُقُ لَهُ بِالنَّفْسِ الثَّائِقَةِ، فَكَيْفَ يَتَعَلَّقُ ذَلِكَ وَأَمَثَالُهُ بِالْمَرِّ الْعَرِيزِ؟» (١٠٥).

وَيَتَحَاشَى ابْنُ الْمَحْرُومَةِ، كَمَا دَرَيْتُ، التَّوَعُّلَ فِي تَفَاصِيلِ نِقَاشِ نَظَرِيٍّ فِي طَبِيعَةِ جَسَدِ الْمَسِيحِ (١٠٦)، مُكْتَنِبًا فِي تَفْسِيرِ فِكْرَتِهِ بِالتَّمَثِيلِ عَلَى اتِّحَادِ الطَّبِيعَتَيْنِ، «بِاتِّحَادِ النَّارِ بِالْفَحْمَةِ وَصِتْرُورِهَا جَمْرَةً»... فَكَمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ عِنْدَ الْعَاقِلِ الْحُكْمُ عَلَى النَّارِ بِمَا يَجُوزُ بِهِ الْحُكْمُ عَلَى الْفَحْمَةِ الْمُتَجَمِّرَةِ مِنْ أَنَّهُا تَنْشَقِقُ أَوْ يَكُونُ وَزْنُهَا كَذَا

١٠٣ حاشية ١٠٤

١٠٤ حاشية ١٠٦

١٠٥ حاشية ١٠٧

١٠٦ من المفيد لفت النظر هنا إلى بحث الأب بنيامينو إيمي في مفهوم «جسد إنسان» و«جسد إنساني» كما وردا في كتابات أونيخا. ويرى إيمي أن الفرق الذي يقبمه أونيخا بين هاتين العبارتين، يمكن فهمه بوجه صحيح لا يتنافى والتعليم الرسمي في الكنيسة. فهو إذ ينكر أن يكون للمسيح «جسد إنسان» بل «جسد إنساني»، إنما يتصدى بذلك للنظرية التطورية، منكرًا أن يكون في المسيح ذات إنسانية قائمة بذاتها.

P. Benjamino Emmi, o.p., Leone ed Eutiche, in Angelicum XXIX (1925), p. 3-42.

وَكَذَا، فَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ عِنْدَهُ الْحُكْمُ عَلَى لَاهُوتِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ عَلَى نَاسُوتهِ مِنَ الْأُمُورِ الْبَدَنِيَّةِ كَالْجُوعِ وَالتَّعَبِ وَالتَّوَمُّ وَالسَّهَرُ وَمَا يُشَبِّهُ ذَلِكَ...» (١٠٧).

أَمَّا لَاهُوتِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ فَابْنُ الْمَحْرُومَةِ يُبْرِهنُ عَلَيْهِ بِأَدِلَّةٍ سَرِيعَةٍ، يَسوقُهَا فِي مَعْرُضِ الرَّدِّ عَلَى ادِّعَاءَاتِ ابْنِ كَمُونَةَ بِأَنَّ مُوسَى أَسْمَى شَانًا مِنَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، «وَقَدْ كَلَّمَهُ اللَّهُ مُرَارًا لَا تُحْصَى وَلَمْ يَكَلِّمْ وَلَدَهُ وَحَبِيبَهُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، إِذَا جَاءَهُ صَوْتُ مِنْ السَّمَاءِ يَقُولُ: «مَجْدُتْ وَأَيْضًا أُمُجِدْ» (يوحنا ١٢/٢٨) (١٠٨).

فَيُجِيبُ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ أَنَّ «فِي شَرَفِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ الْبَاطِنِ غِنَى عَنْ كُلِّ شَرَفٍ ظَاهِرٍ» (١٠٩) «وَأَنَّ الْمُخَاطَبَةَ تَكُونُ لِمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُخَاطَبِ حِجَابٌ يَسْتُرُ عَنْهُ الْأَمْرَ الْمُخَاطَبُ بِهِ. وَنَحْنُ لَا نَعْتَقِدُ أَنَّ بَيْنَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابًا، وَإِلَّا لَتَكَثَّرَتِ الْمُخَاطَبَةُ مُرَارًا عَدِيدَةً» (١١٠).

وَأَمَّا جَهْلُ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ لِمَقْصِدِ شُؤْنِ الْغَيْبِ «كَأَهْوَالِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا»، فَلَهُ مَحَامِلٌ فِي التَّفْسِيرِ لَا مَجَالَ لِذِكْرِهَا فِي الْحَوَاشِي. وَعَلَى كُلِّ فَالْتَوَرَاةٍ قَدْ أَلْصَقْتُ بِاللَّهِ مُرَارًا مِنَ التَّعَابِيرِ مَا يُوهِمُ بِأَنَّ مِنَ الْأُمُورِ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ تَعَالَى... (١١١).

خِلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الدِّفَاعَ عَنْ الْوَهْيَةِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ لَا نَجِدُ لَهُ فِي الْحَوَاشِي سِوَى أَدِلَّةٍ سَطَحِيَّةٍ، وَدَائِمًا فِي مَعْرُضِ الرَّدِّ عَلَى الشَّيْءِ الْمَوْجَّهَةِ إِلَى بَشَرِيَّةِ الْمَسِيحِ وَخُصُوعِهَا لِشَوَائِبِ الْمَادَّةِ. وَلَا غُرُ، فَابْنُ كَمُونَةَ لَمْ يَتَنَاوَلَ سِرَّ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ إِلَّا مِنْ

١٠٧ حاشية ١٠١ ج

١٠٨ تنقيح ص ٦١

١٠٩ حاشية ١٢٠

١١٠ حاشية ١١٩

١١١ حاشية ١٠٩

هذا الملحظ، فكان لا بد لصاحب الحواشي من أن يتحوّ منحاه مُعْتَمِدًا السَّطْحِيَّةَ والعُفُويَّةَ في ردِّ التَّهْمِ وإفحامِ الحُصْمِ. والمَوْضِعُ الوحيدُ الذي يَتَّخِذُ فِيهِ الاِغْتِرَاضُ على أُلُوْهِيَّةِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ طَابِعَ الْجَدِيَّةِ (١١٣)، لا يثيرُ عِنْدَ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ سِوَى رَدِّ سَرِيعٍ وَمُبْهِمٍ (١١٣).

هذا ولا يَفْصُرُ «التَّنْفِيحُ» اغْتِرَاضَاتِهِ على الْمُغْضَلَاتِ الْأُوهِيَّةِ النَّاجِمَةِ عَنْ سِرِّ اتِّحَادِ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ فِي الْكَلِمَةِ الْمُتَّجِدِ، بَلْ يَتَخَطَّأُهَا إِلَى الْمُغْضَلَةِ التَّارِيخِيَّةِ وَالتَّسْأُولِ عَنْ وَاقِعِ ظُهُورِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ فِي الْأَرْضِ. هذا الْوَاقِعُ يَنْكِرُهُ الْمُغْتَرِضُ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْأَيَاتِ وَالنُّبُوءَاتِ الْمُتَّصِلَةَ بِمَجِيءِ الْمَاسِيَّا لَمْ تَتَّحَقَّقْ فِي عَهْدِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ (١١٤).

ولا يَرَى صَاحِبُ الْحَوَاشِي رَدًّا عَلَى هَذَا الْاِغْتِرَاضِ سِوَى التَّدْلِيلِ بِنُبُوءَةِ دَانِيَالُ النَّبِيِّ: فَلَمَّا الْمَسِيحُ قَدْ أَتَى، وَإِنَّمَا يَجِبُ انْتِظَارُهُ بَعْدَ ٤٧٠ أَلْفَ سَنَةٍ (١١٥). هَذَا، وَخَرَابُ مَدِينَةِ الْقُدْسِ دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى أَنَّ نُبُوءَةَ دَانِيَالُ قَدْ تَحَقَّقَتْ فِي السَّيِّدِ الْمَسِيحِ. خُلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّ ابْنَ الْمَحْرُومَةِ الَّذِي يَبْرَعُ بِمَقْدُرَتِهِ التَّفْسِيرِيَّةِ وَمَعَارِفِهِ الْكِتَابِيَّةِ، يَبْدُو لَنَا عَلَى جَانِبِهِ مِنَ السَّطْحِيَّةِ فِي عِلْمِهِ الْأُوهِي. هَذَا مَعَ الْاِفْتِرَاقِ بِأَنَّ الْمَصَاحِمِينَ اللَّاهُوتِيَّةَ الَّتِي يَلْتَزِمُهَا لَا تَتَّبَعِدُ عَنْ جَوْهَرِ الْعَقِيدَةِ الرَّسْمِيَّةِ. فَهُوَ، مَعَ انْتِمَائِهِ إِلَى الْمَذْهَبِ الْمُتُوفِيزِيِّ، قَدْ وَفَى وَعْدَهُ بِأَنَّهُ يُدَافِعُ عَنْ النُّصْرَانِيَّةِ مُطْلَقًا لَا عَنْ هَذِهِ أَوْ تِلْكَ مِنَ الْفِرَقِ النُّصْرَانِيَّةِ. وَقَدْ يَكُونُ التَّقْيُّدُ بِهَذَا الْقَرَارِ الْقَاضِي بِالِدِّفَاعِ

(١١٢) تنفيح ص ٥٧، الفقرة الأخيرة.

(١١٣) حاشية ١٥٥

(١١٤) تنفيح ص ٦١، الفقرة ٤

(١١٥) حاشية ١٣٣

عَنْ مُجْمَلِ الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ هُوَ الَّذِي مَنَعَهُ مِنَ التَّغَلُّلِ فِي تَعَارِيحِ الْبَحْثِ اللَّاهُوتِيِّ. فَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ لِلْمَسِيحِ طَبِيعَتَيْنِ، إِلَهِيَّةً وَإِنْسَانِيَّةً هُوَ، وَلَا شَكَّ، جَوْهَرُ الْإِيمَانِ. وَلَكِنْ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ هَذَا الْإِتِّحَادِ هُوَ مَادَّةُ الْبَحْثِ اللَّاهُوتِيِّ. وَهُوَ مِنْ تَمَّ مُنْطَلَقَ الْمَذَاهِبِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالصِّرَاعَاتِ الَّتِي صَدَعَتْ الْمَسِيحِيَّةَ مُنْذُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ.

لَنْ نَسْتَعْرِضَ الْمَسَائِلَ النَّابِثَةَ الْآخَرَى الَّتِي عَرَّضَ لَهَا ابْنُ الْمَحْرُومَةِ فِي حَوَاشِيهِ الدِّفَاعِيَّةِ. فَالْأَهَمُّ قَدْ لَحْظْنَاهُ فِي مَا سَبَقَ، وَخُلَاصَتُهُ أَنَّ السَّيِّدَ الْمَسِيحَ قَدْ نَسَخَ الشَّرِيعَةَ الْمُوسَوِيَّةَ الَّتِي كَانَ أَصْحَابُهَا وَأَوْلِيَاؤها أَمْرُهَا قَدْ نَقَضُوهَا مِنْ قَبْلِهِ، وَبَرَّهَنَ عَنْ صِحِّهِ رِسَالَتِهِ بِمُعْجَزَاتٍ فَاقَتْ مُعْجَزَاتِ مُوسَى سُبُوًا وَبُعْدًا عَنْ احْتِمَالِ التَّوَاتُؤِ أَوْ الْقُزُورِ.

وهذا النَّبِيُّ هُوَ الْأَقْنومُ الثَّانِي مِنَ الثَّلَاثِ الْأَقْدَسِ، كَلِمَةُ اللَّهِ الْمُتَأَنِّسِ، إِلَهٌ تَامٌّ وَإِنْسَانٌ تَامٌّ، تَكْبَسَ الطَّبِيعَةُ الْبَشَرِيَّةُ وَمَا يَقْتَرِنُ بِهَا مِنْ ضَرُورَاتِ الْجَسَدِ مَا عَدَا الْخَطِيئَةَ. وَقَدْ أَتَى بِمُجِيئِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَبِخَاصَّةِ دَانِيَالُ النَّبِيِّ الَّذِي حَسَبَ بِالْأَرْقَامِ تَارِيخَ وُجُودِهِ إِلَى الْأَرْضِ.

ب - أُسْلُوبُ الْحَوَاشِي

مَا هِيَ الْوَسَائِلُ الَّتِي يَتَّخِذُهَا ابْنُ الْمَحْرُومَةِ لِلْبُلُوغِ إِلَى غَايَتِهِ؟

إِنَّ مَا بَلَّغَتْ النَّظَرَ فِي أُسْلُوبِ الْحَوَاشِي هُوَ، كَمَا مَرَّ بِنَا، اللَّوْنُ التَّهْجِي وَما يَسْتَشْبِعُهُ مِنْ وَسَائِلِ التَّنْذِيرِ وَالتَّهْكُمِ وَالتَّحْذِي، مُتَوَحِّيًا لَيْسَ فَقَطُّ الْأُمَّةَ الْيَهُودِيَّةَ وَالشَّرِيعَةَ الْمُوسَوِيَّةَ بَلِ الْمُصَنِّفَ نَفْسَهُ.

فإنَّ المَحْرُومَةَ، على ما يُقَرَّرُ بِصاحِبِ «التَّنْقِيحِ» من فَصِيلَةٍ (١١٦) وَرِزَانَةٍ تَشْهَدُ بِهَا سَائِرُ مَوْلَانِيهِ (١١٧)، يَأْخُذُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِغْرَاقُهُ فِي التَّعَصُّبِ لِلْيَهُودِ عَلَى النَّصَّارَى (١١٨) وَاسْتِعْمَالَهُ أَسَالِيبِ التَّمْوِيهِ وَالْمُعَالَفَةِ وَالتَّحْكُمِ وَالْإِدْعَاءِ وَالتَّغَاوُلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّقْوَةِ بِغَيْرِ الصِّدْقِ، تَقَرُّبًا إِلَى أَهْلِ مِلَّتِهِ وَمَيْلًا مَعَ هَوَى أَنْفُسِهِمْ (١١٩). وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ أَيْضًا التَّلَاعُبُ بِنُصُوصِ الْإِنْجِيلِ زِيَادَةً وَتَقْصَا، وَتَحْرِيفُ الْكَلَامِ مُتَابَعَةُ الْمُعَالِطِينَ، «كُلُّ ذَلِكَ مُبَالَغَةٌ فِي التَّمْنِيعِ عَلَى النَّصَّارَى وَسَوْقِ كَلَامِهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ بِالْحِكْلِ السُّوفِسْطَائِيَّةِ» (١٢٠).

وَلَا يَكْتَفِي ابْنُ الْمَحْرُومَةِ بِتَفْرِيعِ خَصْمِهِ، بَلْ يَتَنَاوَلُهُ بِالتَّهْكُمِ وَالسُّرْبَةِ. فَهُوَ «أَعْمَى يَعْيبُ أَعْوَرَ، وَزَمَنُ يَعْيبُ أَعْرَجَ» (١٢١) وَلَيْسَ لَهُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ نَصِيبٌ وَلَا يَسْتَحِقُّ أَبَدَ الْآبِدِينَ أَنْ يُخَاطَبَ كَلِيبٌ (١٢٢) بَلْ هُوَ سَكْرَانٌ وَمُصَابٌ بِالْمَالِيخُولِيَا، يَتَّقُوهُ بِأَقْوَابِلٍ يَدْرُكُ فَسَادَهَا الْأَطْفَالُ أَنْفُسَهُمْ (١٢٣).

وَيَعْبُدُ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ أَحْيَانًا، فِي حِمَايَةِ الْجَدَلِ، إِلَى مُنَادَاةِ خَصْمِهِ مِنْ وَرَاءِ الْقَبْرِ وَتَحْلِيلِهِ لِلزَّلَالِ الْفِكْرِيِّ، فَيَسْتَعِدُّ الْجَوَارِ بَيْنَ الْفَلَسُوفِ الْيَهُودِيِّ وَنِدْوِهِ، حَيْثُ نَاضًا مُتَحَكِّمًا هَوَى الزَّمَانِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا.

(١١٦) حاشية ١٥٥

(١١٧) حاشية ٢٧

(١١٨) حاشية ٢٨، ٧٠، ١٠١، ج، ١١٥، ب، ١١٨، ١٢٧، ١٣٠

(١١٩) حاشية ٦٧، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ١١٨، ١٢٨

(١٢٠) حاشية ١٠٥، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥ ب

(١٢١) حاشية ١٧ خ

(١٢٢) حاشية ١٢١

(١٢٣) حاشية ١٨

وَلَكِنَّ ابْنَ الْمَحْرُومَةِ لَا يَكْتَفِي، فِي رَدِّهِ عَلَى صَاحِبِ «التَّنْقِيحِ»، بِاسْتِعْمَالِ التَّعَابِيرِ الْهَجَائِيَّةِ. فِي مَعْرِضِ الْجَدَلِ الذِّهْنِيِّ - وَمِحْوَرَةِ الْحَقَائِقِ الْمُتَزَلَّةِ - لَا بُدَّ مِنَ الْإِحْتِكَامِ إِلَى الْكُتُبِ السَّمَاءِيَّةِ. وَقَدْ رَأَيْنَا بَرَاعَةَ ابْنِ كُتُوبِهِ فِي اسْتِعْمَالِ الْبُرْهَانِ الْكِتَابِيِّ وَعِلْمِ التَّفْسِيرِ، وَعُمُقِ مَعْرِفَتِهِ لِلنُّصُوصِ الْمُتَزَلَّةِ، فَكَانَ عَلَى ابْنِ الْمَحْرُومَةِ أَنْ يُجَارِيَهُ فِي هَذَا الْبُحْثِ أَيْضًا.

وَالوَاقِعُ أَنَّ الْحَواشِيَ تُبْرِزُ لَنَا كَاتِبًا مُتَّصِلًا مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، فِي عَهْدِيهِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ، وَفِي جَمِيعِ أَجْزَائِهِ الْقَصَصِيَّةِ وَالتَّوْبِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِيَّةِ، بَارِعًا فِي التَّنْقِيحِ عَنْ أخطاءٍ خَصْمِيَّةٍ، وَتَصْحِيحِ نَفَاسِيرِهِ الْمُغْرَضَةِ، وَمُعَارَضَةِ نُصُوصِهِ الْمُسْتَقَلَّةِ بِنُصُوصٍ أُخْرَى تُبَيِّنُ مَضَامِينَهَا الصَّحِيحَةَ (١٢٤).

إِلَى هَذَا الْأَطْلَاعِ الْكِتَابِيِّ الْوَاسِعِ، يَجْمَعُ الْكَاتِبُ الْمَارِدِيْنِي مَقْدَرَةَ نَادِرَةٍ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ، يُوْطِفُّهَا فِي تَحْقِيقِ غَرْضِهِ مِنَ الْحَواشِيَ: التَّصَدِّي لِلْيَهُودِيَّةِ وَالذُّودِ عَنْ الْمَسِيحِيَّةِ. وَيَبْرِزُ خُصُوصًا فِي اسْتِعْمَالِ النُّصُوصِ التَّوْبِيَّةِ النَّاظِقَةِ بِالْحُكْمِ عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَتَقْصُ الشَّرِيعَةِ الْمَوْسُوِيَّةِ، كَمَا يَبْرِزُ فِي التَّنْقِيحِ عَنِ الشَّوَائِبِ الْقَائِدِيَّةِ وَالشُّبُهَاتِ الْمَسْلُوكِيَّةِ الَّتِي تُثَبِّتُ انْتِسَابَ التَّوْرَةِ إِلَى وَاضِعِهَا الْبَشَرِيِّ، وَتَقْرُضُ مِنْ تَمَّ ضَرُورَةَ الْأَسْعَاضَةِ عَنْهَا بِشَرِيعَةِ أَفْضَلِ.

بَيِّنَدُ أَنَّ ابْنَ الْمَحْرُومَةِ، فِي غَمَرَةِ الْجَدَلِ وَقَوْرَةِ الدِّفَاعِ، يَغْلُو وَيَسْتَهْطِ أَحْيَانًا فِي اسْتِعْمَالِ الْبُرْهَانِ الْكِتَابِيِّ، فَيَسْتَغْفُ فِي التَّفَاهَةِ وَالتَّعَتُّتِ، وَيَتَسَاقُ إِلَى مَا انْسَاقَ إِلَيْهِ صَاحِبُ «التَّنْقِيحِ» مِنْ تَحْزِيٍّ وَتَحَامُلٍ (١٢٥).

(١٢٤) حاشية ١، ٢، ٣

(١٢٥) حاشية ١٧، ٧٥، ١٢٨، ١٣١

وَتَمْتَازُ الْحَوَاشِي بِالْبَرَاغَةِ الْجَدَلِيَّةِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ قُوَّةِ الْمَنْطِقِ وَصَلَابَةِ الْحُجَّةِ وَرَهَافَةِ الذِّهْنِ.

لَا شَكَّ أَنَّ السَّلْسَلَ الْمَنْطِقِيَّ لَا يَظْهَرُ فِي الْهَيْكَلِيَّةِ الْعَامَّةِ لِنَصْرِ الْحَوَاشِي. فَالْتَحِيشِيَّةُ مُرْتَبِطَةٌ فِي سِيَاقِهَا بِالنَّصْرِ الْمُتَوَالِي بِالْتَعْلِيلِ. وَإِنَّمَا هُنَاكَ تَسْلُسُلٌ بَاطِلٌ يُهَيِّئُ عَلَى نَصْرِ كُلِّ حَاشِيَّةٍ، وَلَا سِيَّمَا الْحَوَاشِي الطُّوْلِيَّةَ. وَيَظْهَرُ الْكَاتِبُ الْمَارْدِيْنِي، مِنْ خِلَالِ مَارَسَتِهِ لِأَصُولِ الْمَنْطِقِ وَقَوَاعِدِ الْجَدْلِ، تَلْمِيزًا لَامِعًا لِأَيْمَةِ الْفِكْرِ الْجَدَلِيِّ الْعَرَبِيِّ، الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ وَالْمَسِيحِيِّينَ.

هَذِهِ الْبَرَاغَةُ الْجَدَلِيَّةُ تَتَجَلَّى خُصُوصًا فِي صِبَاغَةِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَقْسِيسِ. فَالْأَدِلَّةُ الَّتِي يَغْدِي إِلَيْهَا ابْنُ الْمَحْرُومَةِ، وَإِنْ أَفْضَتْ إِلَى نَتَائِجٍ خَاطِئَةٍ أحيانًا، تَبْقَى سَلِيمَةً فِي سِيَاقِهَا وَتَرَابُطِهَا. هَذِهِ الْبَرَاغَةُ تَتَجَلَّى خُصُوصًا فِي مَعْرِضِ بَحْثِهِ فِي مُعْجَزَاتِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ (١٢٦) وَزِيَادَةِ التَّكَالِيفِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى الْأُمَّةِ الْيَهُودِيَّةِ (١٢٧) وَالتَّحَقُّقِ مِنْ النُّبُوَّةِ عَنْ طَرِيقِ الذَّوْقِ الْبَاطِلِ وَالْحِسِّ الْوُجْدَانِيِّ (١٢٨) وَعَبَرِهَا مِنَ الْمَبَاحِثِ الدَّقِيقَةِ.

عَلَى هَذِهِ الْأَسَالِيبِ الْجَدَلِيَّةِ يُضْفِي الْكَاتِبُ الْمَارْدِيْنِي مِنْ رَهَافَةِ ذِهْنِهِ وَدَقَّةِ حِسِّهِ مَا يُمْكِنُهُ مِنَ اكْتِشَافِ حَيْلِ خُصْمِهِ وَدَوَافِعِهِ الْمُبْطِنَةِ (١٢٩) وَالْأَسَالِيبِ التَّمْوِيهِيَّةِ الَّتِي يَتَلَطَّى مِنْ وَرَائِهَا، كَالْتَعَايِيرِ الرَّيْبِيَّةِ وَالْإِسْتِشْهَادَاتِ الْمُبْهَمَةِ (١٣٠) وَالْمَغَالِطَاتِ

(١٢٦) حاشية ٧

(١٢٧) حاشية ٩

(١٢٨) حاشية ٦٨

(١٢٩) حاشية ١٠١

(١٣٠) حاشية ٣٠، ٤٠، ٥٠، ٧٨

الْمُتَمَعَّدَةِ وَالتَّأَكِيدَاتِ الْإِعْتِبَاطِيَّةِ (١٣١) وَمُعَادَوَةِ التَّهْجُمِ عَلَى الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ حَتَّى فِي لِمَاطِنِ الدِّفَاعِ عَنْهُ (١٣٢).

وَلَكِنْ ابْنُ الْمَحْرُومَةِ، فِي خِتَامِ حَوَاشِيهِ، يُخِلِدُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْهُدُوءِ فِي مُخَاطَبَةِ نِدْوِهِ. فَهُوَ يُبَيِّنُ لِلْكَاتِبِ الْيَهُودِيِّ اسْتِزْكَاءَهُ، فِي سَطُورِهِ الْآخِرَةِ، «لِمَا كَانَ أَسْلَفَهُ مِنَ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ فِي حَقِّ النَّصَارَى، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَتَيَقَّنْ وَقُوعَ التَّعَصُّبِ عَلَيْهِمْ، لَمَا كَانَ قَدْ انْتَصَرَ لَهُمْ بِذِكْرِ بَعْضِ الْأَجُوبَةِ نِيَابَةً عَنْهُمْ» (١٣٣). وَمِنْ ثَمَّ، يَجِبُ عَلَيْنَا، نَحْنُ مَعْتَرِ النَّصَارَى، «أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ فِي غُفْرَانِهِ مَا بَدَأَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ فِي حَقِّنا، بِمَا أَكَالَ عَلَيْنَا وَغَالَطَنَا فِي كِتَابِهِ هَذَا» (١٣٤).

خلاصة

مَا هِيَ الْحَصِيلَةُ الَّتِي يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهَا مِنْ مُقَارَنَةِ هَذَيْنِ الْأَثَرَيْنِ: «تَنْصِيحُ ابْنِ كَمُونَةَ وَتَحْشِيَّةُ ابْنِ الْمَحْرُومَةِ، عَلَى صَعِيدِ الْجَوَارِ الدِّينِيِّ، وَمَا يَفْتَرِضُهُ مِنْ شُرُوطٍ وَمُقْتَضَبَاتٍ.

فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي نُوَاجِهُ فِيهِ مُعْضِلَةَ الْجَوَارِ الدِّينِيِّ وَمَا يَنْجُمُ عَنْهَا مِنْ عَقَبَاتٍ شَاقَّةٍ وَأَمَالٍ شَيْقَقَةٍ، لَا بُدَّ مِنَ الْإِعْطَاطِ بِالْعِبَرِ الْمُتَضَمِّنَةِ فِي هَذَا الْأَثَرِ «الْمَمْرُوجِ». لَقَدْ حَدَّدَ الْبَيَّانُ الْمَجْمَعِيُّ «فِي عِلَاقَةِ الْكِنْسَةِ بِالْأَذْيَانِ غَيْرِ الْمَسِيحِيَّةِ» شُرُوطَ التَّقَارُّبِ الْمُمْكِنِ، عَلَى صَعِيدِ الْفِكْرِ وَالْعَمَلِ، بَيْنَ مُعْتَلِي الدِّينَانَتِ التَّوْحِيدِيَّةِ

(١٣١) حاشية ٦٩

(١٣٢) حاشية ١٢٧

(١٣٣) حاشية ١٣٣

(١٣٤) حاشية ١٣٣

الثالث. هذا التقارب قوامه ومطلقه في نظر الوثيقة المجمعية تبادل المعرفة والاختيار بين أتباع المذاهب المختلفة.

من هذا الملحظ، نتعلم من الحواشي، بالوجه السلي، الأنماط الحاطلة والدروب المسدودة التي يجب الإفلاح عنها في كل حوار، وبخاصة الحوار الديني. فالأسلوب الدفاعي الذي اعتمدته ابن المخرومة في حواشيه هو السد الذي يقف عنده كل حوار، والعقبة التي تتصدى لكل أمل في التفاهم. وقد برهنت خيرة الأجيال أن العلة الكبرى في هذا التمسك من الحوار الدفاعي، هي في «استبعاد ما ينبغي استيعابه والتجهج على ما ينبغي تفهمه» (١٣٥).

والواقع أن ابن المخرومة على ما تميز به من فكر ناقد وعلم واهن، لم يفلح في توظيف مواهبه لاكتشاف العناصر الجامعة ما بين معتقديه ومعتقديه. وكأني به قد استغرق في مجابهة الخصم فأغفل التنبيه للإنسان الذي يواجهه ولتراث المشترك القائم إلى جانبي الخلافات والتراعات.

هل كان ابن كمونة أوفر حظاً في فهم شروط الحوار وأساليبه؟

لقد قيل: «إن الشرط الأول لكل حوار صحيح هو الأهبة للصمت والإصغاء إلى الغير من حيث هو غير» (١٣٦). من هذا الملحظ، لا يمكن أن ننكر على صاحب «التفصيح» فضله في إفراح مجال الكلام للمتكلمين من غير أبناء بلده. فكنا به «تفتيح الأبحاث للعلم الثالث» يعتبر، من غير منازع، ملتقى من أندر ملتقيات الفكر الديني التقليد، استطاعت فيه الديانات التوحيدية الثلاث الإفصاح عن هوياتها

J.A. Cuttat, Introduction à l'ouvrage de R.C. Zuchner, «Inde, Israël, Islam» p. 19- 20. (١٣٥)

والطلق يلسان حالها. كل بموجب عقيرتها وأساليبها الخاصة.

لا شك أن ابن كمونة لم يفلح دائماً في شجيرة اعتباراته الشخصية وتحييد قناعه الباطلة. فولاؤه لليهودية لم يمكنه دائماً من تحطّي انتمائه إلى مذهب معين، وتبني المسيرة الروحية التي اعتنقها غيره من أصحاب الديانت الأخرى. ولكن اليس هذا التجرد الروحي أكثر مما يسوغ أن نتوقعه من مفكر عاش في القرن الثالث عشر؟ فالإنسانية قد اجتازت قروناً من المعاناة الجدلية الدينية قبل أن توعي شروط الحوار الصحيح، وقبل أن تثبت لها أن مطلق كل حوار ديني هو القبول - إلى حين - بغير ما ألفناه من أشكال الانتماء إلى المطلق.

ولما بقي أن ابن كمونة قد حاول جاداً تحطّي حدود الجدول الديني في أساليبه التقليدية، والانتقال به من مرحلة التجهج إلى مرحلة التفهم، ومن مرحلة الدفاع عن الذات إلى مرحلة التسبب للغير وما يقتضيه من صمت وإصغاء.

من الثابت، ولا شك، أن ابن كمونة - تلميذ ابن سينا والطوسي - لم يكن يستحل عن طريقته العقلانية في معالجة القضايا الدينية بتسليط وسائل النقد والتفحص، والتدعّر بالشجاعة والصراحة في قوله الحق وإبداء الرأي.

ولا شك أيضاً أن هذه الصراحة، بدافع غريزة طائفية غير محكمة الإلجام، قد أدت بالفيلسوف اليهودي إلى مواقف موسومة بالتعصب والتحامل. بيد أن ابن كمونة قد وفق في التلطيف من نقده والتخفيف من طعنه، باعتداده ذلك اللون من التأديب والاختيار الذي يميز الحوار الحقيقي.

من هنا، في كل صفحة تقريباً من صفحات «التفصيح»، نواتر عبارات التبجيل والتفريط في ذكر المسيح ومحمد، وغايتها تأكيد المودة لأتباعها، بصرف النظر عن التراعات العقائدية والخلافات المذهبية القائمة بين مختلف الأديان.

وهذه هي العبرة التي يمكن استخراجها من كتاب «التنقيح» لفائدة أبناء عصرنا، وبخاصة قادة الحوار الروحي ورواده وسائر المعنيين به والساعين له. فابن كمونة، بمحاولته الجريئة تبني المسيرة الروحية للديانتين الأخيرتين، والقيام مقام أتباعها في التعبير عن مفوماتها العقائدية والمسلكية، وكأنها انعكاس ليقين شخصي، قد بلغ بالحوار إلى إحدى محطاته القصوى. عند هذا الحد، يكشف الإنسان المؤمن عند غيره من المؤمنين بالمطلق، معتقدات واختبارات أخرى تحد من مطلقيته تراهي الدين، وتجعله قابلاً للتبادل والتكامل.

ولأن ابن كمونة، أحد مفكري القرن الثالث عشر، أقدم على الخوض في هذه المعامرة، فقد جر على نفسه نورة شعبية عارمة، وعلى كتابه ردًا قاسيًا. وفي هذا دليل مؤسف على أن الدعوة إلى الحوار الصريح لا توثأ أصحابها دائماً رغد العيش وسلامة المصير.

القسم الثاني

حواشي ابن المحرومة
على الباب الثاني من كتاب
«تنقيح الأبحاث للملل الثلاث»
(في اليهودية)

حواشي ابن المحرم
على الباب الثاني من كتاب
"تنقيح البحاث للملأ الثلاث"
(في اليهودية)

في ذكر أولي اليهود على نبوة موسى ، عليه أفضل الصلاة والسلام ،
وذكر أصول الشرائع التي شرعهم بها ، على الوجه الذي نقلوه ، وما
يتعلق من الأسئلة والأجوبة ، على وجه الاختصار .

قالت اليهود

إن الأمر الإلهي اتصل أولاً بآدم أبي البشر ، عليه السلام . فكان
نبياً ، وكان هابيل خليفة له . ولما قتل هابيل أخوه ، غيرة على ربيته ،
عوض بشيت الشيب بآدم . فكان صفوته ، وصفوة شيت أنوش .
وكذلك اتصل الأمر إلى نوح ، بأفراد كانوا لياباء ، ولهم الكمال في
الخلق والأخلاق وطول الأعمار وعلوم وقدرته . وكذلك من نوح إلى
إبراهيم . وربما كان فيهم من لم يتصل به الأمر الإلهي مثل تارح أبي
إبراهيم . وكان إبراهيم تلميذ جده عابر وهو صفوته وتلميذه . ولذلك
نسبى عبرانياً . وعابر صفوة سام ، وسام صفوة نوح أبيه . وصفوة
إبراهيم من جميع بني إسحق ، وصفوة إسحق يعقوب ، وهو المسمى
إسرائيل ، وأولاده كلهم صفوة صالحون للأمر الإلهي .

[قال صاحب الحواشي قدس الله تعالى:]

حاشية ١

أ - وَقَعَتْ واقِعَةٌ اقْتَضَتْ أَنْ أَكْتُبَ هَذِهِ الْحَوَاشِي فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ عَلَى مِلَّةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ. وَاللَّهُ أَسْتَلْهِمُ إِصَابَةَ الصَّوَابِ قَائِلًا :

ب - إِنْ كَلَامُ الْمُصَنِّفِ هَهُنَا يَحْتَمِلُ رَجْهَيْنِ : الْوَجْهَ الْوَاحِدُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ بِأُولَادِ يَعْقُوبَ يَوْسُفَ وَإِخْوَتَهُ. وَالْوَجْهَ الْآخَرُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ ذُرِّيَّةَ يَعْقُوبَ. فَإِنْ كَانَ مُرَادُ الْمُصَنِّفِ هُوَ الْوَجْهَ الْأَوَّلُ، يُسْتَقْصَى كَلَامُهُ بِالَّذِي جَرَى فِي حَقِّ يَوْسُفَ مِنْ إِخْوَتِهِ، عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي التَّوْرَةِ مِنْ تَضْمِينِ عَزْوِهِمْ عَلَى سَفَلِهِ دِمِيهِ ظُلْمًا وَبَيْعِهِمْ إِيَّاهُ بِالثَمَنِ الْبَخْسِ، وَجَعْلِهِ عَبْدًا بَعْدَ أَنْ كَانَ حُرًّا، حَتَّى لَوْ أَنَّهُ كَانَ عَبْدًا لَكَادَتْ قِيمَتُهُ تُنْفَى عَلَى أَلْفِ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ، لِعَظَمَةِ جَمَالِهِ الْمَشْهُورِ ذِكْرُهُ بَيْنَ النَّاسِ.

ج - ثُمَّ إِنْ رَوَّيْلَ - وَهُوَ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ - حَكَّتْ عَنْهُ التَّوْرَةُ أَنَّهُ ضَاجَعَ سُرِّيَّةَ وَالِدِهِ، وَهَذِهِ رَذِيلَةٌ لَا يَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا إِلَّا الْخَارِجُ عَنْ حُكْمِ سُلْطَانِ عَقْلِهِ وَدِينِهِ. وَشُعُونَ وَلاوِي هُمَا أَيْضًا مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ، وَقَدْ حَكَّتِ التَّوْرَةُ مَا جَرَى مِنْهَا فِي حَقِّ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الْمَحْكِيَةِ فِي التَّوْرَةِ، تِلْكَ الَّتِي احْتَلَا عَلَى أَهْلِهَا بِالخَنَازَةِ، وَلَمَّا اخْتِيزَا رِجَالُ الْقَرْيَةِ عَنْ آخِرِهِمْ، أَظْهَرَا شُعُونَ وَلاوِي مَا كَانَا أَبْطَنَاهُ وَهَجَّابًا عَلَى الْقَرْيَةِ فِي جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ وَقَتْلًا جَمِيعَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ اجْتَرَمُوهُ، وَاسْتَبَاحَا الْأَمْوَالَ، وَسَبَّيَا

(١) احتسرا

(٢) أظهرنا

الْحَرِيمَ. وَلَوْ سَلَكَ سَبِيلَ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ لَمَّا اخْتَذَا غَيْرَ غَرِيبِيهَا شَحِيمَ الَّذِي جَرَى مِنْهُ مَا جَرَى. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فسادِ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ بِأُولَادِ يَعْقُوبَ يَوْسُفَ وَإِخْوَتَهُ.

د - وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مُرَادُ الْمُصَنِّفِ بِأُولَادِ يَعْقُوبَ ذُرِّيَّةَ يَعْقُوبَ، فَيَدُلُّ عَلَى فسادِ كَلَامِهِ مَا جَرَى مِنْ أَكْثَرِهِمْ عَدَدًا مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ لَهُمُ الْآيَاتِ عَلَى يَدِ نَبِيِّهِ مُوسَى فِي مِصْرَ وَفِي الْبَحْرِ وَفِي الْقَفْرِ، وَبَعْدَ مَا شَاهَدُوا جَمِيعَ ذَلِكَ عَجْدُوا الْعِجْلَ الْمَعْمُولَ مِنَ الْمَعْدِنِ الْمَوَاتِ، وَقَالُوا : هَذَا إِلَهُكَ يَا إِسْرَائِيلَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ مِصْرَ، وَلَمْ يَحْطُرْ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَمَّا أَخْرَجُوا مِنْ مِصْرَ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْعِجْلُ مُوجُودًا.

هـ - وَمَا مِنْ عَاقِلٍ مُنْصِفٍ إِلَّا وَهوَ يَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّهُ لَوْ شَاهَدَ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي شَاهَدَهَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ، بَعْضُ الْكَفَرَةِ مِنَ الشُّعُوبِ الْمَرْدُولَةِ عِنْدَ الْيَهُودِ لَكَانَ قَدْ خَرَجَ عَنْ كُفْرِهِ وَأَمَنَ بِاللَّهِ، وَبَذَلَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِهِ وَمَا انْتَقَى عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَوْ أَكْرَهَهُ عَلَى الْإِنْبَاءِ عَنْهَا الْأَكْاسِرَةُ وَالْقَبَائِرُ.

و - وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِينَ يَكُونُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ لِلأَمْرِ الْإِلَهِيِّ لَا يَرْتَكِبُونَ هَذِهِ الْكِبَايِرَ الَّتِي ارْتَكَبَهَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ يَعْقُوبَ. فَلَا خُفَّ اللَّهُ عَنْهُمْ أَتَقَالِ الْعَذَابُ فَإِنَّهُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا مِنَ الدُّوَابِّ. وَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ ظَهَرَ لَكَ فسادُ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ الْقَائِلِ : وَأَوْلَادُهُ كُلُّهُمْ صَفْوَةٌ صَالِحُونَ لِلأَمْرِ الْإِلَهِيِّ.

(١) واحدا

(٢) لغير

فَقَرَأَ اللَّهُ حُفَّتُهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ وَتَذِيرُهُمْ بِمَصْرَ كَمَا تُرَى الشَّجَرَةُ
الطَّيْبَةُ الْأَصْلُ حَتَّى تَنْتَبِهُنَّ كَامِلًا بِشَيْءِ الْخَرِّ الْأَوَّلِ الَّذِي مِنْهُ غَرَسَتْ -
أَعْيَ إِبْرَاهِيمَ وَأَسْحَنَ يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ وَإِخْوَتَهُ. فَجَاءَتِ الثَّمَرَةُ بِمُوسَى
وَهَارُونَ وَمَرْيَمَ وَيُمَثِّلُ رُؤَسَاءَ الْأَسْبَاطِ وَالسَّبِينَ شَيْخًا الَّذِينَ صَلَّحُوا
لِلنَّبِيِّ وَيُمَثِّلُ يُوْسُفَ بْنَ نُونٍ وَكَالِبَ وَخُورٍ وَغَيْرَهُمْ كَثِيرٌ.

فَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُسْتَعِيدِينَ بِمِصْرَ، وَكَانَتْ عِدَّةُ رَجَالِهِمُ الَّذِينَ
هَمَّ مِنْ أَبْنَاءِ الْعِشْرِينَ عَامًا وَالِىَ الْحَمْسِينَ فَقَطْ زِيَادَةً عَلَى سِنَائَةِ الْفَرِ
رَجُلٌ، وَذَلِكَ مَا عَدَا الشَّبَابَ وَالصَّبِيَّانَ وَالشَّاعِثَ وَالنِّسْوَانَ، وَكَانُوا
مُنْتَسِبِينَ إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ سِبْطًا. وَكَانُوا مَوْعُودِينَ عَنْ أَجْدَادِهِمْ أَنْ يَرَوْا
الشَّامَ. وَكَانَ الشَّامُ حَيْثُ يَدْرِي سَمْعُ أُمَمٍ فِي غَايَةِ الْكَلْبَرِ وَالْقُوَّةِ
وَالْإِقْبَالِ، وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي غَايَةِ الذَّلِيلَةِ وَالشَّقَاءِ مَعَ فِرْعَوْنَ يُقْتَلُ
أَوْلَادُهُمْ كَيْلًا يَكْثُرُوا.

فَأَرْسَلَ اللَّهُ مُوسَى وَهَارُونَ، عَلَى ضَعْفِهَا، وَكَانَ مُوسَى، حِينَ
أُرْسِلَ، ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً. وَكَانَ هَارُونَ قَدْ نَبَغَ عَلَى الثَّانِينَ. وَوَأَقْبَا
فِرْعَوْنَ، عَلَى قُوَّتِهِ، بِالْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ وَخَرَقَ الْعَادَاتِ، وَلَمْ يَقْدِرْ
أَنْ يَأْمُرَ فِيهَا بِسُوءٍ، وَلَا أَنْ يُخْجِبَ نَفْسَهُ عَنِ الْآفَاتِ الْعَشْرِ الْحَالَةِ بِأَهْلِ
بِصْرِي مِيَاهِهِمْ، ثُمَّ فِي أَرْضِهِمْ، ثُمَّ فِي هَوَاهِمِهِمْ وَفِي تَبَاتِيهِمْ وَفِي حَيَوَانِهِمْ
وَفِي أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ فِي أَنْفُسِهِمْ، إِذْ مَاتَ فِي طَرَفَةِ عَيْنٍ فِي شَطْرِ اللَّيْلِ أَجَلُ
مَنْ كَانَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَأَحْبَبَهُمْ إِلَيْهِمْ، وَهَوَكُلُّ وَلَدٍ يَكْبُرُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ دَارٌ
دُونَ مَيْتَةٍ، حَاشَى دُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَفَتَاصِلُ كُلِّهِ مَذْكُورَةٌ فِي
التَّوْرَةِ، فَلِهَذَا لَمْ أَثْبِتْهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ كَانَ يَسْتُرُّ بِإِذْنِهِ
وِإِنْذَارٍ وَوَعْدٍ، وَيَرْتَفِعُ كَذَلِكَ، بِحَيْثُ يُعَقَّدُ أَنَّهَا مَقْصُودَةٌ مِنْ إِلَهٍ
مُرِيدٍ بِتَعَلُّ مَا يَشَاءُ حَتَّى يَشَاءَ.

وَخَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي ثَلَاثِ اللَّيَالِي مِنْ عُبُودِيَّةِ فِرْعَوْنَ وَصَارُوا
إِلَى نَاحِيَةِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ، وَقَادَهُمْ عَمُودُ نَهَامٍ، وَعَمُودُ نَارٍ سَائِرٌ أَمَامَهُمْ،
وَمُوسَى وَهَارُونَ يُدِيرَانِهِمْ. فَتَعَمَّهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَلَمْ يَلْتَجِئُوا إِلَى
سِلَاحٍ، وَلَا كَانُوا مِنْ يَدْرِ الْحَرْبِ!

حاشية ٢

أ - قَوْلُ الْمُصَنِّفِ: «وَلَا كَانُوا مِنْ يَدْرِ الْحَرْبِ» قَوْلٌ غَيْرُ
صَحِيحٍ لِأَنَّ التَّوْرَةَ شَهِدَتْ بِأَنَّهُمْ قَاتَلُوا عَمَالِيْقَ، فَقَالَتْ مَا حِكَايَتُهُ:
«فَجَاءَ عَمَالِيْقُ لِيُقَاتِلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي رِفْدَيْنِ فَانْكَسَرَ وَخَرِيَ بِحَدِّ السِّلَاحِ.
ب - وَفِي التَّوْرَةِ أَيْضًا أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ بَنِي لَآوِي قَائِلًا:
لِيَنْقَلِدَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سَيْفَهُ. وَجُوزُوا فِي الْمَحَلَّةِ مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ،
وَلِيُقْتَلَ الرَّجُلُ إِخَاهُ وَصَاحِبُهُ وَذَوِي قَرَابَتِهِ. فَفَعَلَ بَنُو لَآوِي حَسَبًا أَمَرَهُمْ
مُوسَى، فَقُتِلَ مِنَ الشَّعْبِ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَجُلٍ.

ج - هَذَا حِكَايَتُهُ مَا فِي التَّوْرَةِ. فَلَوْ كَانُوا مِنْ يَدْرِ الْحَرْبِ كَمَا قَالَ
الْمُصَنِّفُ، لَمَا كَانَ قَدْ جَرَى مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَلَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْمُقْتَلَةُ الْمُحْكِيَّةُ
فِي كِتَابِهِمْ، فَتَبَيَّنَ قِسَادُ كَلَامِ الْمُصَنِّفِ لِكُلِّ عَاقِلٍ مُتَّصِفٍ.

فَقَسَّ لَهُمُ الْبَحْرَ وَجَاوَزُوهُ، وَغَرِقَ فِرْعَوْنُ وَخَشْدُهُ، وَقَذَفَ بِهِمُ
الْبَحْرُ أَمَوتًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى رَأَوْهُمْ عِيَانًا.
ثُمَّ حَصَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرَحِيِّ لَا زَرْعَ. فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ يَوْمًا
فَيَوْمًا سِوَى يَوْمِ السَّبْتِ، فَأَكَلُوهُ طُولَ أَرْبَعِينَ عَامًا، إِلَى أَنْ مَاتَ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْتًا اخْتِيَارِيًّا

أ - إنَّ كَلَامَ الْمُصْطَفِ هَهُنَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ ، لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لَمْ يَمُتْ مَوْتًا اخْتِيَارِيًّا ، وَالدَّلِيلُ عَلَى صِدْقِ دَعْوَى الْعَبْدِ مَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ الْقَائِلَةَ : وَقَالَ اللَّهُ لِمُوسَى اصْعَدْ إِلَى هَذَا الْجَبَلِ - وَهُوَ جَبَلُ الْعِبْرَانِيِّينَ - فَانْظُرْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِ كَنْعَانَ الَّتِي وَهَبْتُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَبْصُرْهَا ثُمَّ الْحَقَّ بِشِعْبِكَ كَمَا لَحِقَ هَرُونَ أَخُوكَ ، مِنْ أَجْلِ أَنْكُمْ مَرَّمْتُمْ كَلِمَةً فَمَيَّ فِي بَرِّيَّةٍ سِينَ فِي خِصَامِ الْجَمَاعَةِ هَذَا .

ب - وَالْعَبْدُ يَقُولُ : « إِنَّ فِي هَذَا الْكَلَامِ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَمُتْ مَوْتًا اخْتِيَارِيًّا كَمَا ادَّعَاهُ الْمُصْطَفِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ مَاتَ وَفِي قَلْبِهِ حَسْرَةٌ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ ، عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي السِّفْرِ الْخَامِسِ مِنَ التَّوْرَةِ الْقَائِلَةَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى : أَسْأَلُكَ أَنْ تُأْذَنَ لِي حَتَّى أَغْبِرَ فَانْظُرَ إِلَى الْأَرْضِ الصَّالِحَةِ الَّتِي فِي غَيْرِ الْأَرْدُنِّ ، إِلَى هَذَا الْجَبَلِ الصَّالِحِ وَلُبْنَانَ . فَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيَّ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنِّي ، وَقَالَ لِي : حَسْبُكَ لَا تُعِدْ أَيْضًا أَنْ تَقُولَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ قُدَّامِي ، وَلَكِنْ ارْتَفِعْ فَوْقَ الرَّامَةِ ، وَارْقُعْ عَيْنَيْكَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَإِلَى الْمَغْرِبِ وَإِلَى الشِّمَالِ وَإِلَى الْمَجِزِ ، فَانْظُرْهَا بِعَيْنَيْكَ فَإِنَّكَ لَا تَخْطُؤُ فِي هَذَا الْأَرْدُنِّ .

ج - ثُمَّ جَاءَ فِي السِّفْرِ الْخَامِسِ بَعْنِيهِ مَا هَذِهِ حِكَايَتُهُ : ثُمَّ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَالَ لَهُ : اصْعَدْ هَذَا الْجَبَلَ جَبَلُ الْعِبْرَانِيِّينَ ، جَبَلُ نَابُو فِي أَرْضِ مُوَابَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ انْظُرْ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ الَّتِي أُعْطِيتَ إِسْرَائِيلَ مِيرَاثًا ثُمَّ مِتْ فِي الْجَبَلِ الَّذِي تَصْعَدُ عَلَيْهِ ، وَاسْلُكْ سَبِيلَ أَصْحَابِكَ كَمَا مَاتَ

هَرُونَ أَخُوكَ فِي طُورِ هُورَ . هَذَا حِكَايَةُ كَلَامِ التَّوْرَةِ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى لَمْ يَمُتْ مَوْتًا اخْتِيَارِيًّا . فَمَا ذَكَرَهُ الْمُصْطَفِ هَهُنَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ .

مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا هَرَمٍ ، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ السِّنِّ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً شَمْسِيَّةً ، كَمَنْ يَصْعَدُ إِلَى فِرَاسِهِ لَيْلَامَ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَسَاعَةٍ مَعْلُومَةٍ . وَلَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ قَبْرَهُ . وَهَذِهِ رُتْبَةُ مُفَارَقَةٍ فِي الْجَوْهَرِ رُتْبَةُ سَائِرِ النَّاسِ .

وَكَانَ بَعْدَ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ بِقَلِيلٍ أَمَرَهُمُ اللَّهُ ، عَلَى لِسَانِ مُوسَى ، بِالْتَّأَهُبِ بِالطَّهَارَةِ وَالطَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَاعْتِرَالِ النِّسَاءِ - لِسَاءِهِمُ الْخِطَابُ كُلُّيْهِمْ جَهْرَةً حَتَّى لَا يَبْقَى فِي نَفْسِهِمْ شَيْءٌ أَنَّ اللَّهَ يُخَاطِبُ الْبَشَرَ . وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ تَأَهُبِهِمْ بِمَقَلِّمَاتِ هَوْلٍ عَظِيمٍ مِنْ بُرُوقٍ وَرُعُودٍ وَزَلَّازِلٍ وَنِيرَانٍ حَفَّتْ بِطُورِ سِينَ . وَبَقِيَتْ ثَلَاثَةُ النَّارِ طَوِيلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى الْجَبَلِ . يَرَاهَا الْقَوْمُ وَيَرَوْنَ مُوسَى دَاخِلًا إِلَيْهَا وَخَارِجًا عَنْهَا . وَسَمِعَ الْقَوْمُ الْخِطَابَ فَصَحَا ، يَعْتَمِرُ كَلِمَاتِ هِيَ أَهْمَاتُ الشَّرَائِعِ وَأَصُولُهَا - وَرَسَمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي لَوْحَيْنِ مِنْ حَجَرٍ رَفِيعٍ . وَدَفَعَهَا إِلَى مُوسَى فَأَرَاهَا كِتَابًا إلهيًا ، كَمَا سَمِعُوهَا خَطَابًا إلهيًا .

وَبَعْدَمَا عَانِيَا وَسَمِعُوا مَا حَكَاهُ الْمُصْطَفِ خَالَفُوا مَا جَاءَ فِي أَثْنَاءِ الْعَشْرِ الْكَلِمَاتِ مِنَ التَّهْنِ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ، وَعَبَدُوا الْعِجْلَ بَدَلًا عَنْ اللَّهِ مِنْ قَوْمٍ قَدْ عَدِمُوا عَقُولَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ وَلَمْ يَبْتَدِ فِي أَذْهَانِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَلَا آيَةٍ .

وعَلِمَ لَهُمْ مُوسَى بِأَمْرِ اللَّهِ تَابِعًا، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الْقَبَّةَ الْمَشْهُورَةَ. وَبَيَّنَ ذَلِكَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَحْوَ تِسْعِ مِائَةٍ سَنَةٍ حَتَّى اخْتَفَى التَّابُوتُ لِعِصْيَانِهِمْ وَظَنَرُوا بِهِمْ بِخُتْنَصَرٍّ وَأَجْلَاهُمْ.

حاشية ٥

أ - إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَمَّا عَصَوْا اللَّهَ الْعِصْيَانَ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ الْمُصْنِفُ، اسْتَوْجِبُوا بِسَبَبِهِ جَلَاءً بِخُتْنَصَرٍّ. وَأَمَّا الْعِصْيَانُ الْآخَرُ الَّذِي مَا ذَكَرَهُ الْمُصْنِفُ، فَهُوَ الَّذِي اسْتَوْجِبُوا بِسَبَبِهِ جَلَاءً طَيْطُوسَ مَلِكَ الرُّومِ، وَخَطَرَهُ أَعْظَمُ مِنْ خَطَرِ الْعِصْيَانِ السَّابِقِ عَلَى جَلَاءٍ بِخُتْنَصَرٍّ.

ب - وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ هَذِهِ الدَّعْوَى أَنَّ جَلَاءً بِخُتْنَصَرٍّ لَمْ يَطْلُ عَلَيْهِ زَمَانُ الْعُقُوبِ عَلَى الْقَوْمِ عِشْرَ طُولِ الزَّمَانِ عَلَى جَلَاءِ طَيْطُوسَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي جَرَى مِنْ وَاقِعَةٍ بِخُتْنَصَرٍّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِصْيَانَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهَا لَمْ يَبْلُغْ مِنَ الرَّدَاةِ مَبْلَغًا أَوْجِبَ اسْتِمْرَارَ الْعُقُوبِ عَلَى الْقَوْمِ. وَهَذَا أَعَادَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَرْضِهِمْ بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً. وَأَمَّا الْعِصْيَانُ السَّابِقُ عَلَى جَلَاءِ طَيْطُوسَ فَهُوَ الَّذِي أَوْجِبَ اسْتِمْرَارَ الْعُقُوبِ عَلَيْهِمْ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ، لِأَنَّهُ كَانَ عِصْيَانًا قَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ الرَّدَاةِ أَقْصَى حَدٍّ. كَيْفَ لَا وَقَدْ اُنْتَدَجَ فِيهِ تَكْذِيبُهُمُ لِلْسَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَالْحَوَارِيِّينَ أَبَادًا اللَّهُ بِأَعْضِهِمْ. وَهَذِهِ كَبِيرَةٌ لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا، حَتَّى إِنَّ الْقَوْمَ لَوَلَّمُوا بِزَيِّنِيكُمَا مِنَ الذُّنُوبِ غَيْرِ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ، لَكَانَ هَذَا الذَّنْبُ وَحْدَهُ كَافِيًا فِي سَلْبِ مَا مَتَّعَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْمَوَاجِبِ، وَمَوْجِبًا لِيَطْرُدَهُمْ مِنْ بَابِهِ الْكَرِيمِ، وَقَاطِعًا لَهُمْ عَنِ الْعَوْدَةِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، أَعْنَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ.

(١) فلفر.

(٢) وردت طيطوس في سائر النسخ.

(٣) كافور.

ج - وَفِي كُتُبِهِمُ التَّوْبِيُّوَةُ أَشْيَاءٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا عَوْدَةَ لَهُمْ إِلَى تِلْكَ الْأَرْضِ، أَيْ بَعْدَ جَلَاءِ طَيْطُوسَ، أَبَدَ الْآبِدِينَ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ التَّوْرَةِ: كَمَا أَرَادَ اللَّهُ لَكُمْ الْخَيْرَ وَفَرَحَ بِكَتْرَتِكُمْ، فَكَذَلِكَ يَفْرَحُ إِذَا حَلَّ بِكُمْ الْبَلَاءُ حَتَّى تَهْلِكُوا! وَتَفْتَنُوا مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَكُمْ مِيرَاثًا. وَيَفْرُقُكُمْ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ. وَلَا كَذَلِكَ جَلَاءً بِخُتْنَصَرٍّ لِأَنَّهُمْ مَا تَفَرَّقُوا فِيهِ هَذَا التَّفَرُّقُ وَلَا طَالَتْ مَدَّةُ غَيْبَتِهِمْ عَنْ أَرْضِهِمْ عِشْرَ طَوْلِهَا بَعْدَ جَلَاءِ طَيْطُوسَ. وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَسَعُ الْمُكَابِرَ جَحْدُهُ وَلَا يُطِيقُ الْمُنَازَعُ رَدَّهُ.

د - وَقَالَ إِرْمِيَا النَّبِيُّ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَقِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ: فَإِنَّهُمْ إِنْ صَامُوا وَإِنْ صَلَّوْا لَمْ أَسْمَعْهُمْ، وَإِنْ قَرَّبُوا الْقَرَابِينَ لَمْ أَقْبَلْهَا، وَبِالْحَرْبِ وَالْجُوعِ وَالْمَوْتِ أَيْدُهُمْ. لَا تَطْلُبُ إِلَيَّ فِيهِمْ فَإِنِّي لَا أَسْتَجِيبُ لَكَ. وَقَالَ أَيْضًا: وَأَنْتَ أَيُّهَا النَّبِيُّ فَلَا تُصَلِّ قُدَّامِي فِي سَبَبِ هَذَا الشَّعْبِ، وَلَا تَطْلُبُ إِلَيَّ فِي أَمْرِهِمْ؛ وَلَا تَتَشَفَّعْ فِيهِمْ فَإِنِّي لَسْتُ أَسْتَجِيبُ لَكَ فِيهِمْ.

ه - وَقَالَ أَيْضًا: كَمَا لَا يَسْتَطِيعُ الْجَبَنِيُّ أَنْ يَصِيرَ أَبْيَضَ، هَكَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا يَدْعُونَ كُتُبَهُمْ وَعُدَّتَهُمْ، وَلِذَلِكَ لَا أَرْحَمُهُمْ وَلَا أَرْوِفُ عَلَيْهِمُ الشَّعْبَ الْجَبِيثَ وَلَا أَشْفُقُ عَلَيْهِمْ قَالَ اللَّهُ.

و - وَقَالَ أَيْضًا: قَالَ لِي الرَّبُّ اشْتَرِ كَرَّازَ خَرْفٍ وَكثيرةً بَيْنَ يَدَيِ الرُّؤَسَاءِ وَالْكَهَنَةِ، وَقُلْ لَهُمْ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ الْقَوِيُّ: هَكَذَا أَكْثَرُ هَذَا الشَّعْبُ مِثْلًا كَسَرْتُ هَذَا الصَّخَّارَ الَّذِي لَا يُوجِدُ لَهُ عِلَاجٌ أَبَدًا. وَقَالَ هُوَ شَعْبٌ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى: إِنِّي لَا أَعُودُ أَرْحَمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمِنْ قَلْبِي أَخْرَجُهُمْ وَلَا أَعْتَظِفُ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ أَيْضًا: سَيَاتِي زَمَانٌ يُطْلَبُونَ اللَّهَ فَلَا يَجِدُونَهُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ

(١) تهلكون وتفتنون.

يَقْدِرُهُمْ. وَأَوْلَدُوا أَوْلَادَ الْخَطِيئَةِ وَالْفُجُورِ، وَلَا يَسْمَعُ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ إِذَا دَعَوْهُ، وَلَا تَصْعَدُ إِلَيْهِ طَلِبَتُهُمْ وَيَبْقُونَ فِي الْخَزْيِ وَالْهَلَاكِ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ.

ز - وَقَالَ أَيْضًا: كَمَا زَنْتَ صُورًا وَأَغْرَبْتَ بِلَادَهَا وَأَتَيْتَ أَوْلَادَهَا، هَكَذَا إِسْرَائِيلُ بِالْقِتَالِ بَنُوهُ يَمُوتُونَ بِالسَّيْفِ، وَيَهْلِكُونَ بِالْحَرْبِ لِأَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ حَلَّتْ فِيهِمْ، وَاللَّهُ كَرِهَهُمْ وَمَنْ بَيَّنَّهُ أَخْرَجَهُمْ وَلَا يَعُودُ يَرْحَمُهُمْ أَبَدًا وَلَا يَغْفِرُ لَهُمْ، وَكِبَارُهُمْ مَرْدَةٌ، وَلِذَلِكَ يَهْلِكُهُمُ اللَّهُ وَيُفْرِقُهُمْ فِي الشُّعُوبِ وَلَا يَرْحَمُهُمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِرَأْفَةٍ إِلَى دَهْرِ الدَّاهِرِينَ.

ح - وَقَالَ أَشْعِيَا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى: نَصَبْتُ كُرْمًا وَعَمَرْتُهُ وَجَعَلْتُ لَهُ سِيَاجًا وَبَنَيْتُ فِيهِ مَجْدَلًا لِتَحْمِلَ فِيهِ الْعَبَّ فَأَخْرَجَ الْخُرُوبَ. أَنَا الْآنَ أَنْقَضُ الْمَجْدَلَ وَأَقْلَعُ السِّيَاجَ وَأَمْنَعُ السَّحَابَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْقَطَرُ. هَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ. وَقَالَ أَيْضًا: هَذَا الشَّعْبُ يُحِبُّنِي بِفَمِهِ وَقَلْبُهُ مِنِّي بَعِيدٌ، وَلِذَلِكَ سَأَفْضَحُهُ وَأَهْلِكُهُ وَأَجْعَلُهُ عَجَبًا لِمَنْ تَعْجَبُ وَلَعْنَةً لِمَنْ التَّعَنَ. وَقَالَ حِزْقِيَالُ: لَوْ قَامَ مِنْهُمْ نُوحٌ وَدَانِيَالُ وَأَيُّوبُ لَمْ يَنْفَعُوهُمْ.

ط - هَذَا النَّمُودَجُ مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَقَدْ ظَهَرَ مِنْهُ صِدْقُ الَّذِي ادَّعَيْنَاهُ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَأَوَّلَ كَلَامَ الْأَنْبِيَاءِ تَأْوِيلًا يُخْرِجُهُ عَنْ قَوْلِهِ، كَمَا قَدْ تَأَوَّلَهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ خَرَبًا مِنَ التَّزَامِ هَذِهِ الْمَحْذُورَاتِ الْمُخَوَّفَةِ، لِأَنِّي أَقُولُ لِلْمُتَأَوِّلِ: إِنَّكَ إِنْ تَأَوَّلْتَ مَا يَتَوَجَّهَ عَلَيْكَ مِنَ الْإِلْزَامَاتِ طَعْمًا فِي التَّخَلُّصِ مِنْهَا، أَلَمْ تَأْكُلْ أَنْ تَتَأَوَّلَ جَمِيعَ الْكَلَامِ الَّذِي تَدَّعِيهِ أَنَّهُ حُجَّةٌ لَكَ، كَمَا تَأَوَّلْتَ الَّذِي هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْكَ، لِأَنْ تَأَوَّلَ الْبَعْضُ لِمَا نَحْنُ فِيهِ دُونَ الْبَعْضِ الْآخَرِ تَحَكُّمًا، وَالتَّحَكُّمُ مِنْ شَيْئِ الْمَكَايِرِينَ الَّذِينَ يَرُومُونَ نَصْرَ الْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ وَتَرْجِيحَ الْكَذِبِ عَلَى الصِّدْقِ.

ي - فَإِذَا لَمْ يَدْ وَأَنَّ تَحْتَارُوا إِمَّا تَرَكْتَ تَأْوِيلَ الْكَلَامِ الَّذِي نَقَلْنَاهُ وَأَمَثَالِهِ، فَتَنْتَرَمُوا مَا يَلْزَمُكُمْ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجْزُوا التَّأْوِيلَ فِي سَائِرِ مَا تَنْصَبُّهُ كُتُبُكُمْ، وَجَيِّدٌ تَنْزِلُ أَرْكَانَ شَرِيْعَتِكُمْ وَيَبْدُلُ كَثِيرٌ مِنْ فَرَائِضِهَا أَوْ يَبْطُلُ بِالْكَلْبَةِ. فَكَمْ مِنْ فَرِصَةٍ فِي التَّوْرَةِ يُمَكِّنُ إِخْرَاجَهَا بِالتَّأْوِيلِ إِلَى غَيْرِ الَّذِي تَدَّعِيهِ الْيَهُودُ فِي تِلْكَ الْفَرِصَةِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الْخِتَانَةَ لَيْسَتْ هِيَ الْفِعْلُ الَّذِي تَفْعَلُونَ بَلْ إِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا غَيْرُ ذَلِكَ بِذَلِكَ قَوْلُ التَّوْرَةِ: وَاحْتَشُوا غِرْلَ قُلُوبِكُمْ. ثُمَّ نَقُولُ: لَيْسَ الْمُرَادُ بِالذَّبَائِحِ سَفَكُ دِمَاءِ الْحَيَوَانِ كَمَا تَزْعُمُونَ بَلْ إِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ دَاوُدُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ قَالَ: إِنَّ ذَبَائِحَ الْبُوهِي الرُّوحِ الْمُتَوَاضِعَةِ. وَقَوْلُهُ أَيْضًا: اذْبَحُوا لِلَّهِ ذَبَائِحَ الشُّكْرِ. فَالْيُكْمُ الْخِيَارُ فِي التَّأْوِيلِ وَتَرْكُهُ، فَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ لَيْسَ لَكُمْ مِنْ يَدَيِ الْمَحْذُورِ خَلَاصٌ وَلَا مِنْ سِيَاهِ الْمَطَاعِينَ مَنَاصُ.

وَالْمُعْجِزَاتُ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِمْ عَمَّ كَثِيرَةٌ وَعَظِيمَةٌ الشَّانِ، مِثْلُ قَلْبِ الْعَصَا يُدْبِي الْكُرْسِيَّ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، وَإِخْرَاجُ الْمَاءِ مِنَ الصَّخْرَةِ السَّمَاءِ حَتَّى اسْقَى جَمِيعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِحْضَارُ شَيْءٍ كَثِيرٍ مِنَ الطَّائِرِ الْمَسْمُومِ بِالسَّلْوَى وَإِطَاعِيهِمْ إِيَّاهُ، وَالتَّقْطِيلُ عَلَيْهِمْ بِالْعَقَامِ وَمَا ظَهَرَ مِنَ الثَّوْرِ وَجْهِهِ حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَاجْتَنَابَ أَنْ يَنْشُرَ وَجْهَهُ لِيُكَلِّمَهُمْ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِثَالًا تَنْصَبُّهُ التَّوْرَةُ الْمُقَدَّسَةُ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ فِيهَا.

وَكُلُّ مُعْجِزَةٍ لِيَسِيرَ جَاءَ بَعْدَهُ - وَهُوَ عَلَى دِينِ مُوسَى وَيَدْعُو إِلَيْهِ -

(١) فُتَارُونَ

(٢) فُتَارَتُونَ.

(٣) نُجُورُونَ.

فَبَقِيَ كَالْمُعْجَزَةِ لَهُ، كَمَا قَعْلُهُ يُوسَعُ بَنُ نُونٍ وَصِيْبُهُ عَمَ حِينَ أَمَرَ الشَّمْسُ
فَتَأَخَّرَتْ وَلَمْ تَقِبْ حَتَّى نُصِرَ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَيَسِّرَ لَهُ نَهْرُ الْأُرْدُنِّ
وَحَسَّ جَرَيَانُ الْمَاءِ حَتَّى أَجَارَ ثَابُوتَ السَّكِينَةِ وَجَمِيعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ،
وَكَمَا قَعْلُهُ الْيَا النَّبِيُّ عَمَ مِنْ إِحْيَاءِ ابْنِ الْأَرْمَلَةِ، وَإِفَادَةِ خَايَةِ الزَّيْتِ،
وَحَسَّ الْأَمْطَارُ ثَلَاثَ سِنِينَ وَنِصْفَ، وَأَمَرَ الْأَرْضُ أَنْ لَا تُثْبِتَ شَيْئًا،
ثُمَّ قَرَّبَ قُرْبَانًا وَدَعَا اللَّهَ فَفَتَحَ لَهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَقِيلَ قُرْبَانُهُ قُضِيَ
الْأَرْضُ، وَتَسَلَّمَ أَعْدَاؤُهُ عِبَادُ الْأَوْتَانِ وَذَبَحَهُمْ عَلَى جَبَلِ كَرْمَلٍ.

حاشية ٦

فَلَيْسَ لَمْ يَذْبَحْ أَحَابُ الْمَلِكُ عَائِدَ الْوَتْنِ كَمَا ذَبَحَ هَوْلَا، وَمَا الَّذِي مَنَعَهُ
عَنْ ذَلِكَ وَأَجَارَ عِنْدَهُ هَلَاكُ الْخَلْقِ الَّذِينَ هَلَكُوا بِسَبَبِ حَسِّ الْأَمْطَارِ مَعَ
أَنَّهُمْ مَا كَانَ فِيهِمْ عَائِدُ وَتْنٍ. فَبَيَّازَ ذَنْبَ هَلَكُوا وَسَلِّمَ أَحَابُ الَّذِي هُوَ
صَاحِبُ الذَّنْبِ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَكَأَ أَخِيَا الْبَيْعِ النَّبِيِّ مِثْلًا خَالَ حَيَاتِهِ
وَأَخَّرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ عِنْدَ مَقَارِنِهِ لِقَبْرِهِ. وَمُعْجَزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَّبِعِينَ لِزَمَرَةٍ
مُوسَى كَثِيرَةٌ، مَشْهُورَةٌ فِي كُتُبِهِمْ، يَطُولُ اسْتِيفَاضُهَا.

وَمِنْ جُمْلَتِهَا مَا بَعْدَ مِنْ مُعْجَزَاتِ مُوسَى عَمَ أَنَّهُ وَعَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي
التَّوَابَةِ بِأَنَّهُمْ، إِنْ أَطَاعُوا، اخْتَصَمَهُمُ بِالْعَنَابَاتِ وَالْكَرَامَاتِ وَيَدُومُ
بَقَاؤُهُمْ فِي الْأَرْضِ الْمُدَسَّسَةِ الَّتِي وَعَدُوا بِهَا وَيَتَمَلَّقُ خُصْبُهَا وَجَدْبُهَا
وَيَحْتَرِّهَا وَشَرُّهَا بِأَمْرِ الْإِلَهِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَيُشَاهِدُونَ، مَعَ خُلُوقِ
السَّكِينَةِ بَيْتَهُمْ، مِنْ خُصْبٍ يَلِدُهُمْ وَاتِّظَامِ أَمْطَارِهِمْ، وَأَنَّهَا لَا
تَقْتَلِي أَوْقَاتِهَا الْمُحْتَاجَ إِلَيْهَا، وَظَفَرِهِمْ بِعَدُوِّهِمْ دُونَ اعْتِدَادٍ، مَا
يَذَرُونَ بِهِ أَنْ أَمْرَهُمْ لَا يَجْرِي عَلَى قَانُونِ طَبِيعِيٍّ وَلَكِنْ إِرَادِيٍّ، كَمَا

(١) لِأَحَابِ.

سَيَّرُونَ مِنَ الْجَذْبِ وَالْقَحْطِ وَالْمَوْتَانِ وَالْحَيَوَانِ الْمُهْلِكِ، وَغَيْرِهِمْ
فِي دَعْوَى، مَا يَعْلَمُونَ بِهِ أَنَّ أَمْرَهُمْ يُدَبِّرُهُ مَا هُوَ أَرْفَعُ مِنَ الْأَمْرِ
الطَّبِيعِيِّ. فَجَرَيَانُ الْأَمْرِ مَعَهُمْ عَلَى وَفْقٍ وَعَلِيُو وَوَعْدِيُو هُوَ مِنْ
الْمُعْجَزَاتِ الْعَظِيمَةِ لَهُ، وَمُعْجَزَاتُهُ أَكْثَرُهَا غَيْرُ مُحْتَمَلٍ أَنْ تَكُونَ وَقَعَتْ
بِحِيلَةٍ أَوْ تَوَاطُؤٍ، لِأَنَّهَا عَمَتْ صُفْعًا كَبِيرًا مِنَ الْأَرْضِ وَخَلَقًا كَثِيرًا مِنَ
الْبَشَرِ.

حاشية ٧

أ - إِنَّ الْمُصَيِّفَ هَهُنَا قَدْ طَعَنَ فِي مُعْجَزَاتِ مُوسَى وَهُوَ لَا يَدْرِي،
وَيُظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مُحْتَمَلٍ أَنْ تَكُونَ وَقَعَتْ بِحِيلَةٍ أَوْ
تَوَاطُؤٍ، لِأَنَّ هَذَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ يَكُونُ أَقْلُهَا مُحْتَمَلُ الْوُقُوعِ بِالْحِيلَةِ وَالتَّوَاطُؤِ،
حَاشَى مُوسَى عَنْ ذَلِكَ. وَلَكِنْ الْمُصَيِّفُ أَتَى هَهُنَا بِلَفْظَةِ «أَكْثَرُهَا» مُتَابِعَةً
لِعَادَتِهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ، أَعْنِي الْخُرُوجَ عَنِ الْجَادَةِ الْمُسْتَفْسِمَةِ وَتَرْجِيحَ
الْعَقَائِدِ السَّكِينَةِ.

ب - ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَدَلَّ عَلَى نَقْيِ وَفُوعِ مَعَاجِزِ مُوسَى بِالْحِيلَةِ بِقَوْلِهِ: لِأَنَّهَا
عَمَتْ صُفْعًا كَبِيرًا مِنَ الْأَرْضِ وَخَلَقًا كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ. وَالْمُصَيِّفُ مَعَ سَائِرِ
أَهْلِ مِلَّتِهِ يَزْعُمُونَ أَنَّ مُعْجَزَاتِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَكَافَةِ الْحَوَارِيِّينَ - طَهَّرَ اللَّهُ
الْأَرْضَ مِنْ^١ بِأَغْيَبِهِمْ جَمِيعَهَا - وَقَعَتْ بِالْحِيلِ وَالتَّوَاطُؤِ. فَلْيَقُلْ^٢
لِلْيَهُودِ: إِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي اسْتَدَلَّلْتُمْ^٣ بِهِ عَلَى نَقْيِ الْحِيلَةِ وَالتَّوَاطُؤِ فِي
مُعْجَزَاتِ مُوسَى، أَعْنِي قَوْلَكُمْ إِنَّهَا عَمَتْ صُفْعًا كَبِيرًا مِنَ الْأَرْضِ وَخَلَقًا

(١) مَا.

(٢) فَلْيَقُلْ.

(٣) اسْتَدَلَّلْتُمْ.

كثيراً من البشر هو في معجزات أتباع السيّد المسيح، أعني حوارييه عليهم الصلاة والسلام، أشدّ ظهوراً وأوضح وجوداً، لأنّ معجزاتهم عمّت من الأصقاع أضعافاً ما عمته معجزات موسى، وعمّت من البشر الذين في تلك الأصقاع خلقاً يزيد مبلغ بعضه على جملة أهل زمان موسى من بني إسرائيل. وفي طي ذلك الخلْق من الأمم المختلفة والممالك العديدة التي دخلت في دين النصرانية بسبب تلك المعجزات ما لا يسع المعانيذ التواضع في أنّه أكثر من جملة اليهود الذين كانوا في زمان موسى بأضعاف مضاعفة. وهذا يكذب قول اليهود القائلين بأنّ معجزات أتباع السيّد المسيح لم تكن وقعت بالتأييد الإلهي والعناية الربانية.

ومنها ما استمرّ حدود أربعين سنة. والذي منها ليس كذا فهو قليل، مثل قلبه العصا حيّة تسعى، ومثل إخراج يديه بيضاء، ومثل الثور على وجهه. فإنّ هذِهِ، لَوْ وَقَعُ الاقتصار عليها وعلى أمثالها، لجاز أن يقال إنّها يتحيل. وأمّا تلك الأخرى فتعتبر محتملة لذلك.

واتاهم موسى، عليه أفضل الصلاة والسلام، أعني بني إسرائيل، بالشرعة المقدّسة، ولم ينسخ الشريعة التي أمر بها الأمم من لدن آدم ونوح، عليهما السلام، ولم ينسخها، ولكن أخذ الوصية بها، وزاد عليها ما خصّص به بني إسرائيل دون غيرهم من الأمم.

أ - قد غلب على ظني أنّ المصنّف لمّا سطر هذا الكلام، إمّا أنّه قد كان سكران أو كان قد عرض له طرفٌ من الخيول. وإلا فكيف تجاسر على

(١) حواريته.

(٢) لبني

التفوّق بهذا الكلام الذي فساده ظاهرٌ لبعض الأطفال، فضلاً عن المحنّكين والرجال، أعني قوله: ولم ينسخ الشريعة التي أمر بها الأمم من لدن آدم ونوح عليها السلام. ألا يرى أنّ موسى نسخ في التوراة شريعة آدم وشريعة نوح معاً؟

ب - أمّا نسخه لشريعة آدم فلاّنه حرّم في التوراة من الحيوان ما كان حلالاً لآدم وأهل زمانه. كيف لا والتوراة نفسها تشهد بأنّ الله تعالى قال لآدم عليه السلام ولحواء: هؤذا أعطينكم كلّ عُشب يُزرع على وجه الأرض كُلّها وكلّ شجرة مثمرة، فلنكن لكم لتأكلوها، وكلّ دواب الأرض وطير السماء وكلّ ما يتحرك على الأرض فيه نفس حيّة، وكلّ خضرة العُشب ليأكلوه.

ج - وأمّا نسخه لشريعة نوح فلاّنه موسى نفسه حرّم في التوراة من الحيوان أيضاً ما لم يحرمه الله تعالى على موسى وقومه، وذلك لأنّ التوراة تشهد بأنّ الله تعالى قال لنوح: وكلّ دابّة حيّة فهي لكم لئلاّ تكلكم كبشر خضرة العُشب أعطيتكم لتأكلوها، ولكن لا تأكلوا اللحم الذي فيه نفسه دمه فلا تأكلوه! هذا نقول من التوراة، فإذا عرفت ذلك ظهر لك أنّ كلام المصنّف لا شك في فساده.

د - وأزيد فأقول: إنّ موسى نسخ شريعة إبراهيم أيضاً لأنه نسخ فريضة الختان المأخوذة عن إبراهيم حتى في ولديّه. أمّا الولد الواحد فما ختنه بالكليّة، وأمّا الولد الآخر فخنّته أمّه لا عن إذن موسى ولا في اليوم الثامن من ولادته، لكن بعد ستّ سنّات مضت من عمره على ما هو ظاهر من

(١) السيل.

كَلَامِ التَّوْرَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ نَسَخَ هَذِهِ الْفَرِيضَةَ فِي كُلِّ مَوْلُودٍ وَلَدَ فِي الْفَقْرِ، وَمَا نَهَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَسْخِهَا، وَاسْتَمَرَّتْ مُنْسُوخَةً إِلَى حِينٍ جَدَّدَهَا يُوْسَعُ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى بَرَمَانَ. فَقَدْ ظَهَرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فسادُ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ حَيْثُ قَالَ: وَلَمْ يَنْسَخِ الشَّرِيعَةُ الَّتِي أَمَرَ بِهَا الْأُمَمُ.

هـ - وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَلَكِنْ أَكَّدَ الرَّصِيَّةَ بِهَا» فَهِيَ أَوْغَلُ فِي الْفَسَادِ وَأَوْضَحُ بُطْلَانًا. وَلِظَهْوَرِ كَذِبِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْكَلَامِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَزَادَ عَلَيْهَا مَا خَصَّصَ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ» فَهِيَ كَلَامٌ صَحِيحٌ، وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْأُمَمِ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ لِلَّهِ تَعَالَى بِعَاقِبَةِ جُهِدِهِمْ، لِأَنَّهُ أَرَاخَهُمْ مِنْ حَمْلِ أَثْقَالِ الشَّرِيعَةِ الْمُوسَوِيَّةِ، وَأَعْفَاهُمْ مِنَ الدُّخُولِ تَحْتَ اللَّعْنَةِ الَّتِي فِي السِّفْرِ الْخَامِسِ مِنَ التَّوْرَةِ الَّتِي لَا بُدَّ وَأَنْ تَلْزِمَ أَهْلَ الْعِلَّةِ الْيَهُودِيَّةِ، إِذَا خَالَفُوا شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ التَّوْرَةِ وَنَوَاهِيهَا.

و - وَالْمُصَنِّفُ قَدْ شَهِدَ فِي هَذَا الْفَصْلِ بِأَنْ فَرَأَضَ التَّوْرَةَ الرَّائِدَةَ عَلَى فَرَأِضِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ تَخْصُصُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ اللَّعْنَةُ الَّتِي فِي السِّفْرِ الْخَامِسِ مَخْصُوصَةً بِالْمُخَالَفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي لَا تَعْتَقِدُ وَجُوبَ التَّقْيِيدِ بِالشَّرِيعَةِ الْمُوسَوِيَّةِ. وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: لَوْ لَمْ يَكُنْ مُرَادُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَخْصِصُ اللَّعْنَةِ بِالْيَهُودِ الْمُخَالَفِينَ دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ الْمُخَالَفِينَ لِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ لَكَانَ قَدْ جَاءَ بَعَارَةٌ تَشْتَاوِلُ الْيَهُودَ وَغَيْرَهُمْ، لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَحْسَنَ اللَّهُ مَكَافَأَتَهُ عَنِ الْأُمَمِ!

وَحَصَّصَ سِبْطَ لُيَوِي، لَا سِبْطًا هَرُونَ وَنَسْلَهُ، بِفَرَأِضٍ وَتَكَالِيفٍ غَيْرِ لَازِمَةٍ لِسَائِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فَكُلُّ الْأُمَمِ دَاخِلُونَ تَحْتَ التَّكَالِيفِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِ قَبْلَ مُوسَى عَمَّ وَعَلَى لِسَانِهِ أَيْضًا. وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مُكَلَّفُونَ بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ قَبْلَ مُوسَى، وَبِزِيَادَةِ خَصَصَهُمُ اللَّهُ بِهَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُوسَى عَمَّ، تَشْرِيفًا لَهُمْ وَعِزَّةً بِهِمْ.

حاشية ٩

أ - أَمَّا قَوْلُهُ: «وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مُكَلَّفُونَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْأُمَمُ قَبْلَ مُوسَى»، فَقَدْ ظَهَرَ فَسَادُهُ فِي الْحَاشِيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى هَذِهِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَبِزِيَادَةِ خَصَصَهُمُ اللَّهُ بِهَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَشْرِيفًا لَهُمْ» فَلِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ عَلَيْهِ: إِنَّ نِسْبَةَ التَّكَالِيفِ إِلَى نَفُوسِ النَّاسِ كَنِسْبَةِ الْأَدْوِيَةِ إِلَى أَبْدَانِهِمْ. فَكَأَنَّ أَنْ الْبَدَنَ الْقَرِيبَ مِنَ الصِّحَّةِ لَا يَحْتَاجُ مِنَ الْأَدْوِيَةِ إِلَّا إِلَى السَّهْلِ الْيَسِيرِ، فَكَذَا النَّفْسُ الْقَرِيبَةُ إِلَى الْخَيْرِ لَا تَحْتَاجُ مِنَ التَّكَالِيفِ إِلَّا إِلَى الْبَسِيرَةِ السَّهْلَةِ. وَأَمَّا كَثَرَةُ التَّكَالِيفِ فَإِنَّمَا تَحْتَاجُهَا الْأَنْفُسُ الشَّرِيعَةُ الَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنْهَا الْأَخْلَاقُ الرَّدِيَّةُ تَمَكَّنَ الْأَمْرَاضِ الْخَبِيثَةِ مِنَ الْبَدَنِ. فَإِنَّ الطَّبِيبَ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ فِي الْعِلَاجِ إِلَى تَكْثِيرِ الْأَدْوِيَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْقَوِيِّ مِنْهَا دُونَ الضَّعِيفِ. وَعَلَى هَذَا لَا تَكُونُ الزِّيَادَةُ الْمَذْكُورَةُ تَشْرِيفًا لَهُمْ، كَمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ، بَلْ إِنَّمَا تَكُونُ قِيُودًا تَسْتَعْمَلُ عَنْ سُلُوكِ السَّبِيلِ الرَّدِيَّةِ الَّتِي فِي طِبَاعِهِمُ الْعَمَلُ إِلَى سُلُوكِهَا.

ب - فَإِنْ نَازَعَنِي فِي ذَلِكَ مُنَازِعٌ وَقَالَ: إِنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتَهُ غَيْرُ لَازِمٍ لِكَلَامِ الْمُصَنِّفِ فَجَوَابُهُ أَنَّ هَذَا يَلْزِمُ الْمُصَنِّفَ وَسَائِرَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَقَالَتَهُ لَزُومًا لَا خِلَاصَ لَهُمْ مِنْهُ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُصَنِّفَ قَدْ قَالَ فِي جَوَابِ الْأَعْتِرَاضِ الْخَامِسِ مَا حِكَايَتُهُ: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَطْيَاءَ النَّفُوسِ بِإِشَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَيَّامِهِمْ. وَكَأَنَّ

أَنَّ طَيْبَ الْأَبْدَانِ إِنَّمَا يُعَالِجُ الْمَرَضَ الْحَاضِرَ فِي الْبَدَنِ لَا غَيْرَهُ ، فَكَذَا طَيْبُ
النَّفْسِ الَّذِي هُوَ النَّبِيُّ إِنَّمَا يُدَاوِي مَرَضَ نَفْسِ النَّاسِ عَلَى حَسَبِ مَا يَجِدُهُ
فِي زَمَانِهِ .

ج - هذا كلامه بعينه ، فعل هذه القاعدة نقول : لو لم تكن أمراض
نفوس اليهود أكثر من أمراض نفوس الأمم السالفة وأشدّ رداءة ، لما كان
طبيبها - وهو موسى عليه السلام - محتاجاً إلى تكثير الأدوية والمبالغة في
المعالجة إلى حدّ يزيد على كلّ علاج سبق عليه . ومن هذا يظهر فساد قول
المصنّف حيث قال : إن الزيادة تشريف لهم .

واختصر هرون وبنييه زيادة تكاليف عليهم ، تمييزاً لهم عنهم
بزيادة تشريف واختصاص وتفضيل .

وَجَعَلَ مِنَ التَّزَمِّ مِنَ الْأُمَمِ بِمَا كَلَّفَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، كَالسَّبْتِ
وغيره مما يخصهم ، جازياً مجزاهم بحيث ، لو عاد عن التزام ذلك ،
وجب قتله . ولم يجعل لأحد سبيلاً إلى الالتحاق ببني هرون عليهم
السلام ، لا من بني إسرائيل ولا من غيرهم . ومضوا على من سواهم
تفضيلاً كثيراً . وقُصِّلَ الإمام الأعظم منهم ، وهو الذي يمتزلة هرون في
البشر المقدّس ، بزيادة تكاليف وتفضيل على بقية الحاروثيين . فقد
بان حينئذ أن زيادة التكاليف على حسب زيادة التفضيل في الدنيا وفي
الآخرة .

بَلْ قَدْ بَانَ مِنَ الْحَاشِيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى هَذِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ
قَوْلِ الْمُصَنِّفِ ههنا . وأريده قائل : لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ زِيَادَةُ
التكاليف جعلت لهم عشرة عشر تنصاعف أوزارهم بتجاوزها فيشتد بها

عَذَابُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَعُفُوبَتُهُمْ فِي الْآخِرَةِ . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذِهِ الدَّعْوَى قَوْلُ
حَزَقِيَّالَ النَّبِيِّ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى : أَعْطَيْتُ آبَاءَكُمْ وَصَايَا غَيْرَ حَسَنَةٍ وَلَا يَحْيَا بِهَا
مَنْ عَمِلَ بِهَا .

وَجَمِيعٌ مَا وَصَّاهُمُ اللَّهُ بِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ الْأَمِينِ مُوسَى ،
صلوات الله عليه ، هو اعتقاد التوحيد وترك عبادة الأصنام ، وأن لا
يُفْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً ، وأن يتزهدوا عن الشبه والنظير والمعين والمشير ،
وأن يعملوه وحده ويحيوه بكلّ قلوبهم وأنفسهم وجواهرهم ،
ويخافوه ، ويستعينوا به ، ويتوكّلوا عليه ، وأن يعتقدوا أنه العالم
الذي لا يقرب عن علمه شيء ، والقادر على كلّ شيء ، والخالق لكلّ
شيء ، وأنه هو الذي يميت ويحيي ويمرّض ويشفى ، ولا منجى من
قُدْرَتِهِ ، وأنه الأول والآخر ، لا إله آخر سواه . وأمرهم بمكارم
الأخلاق وبالصلاح والصوم .

أ - لَوْ أَنَّ مُوسَى أَمَرَهُمْ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ لَكَانَ
ذَلِكَ مَثْبُوتاً فِي التَّوْرَةِ مِثْلَ مَا هِيَ سَائِرُ الْأَوَامِرِ وَالتَّوَاهِي مَثْبُوتَةٌ فِيهَا . وَلَا
شَكَّ أَنَّ التَّوْرَةَ لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الْحَقِيقِيَّةِ شَيْءٌ أَبَدًا ، لَكِنَّ
فِيهَا مَا ظَاهِرُهُ يُوهِمُ أَنَّهُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَبَاطِنُهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ . فَعِنْدَهُ
قَوْلُ التَّوْرَةِ فِي السِّفْرِ الْحَامِسِ : لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا الرُّبُوفَةَ وَلَا طَعَامًا
لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ، فَأَمَّا مِنَ الْغَرِيبِ كُلِّ . وَأَمَّا مِنْ إِخْوَتِكَ فَلَا
تَأْكُلْ . ومعلوم أن ظاهر هذا الكلام يوهم النهي عن أكل الربو ، وباطنه
يدلّ على الأمر بأكله لقوله : أمّا من الغريب كلّ . وَلَا شَكَّ أَنَّ مَكَارِمَ
الأخلاق تقتضي أن لا يأكل الإنسان الربو ولا من غريب ولا من قريب .

ب - ومن ذلك قولُ التَّوراةِ في السفرِ الخامسِ أيضاً: إِذَا لَقِيتُمْ عَبْدًا فارًّا من سيِّدِهِ فلا تَجْسُوه ولا تَدُلُّوا عَلَيْهِ بَلْ أَجْلِسُوهُ مَعَكُمْ حَيْثُ أَحَبَّ مِنْ قُرَاكُمْ. ومَعْلُومٌ أَنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ الْحَقِيقِيَّةِ تَقْتَضِي أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَسيِّدِهِ وَيُسْتَقْصَى حَالُهَا بِالْحَقِيقِ. فَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ قَدْ فَرَّ من جَوْرِ سيِّدِهِ فَيُجَارَ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَى سيِّدِهِ. وَإِنْ كَانَ قَدْ لَسِبَ جَرِيْمَةً اجْتَرَمَهَا كَسَرَقَةٍ مَالٍ أَوْ قَتَلَ نَفْسٍ أَوْ هَتَكَ عَوْرَةً، فَيُسَلَّمُ إِلَى سيِّدِهِ لِيَسْتَقِيمَ مِنْهُ.

ج - وسَنَقُلُ مِمَّا فِي التَّوراةِ من الْحَثِّ عَلَى سُوءِ الْأَخْلَاقِ مَا يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ، فَنَنْظُرُهُ وَنَنْظُرُ فِيهِ. وَأَمَّا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ فَإِنَّ التَّوراةَ خَالِيَةٌ عَنْ ذِكْرِهِمَا بِالْكَلِمَةِ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلُّ مَنْ تَصَفَّحَهَا.

والصَّدَقَةُ وَالْعَدْلُ وَالْإِنصَافُ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالتَّنْذِرُ، وَإِحْرَامُ الْوَالِدَيْنِ وَالْعُلَمَاءِ، وَإِطَاعَةُ الْوَلَاةِ وَإِكْرَامُهُمْ، وَأَنْ يُحْيُوا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مَا يُحْيُونَهُ لَأَنْفُسِهِمْ.

حاشية ١٢

أَلَيْسَ فِي السَّفَرِ الْخَامِسِ مِنَ التَّوراةِ: هَؤُلَاءِ السَّتَّةُ الْأُمَمُ أَكْثَرُ مِنْكُمْ وَأَشَدُّ. فَإِذَا أَسْلَمَهُمُ اللَّهُ رَبُّكَ يَدْبِتْكَ فَاضْرِبُوهُمْ وَلَا تَرْحَمُوهُمْ. وَفِيهِ أَيْضًا: إِذَا أَرَاكَ اللَّهُ مِنْ أَعْدَائِكَ الَّذِينَ حَوْلَكَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يَهَبُ اللَّهُ لَكَ مِيرَاثًا، فَلَا تَنْسَ عَالِيْقَ وَذِكْرَهُ. فَاغْمُوا ذِكْرَهُمْ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ، فَلَا تَنْسَهُ وَلَا تَغْفُلْ عَنْهُ. وَفِيهِ أَيْضًا: أَبْغِضْ شَانِكَ وَاشِقْ عَلَى أَعْدَائِكَ. وَقَدْ سَلَفَ أَنَّ التَّوراةَ أَمَرَتْ بِأَكْلِ الرُّبُو مِنَ الْغَرِيبِ وَنَهَتْ عَنْ أَكْلِهِ مِنَ الْيَهُودِ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ بَعْكُسُ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ الْقَائِلِ: وَأَنْ يُحْيُوا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مَا يُحْيُونَهُ لَأَنْفُسِهِمْ.

(١) البئنة.

(٢) يحون

وَعَرَّفَهُمْ مَا يَسْلُكُونَهُ مِنْ طَرِيقِ السِّيَاسَاتِ الْمَتَرَلِيَّةِ وَالْمَدْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ. وَنَهَاهُمْ عَنِ الرِّذَالِ وَالْجَوْرِ وَالْقَتْلِ وَالسَّرَقَةِ وَالزَّيْنَاءِ وَتَمَتَّتِي مَالِ الْغَيْرِ. وَأَمَرَهُمْ بِأَشْيَاءَ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَشْيَاءَ لَا تَعْقِلُ لَنْ فَايِدَةَ التَّكْلِيفِ بِهَا.

وَقَدْ حُصِرَتْ أَوَامِرُ التَّوراةِ وَنَوَاهِيهَا الْمُسْتَمِرَّةُ الْوُجُوبِ فِي سِتَّةِ أَثَلَاثَةِ عَشَرَ، وَهِيَ عَدَا مَا أَمَرَ بِهِ وَنُهِيَ عَنْهُ فِيهَا لَا عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ. وَتَقَاصِيلُ ذَلِكَ كَيْلُهُ تَطُولُ. وَقَدْ أَفْرَدْتُ لَهُ كُتُبَ أُخْرَى.

واعتقدت اليهود أن ثواب الطاعة هو الخلود في نعيم الجنة والعالم الآتي، وعقاب المعصية هو العذاب في جهنم من غير خلود لمعتقد هذه الشريعة، وإن كان عاصياً. ولم يبين شيء من ذلك في التوراة شيئاً مصرحاً، للسبب الذي ستذكره، ولكن أخبار الأمم وعلماءهم ونقله شرعيهم نقلوه.

حاشية ١٣

أ - هذا الاعتقاد زيادة على ما في التوراة، لأنها ما ذكرته لا تعريفاً ولا تصريحاً. والبلية التي تعتقد ما ليس في كتابها تكون خارجة عن حكم شارعها وقادحة في تشريعها. والتوراة قد نطقت بأن ثواب الطاعة قوايد دنيوية، وعقاب المعصية آفات دنيوية أيضاً. فعن ذلك قول السفر الخامس: فَإِنْ أَنْتُمْ سَبَعْتُمْ هَذَا الْقَضَاءَ وَحَفِظْتُمُوهُ وَعَمِلْتُمْ بِهِ، فَسَيَحْفَظُ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْبَنِيَّةَ وَالْمِيثَاقَ الَّذِي حَلَفَ لِآبَائِكُمْ، وَيُجِيبَكُمُ وَيُبَارِكُكُمْ عَلَيْكُمْ وَيُكَبِّرُكُمْ وَيُبَارِكُكُمْ ثَمَرَةً بَطْنِكُمْ وَثَمَرَةً أَرْضِكُمْ وَزَرْعَكُمْ وَخَمْرَكُمْ وَذَهَبَكُمْ وَدَرَعِيَّةَ بَقَرِكُمْ وَقَطْعَانَ عَمَلِكُمْ.

ب - وفي أواخر السفر الثالث: إِنْ أَنْتُمْ سَلَكْتُمْ سَبِيلِي وَحَفِظْتُمْ وَصَايَايَ وَعَمَلْتُمْ بِهَا أَدِيمُ أَمْطَارِكُمْ فِي أَوْقَانِهَا وَيَذَلُّ لَكُمْ الْأَرْضُ غِلَاظُهَا

وَتَقَرُّ لَكُمْ الْمَزَارِعُ بَارَاهَا، وَيُذْرِكُ الدَّارِكُ الْقَطَافَ، وَالْقَطَافُ يُذْرِكُ الزَّارِعَ. وَتَأْكُلُونَ خَبِيزًا وَتَشْبَعُونَ وَتَسْكُنُونَ أَرْضَكُمْ مَطْمَئِنِّينَ، وَأَكْثَرُ لَكُمْ السَّلَامَةُ فِي أَرْضِكُمْ وَتَتَأَمَّنُونَ آمِنِينَ وَلَا يَكُونُ مِنْ يُخَفِّفُكُمْ، وَأَصْرُفُ عَنْ أَرْضِكُمْ السِّيَاحَ الضَّارِيَةَ، وَلَا يَكُونُ حَرْبٌ فِي أَرْضِكُمْ وَتَطْرُدُونَ أَعْدَاءَكُمْ وَيَنْصَرِعُونَ قَتْلًا إِذَا جَارَ شَمُوهُمْ، الْحَمْسَةُ مِنْكُمْ يَهْزِمُونَ مِائَةَ وَالْمِائَةُ مِنْكُمْ يَهْزِمُونَ عَشْرَةَ آلَافٍ، وَيَقْبَعُ أَعْدَاؤُكُمْ قَتْلًا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِي الْحَرْبِ، وَأَقْبَلُ إِلَيْكُمْ وَأَكْثَرُكُمْ وَأَتَمُّكُمْ.

ج - ثم زاد على ذَلِكَ أشياء كثيرة من هذا الجنس. وقد جاء في التوراة نفسها كلامٌ طويلٌ^١ في جزاء^٢ الأعمال الرديئة، منه ما هذه حكايته: فإن لم تطيعوني وتسمعون قولي وتعملوا بهدي الوصايا كلها وردلتم سني وكرهتم أحكامي وزهدتم فيها ولم تعملوا بجميع وصاياي وبطلتم كل عهودي، أنا أيضًا أصنع بكم مثل صنعكم وأمر بكم بالبلايا والبرص والبهق المنقشير الذي لا يبرأ والسل.

د - ثم جاء بعد قليل: وَيَهْزِمُكُمْ أَعْدَاؤُكُمْ وَتَنْكَبِرُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَتَسْلُطُ عَلَيْكُمْ شَوَاكُمُ وَيَهْرَبُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَهْزِمَكُمْ أَحَدٌ. ثم قال بعد قليل: وَأَصْبَرُ السَّمَاءُ قُوَّتَكُمْ كَالْحَدِيدِ وَالْأَرْضُ تَحْتَكُمْ مِثْلَ النُّحَاسِ، وَيَقْطَعُ قُوَّتَكُمْ بِالْبَاطِلِ، وَلَا تَعْلُ لَكُمْ أَرْضُكُمْ غَلَاتِهَا وَلَا تُثْمِرُ الشَّجَرُ

١) قتلاً.

٢) كلاماً طويلاً.

٣) جزى.

يَمَارُهَا. وجاءَ أيضًا: وَأَرْسِلُ عَلَيْكُمْ السِّيَاحَ الضَّارِيَةَ فَتَهْلِكُكُمْ وَتُهْلِكُ بَهَائِمَكُمْ وَتَفْشَلُكُمْ وَتَقْتُلُ دَوَابَّكُمْ.

هـ - ثم جاء أيضًا: وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ مِنْكَ أَلْفِي فِي قُلُوبِهِمْ فَرَعَةً فِي أَرْضِ أَعْدَائِهِمْ، وَيَطْرُدُهُمْ صَوْتُ وَرَقَةٍ تَنْحَرِكُ، وَيَهْرَبُونَ مِنْ صَوْتِ الْوَرَقَةِ كَمَا يَهْرَبُونَ مِنَ السِّيفِ. وَيَسْقُطُونَ بِسُرْعَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْلُبَهُمْ أَحَدٌ، وَيَعْتَرِ الْجُلُ بِأَخِيهِ هَارِبًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْلُبَهُ أَحَدٌ.

و - ثم جاء فيها مما هو من هذا القبيل أشياء كثيرة يعرفها من تصفح جميع التوراة. فهذا وأمثاله يدلُّ على أنَّ عقاب المعصية أيضًا دُنْيَوِيٌّ، فَظَهَرَ أَنَّ الْيَهُودِيَّ الَّذِي يَمْتَنِعُ غَيْرَ هَذَا لَمْ يَكُنْ تَابِعًا لِلتَّوْرَةِ.

ز - وليس يخفى على لبيب أنَّ الأخبار لما علموا أنَّ الشريعة الموسوية أعزَّها هذا الأمر المهم الذي لا بد من ذكره في كلِّ شريعة حقَّة، أعني ذكر المعاد والتواب والعقاب الآخرويين، تَبَرَّعُوا تَعْصِبًا لِشَرِيْعَتِهِمْ وَغَفَلُوا عَنْ فَرِيضَةِ التَّهَيُّ عَنْ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ. فإن كانت هذه التوراة هي التي أُنزِلَتْ، فكيف استجاز موسى عليه السلام الإخلال بذكر هذا الأمر الذي هو أهمُّ مَهَمَّاتِ الشَّرَائِعِ الصَّحِيحَةِ، مع أنَّه ذَكَرَ أَشْيَاءَ لَا فَايْدَةَ فِي ذِكْرُهَا مِثْلَ قَوْلِهِ: وَكَانَ نُوحٌ ابْنُ خَمْسٍ مِائَةِ سِتَّةٍ. فَوَلِدَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَبْنَاءَ، سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ، ثُمَّ إِنَّهُ كَرَّرَ ذَلِكَ بَعْدَ كَلَامٍ قَلِيلٍ قَالًا: وَلِدَ لَهُ بَنُونَ ثَلَاثَةٌ، سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ. فَيَا لَيْتَهُ ذَكَرَ الْمَجَازَةَ الْآخِرِيَّةَ^١ وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً.

ح - وإن كانت هذه التوراة غير تلك فمقصية اليهود أعظم. وأنت أيها

١) ثلاث.

٢) لأخروية.

الرَّشِيدُ الْمُتَّصِفُ نَعْلَمُ أَنَّ الْيَهُودِيَّ الَّذِي يَعْتَقِدُ مَا لَيْسَ فِي تَوْرَاتِهِ وَيَجْعَلُهُ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ دِينِهِ، يَكُونُ قَدْ خَرَجَ عَنْ شَرِيعَتِهِ وَبَيَّضَهَا بِالنَّقْصِ، وَخَالَفَ تَوْرَاتَهُ الَّتِي نَهَتْهُ عَنِ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ فِي الشَّرِيعَةِ، وَلَعَنَتْهُ إِنْ زَادَ أَوْ نَقَصَ. وَالْكَلَامُ الَّذِي نَقَلَهُ الْمُصَنِّفُ عَنْ أَخْبَارِ الْيَهُودِ وَنَقَلَهُ شَرْعُهُمْ إِنَّمَا هُوَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَلَيْسَ مِنْ أَصْلِ الشَّرِيعَةِ الْمَوْسَوِيَّةِ. فَإِذَا نَظَرْنَا ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ.

وَذَكَرُوا صِفَةَ الْجَنَّةِ وَجَنَّتِهِمْ، وَوَصَفُوا التَّعِيمَ وَالْعَذَابَ بِأَشَدِّ اسْتِقْصَاءٍ. وَأَوْجِبُوا ذِكْرَ الْإِيمَانِ بِحَيَاةِ الْأَمْوَاتِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، وَحَكَمُوا بِأَنَّهُ لَا تَصِحُّ صَلَاةُ أَحَدٍ فِيهَا بِذَلِكَ: وَأَوْجِبُوا ذِكْرَهُ أَيْضًا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ غَيْرِ الصَّلَاةِ، وَأَوْجِبُوا أَيْضًا عِنْدَ رُؤْيَى مَقَابِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَلَقُوا مَنْ وَجِبَ قَتْلُهُ عِنْدَهُمْ، قَتْلَ قَتْلِهِ، أَوْ يَسْأَلُ أَنْ تَكُونَ قَتْلُهُ بِلَيْكٍ كَقَارَةِ عَنْ ذَنْبِهِ.

وَيُنَهِّمُ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ بَعَثَ الْأَمْوَاتِ يَحْضُلُ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً فِي زَمَنِ الْمَسِيحِ الْمُتَنَظَّرِ عِنْدَهُمْ، وَذَلِكَ الْبَعْثُ مُحْتَصِرٌ بِالصَّالِحِينَ مِنَ الْأُمَّةِ، عَلَى وَجْهِ الْمُعْجِزِ لِلْمَسِيحِ وَكَرَامَةِ لَا لِأُولَئِكَ الصَّالِحِينَ، وَتَارَةً يَبْغِثُ الْمَوْتَى فِي الْقِيَامَةِ الْعَامَّةِ لِكَافَّةِ النَّاسِ، الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ وَالظَّالِمِينَ، لِلْجَزَاءِ بِالْقَوَابِرِ الْأَيْدِي عَلَى الطَّاعَةِ وَبِالْعِقَابِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

حاشية ١٤ جَمِيعُ هَذَا الْكَلَامِ هُوَ مِنَ الْبِدْعِ الَّتِي اخْتَرَعَهَا عُلَمَاءُ الْيَهُودِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَوْ اسْتَحْسَنُوهَا مِنْ أَقَاوِيلِ غَيْرِ الْيَهُودِ. لِأَنَّ التَّوْرَةَ لَيْسَ فِيهَا مِنْ ذَلِكَ

وَلَا لَفْظَةً وَاحِدَةً. فَالَّذِي يَعْتَقِدُ صِحَّةَ هَذَا الْكَلَامِ يَلْزِمُهُ الْقَوْلُ بِأَنَّ الشَّرِيعَةَ مَأْخُذَةٌ عَنْ أَجْبَارِ الْيَهُودِ لَا عَنْ مُوسَى، وَأَنَّ الْيَهُودَ كَافَّةً لَيْسُوا بِتَابِعِينَ لِمُوسَى وَلَا لِلتَّوْرَةِ لَكِنْ لِهَوْلَاءِ الْأَجْبَارِ. وَمَنْ يَلْزِمُهُ هَذَا اللَّامِ غَيْرُ دَاخِلٍ تَحْتَ شَرِيعَةِ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَا مُوسَى وَلَا غَيْرِهِ.

واعتقدوا أيضاً بقاء الأنفس بعد فساد الأجساد وأنها لا تُعَدَّم أَبَداً،
لُورود ذلك في كتب الأنبياء بعد موسى عم، ولنقل أخبارهم وعلمائهم
الصادقين له.

وتبع منهم من زعم أن العالم الآتي هو ما بعد الموت فقط وأن
القوابر الأبدية والعقاب إنما هو للأنفس المجردة بعد خراب
أجسادها، وليس بجسمائين، بل هما روحانيان فحسب. والخصوص
الكثير المتقولة عن علمائهم وحكمة شرعهم ناطقة بالمجازاة بالقوابر
والعقاب، بغير عود الأنفس إلى الأبدان. وهي غير محتوية للتأويل
عند كل عاقل يتأملها جميعها.

واعتقدوا أن هذه الشريعة لا تُنسخ ولا تُبدل بغيرها، لخصوص
كثرة جاعات في التوراة دالة على ذلك، ولتواتر الأمم به، ودعواهم بأنه
معلوم بالضرورة من دين موسى عم.

حاشية ١٥

أ - إن هذا الاعتقاد في غاية الفساد ومما يدل على فساده ما هوذا أنقله
من كلام الأنبياء لئلي إسرائيل عليهم السلام. قال إرميا: هذه أيام تأتي،
قال الرب أعاهد فيها بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهداً جديداً. ليس مثل
العهد الذي عاهدت به آبائهم في اليوم الذي أخذت يأيديهم وأخرجتهم

مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَلَأنَّهُمْ أَبْطَلُوا مِيثَاقِي وَعَهْدِي، وَأَنَا أَيْضًا زَرَيْتُ بِهِمْ قَالِ الرَّبِّ.

ب - وَقَالَ أَشْعِيَا: اسْتَخْرَجُ مِنْ صِهْيُونَ الشَّرِيعَةَ وَكَلِمَةَ الرَّبِّ مِنْ أورشَلِيمَ وَتَحْكُمُ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَتُؤَيِّخُ الْأُمَمَ الْكَثِيرَةَ الَّذِينَ فِي الْبُعْدِ. وَقَالَ مِيخَا: إِنَّمَا تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ مِنْ صِهْيُونَ وَكَلِمَةُ الرَّبِّ مِنْ أورشَلِيمَ وَتَحْكُمُ وَتُؤَيِّخُ الْأُمَمَ الْكَثِيرَةَ الَّذِينَ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ.

ج - هَذَا بَعْضُ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى شَرِيعَةِ الْيَهُودِ لِأنَّهَا أُخِذَتْ مِنْ طُورِ سَيْنَ لَا مِنْ صِهْيُونَ. وَقَالَ أَشْعِيَا: وَبَنُو إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْأَصْنَامَ عَلَيَّ وَعَمِلُوا الْخُبْثَ بَيْنَ يَدَيَّ أَعْجَلُ خَزَائِمَهُمْ وَأَكْفَى الشُّعْبِ الرَّدَى بِسُوءِ عَمَلِهِ الْفَاحِشِ وَتَجِيءُ الشُّعُوبُ كُلُّهَا وَتَقُومُ بَيْنَ يَدَيَّ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الشُّعْبِ الْخَبِيثِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَا يُبَلَى خَزَائِمُهُمْ وَلَا يَنْقُضُهُ إِلَى الدَّهْرِ.

د - وَقَالَ أَيْضًا: يَقُولُ الشُّعُوبُ هَلُمُّوا نَسْطَلِقْ إِلَى طَرِيقِ الرَّبِّ لِأنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَرَكُوا طَرِيقَ اللَّهِ تَعَالَى وَصَارُوا مَقْطُودِينَ. تَعَالَوْا نَسْلُكْ طَرِيقَ الرَّبِّ وَنُؤْمِنَ بِهِ. إلهنا الإله الحق. وَقَالَ حَزَقِيَالُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى: أَعْطَيْتُ آبَاءَكُمْ وَصَايَا غَيْرَ حَسَنَةٍ وَلَا نَحْيًا بِهَا مِنْ عَمَلٍ بِهَا. هَذَا كَلَامُ النَّبِيِّ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِجَوَازِ النَّسْخِ لِأنَّ الْوَصَايَا غَيْرَ الْحَسَنَةِ يَجُوزُ نَسْخُهَا بِالْوَصَايَا الْحَسَنَةِ، بَلْ يَجِبُ نَسْخُهَا بِهَا.

(١) بطلوا

(٢) ينظروا.

(٣) الغير

هـ - هَذَا أُنْمُودَجٌ مِنْ قَوْلِ الْأَنْبِيَاءِ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَفِيهِ كِفَايَةٌ. لَكِنِّي أَزِيدُهُ وَأَقُولُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ: إِنَّ النَّسْخَ لَا يَقَعُ إِلَّا فِي الْفَرَائِضِ السَّمْعِيَّةِ دُونَ غَيْرِهَا. وَالْفَرَائِضُ السَّمْعِيَّةُ هِيَ مِثْلُ تَعْظِيمِ يَوْمٍ دُونَ يَوْمٍ، وَإِجْلَالِ مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ، وَتَحْرِيمِ طَعَامٍ دُونَ طَعَامٍ، وَذَلِكَ لِأنَّهُ يَحْسُنُ مِنَ الْأَمْرِ أَنْ يَأْتِيَ فِي وَقْتٍ مَا يَأْتِي مَصْلَحَةً يُوجِبُهَا ذَلِكَ الْوَقْتُ، وَيَأْمُرُ بِعَدْلٍ ذَلِكَ يَغْيِرُ ذَلِكَ الْأَمْرَ لِمَصْلَحَةٍ أُخْرَى. إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَا إِذَا أَلْزَمْنَا الْيَهُودَ نَسْخَ فَرِيضَةٍ سَمْعِيَّةٍ مِنْ فَرَائِضِ التَّوْرَةِ ثَبَتَ نَسْخُ شَرِيعَتِهِمْ قَطْعًا، لِأنَّ الْكُلَّ يَتَّبِعِي بِأَنْفَاءِ أَحَدٍ أَجْزَائِهِ.

و - وَمَعْلُومٌ أَنَّ فَرِيضَةَ السَّبْتِ فَرِيضَةٌ سَمْعِيَّةٌ وَقَدْ نَسِخَتْ فِي حِصَارِ مَدِينَةِ إِيْرِيحَا لِأنَّ الْكَهَنَةَ طَافُوا حَوْلَهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدَ هَذِهِ السَّبْعَةِ الْأَيَّامِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ يَوْمَ سَبْتٍ بِالضَّرُورَةِ، وَقَدْ عَمِلُوا فِيهِ مِثْلَ مَا عَمِلُوا مِنْ شُعْلِهِمْ فِي السَّبْتِ الْأَيَّامِ الْأُخْرَى، وَهَذَا نَسْخٌ لِفَرِيضَةِ السَّبْتِ. وَأَيْضًا مَا مِنْ مُسَافِرٍ مِنَ الْيَهُودِ كَافَّةً مَعَ الْفَرَائِضِ إِلَّا وَهُوَ يَحُلُّ السَّبْتَ حَتَّى أَجْبَارُهُمْ وَفَقَّهَاهُمْ، وَهَمَّ لَا يَتَحَاشَوْنَ عَنْ ذَلِكَ وَلَا يُنْكِرُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ يُسَافِرُونَ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأنَّهُمْ يَضْطَرُّونَ إِلَى حُلِّ السَّبْتِ حَتْمًا.

ز - وَفَرِيضَةُ الْقُرْبَانِ فِي الْهَيْكَلِ أَيْضًا فَرِيضَةٌ سَمْعِيَّةٌ وَقَدْ نَسَخَهَا إِبْلِيسُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَقْرِيسِ الْقُرْبَانِ فِي غَيْرِ الْهَيْكَلِ وَهَذَا نَسْخٌ لِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ. وَنَسْخُ فَرِيضَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الشَّرِيعَةِ يَسْتَلْزِمُ نَسْخَ بَلْكَ الشَّرِيعَةِ، وَذَلِكَ لِأنَّ الْقَاعِدَةَ الْكَلِمَةَ لَا يَتَنَاضَى شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ تَبْطُلُ بِوُجُودِهِ فِي جُزْئِيٍّ وَاحِدٍ لَهُ.

ولا خفاء أن الشريعة الموسوية تمنع التقريب في غير البيت المعمود منّا كلياً. وإليها النبي عليه السلام أبطل هذه القاعدة بتفريبه في غير البيت، ولم يكن ذلك منه على سبيل العيصان لله، وإلا ما كان قبل قربان منه، فبقي أن يكون على سبيل النسخ.

ح - ومما يدل على النسخ دلالة أوضح من هذه وأبلغ ما نسخه موسى من الفرائض السمعية على ما هو مذكور في التوراة. فإنه قد جاء في السفر الثالث منها: عورة امرأة أخيك لا تستحل^١ فإنها عورة أخيك. ثم جاء فيه بعد ذلك ما أكدوه وهو قوله: ورجل ينكح امرأة أخيه قد ارتكب إنما لأنه كشف عورة أخيه فليموتا ولا يخلفا ولداً^٢، ثم نسخ هذه الفريضة في السفر الخامس حيث قال فيه: وقال الله لموسى قل لبني إسرائيل إذا كان أخوان^٣ فمات أحدهما وليس له ولد فلا تخرج امرأته من بينه، ولينكحها أخوه فإن ولد له ولد فليسمي باسم أخيه الذي مات لئلا يبطل اسمه من بني إسرائيل.

ط - ومما يدل على النسخ أيضاً ما جاء في السفر الثالث من التهي عن الربو مطلقاً، وهذه حكاية كلامه: لا تعط فيصنك بأجر، وبالربو لا تعط طعامك. ثم نسخ ذلك بقوله في السفر الخامس: لا تحل لكم أن تأكلوا الربو فضة ولا طعاماً قليلاً ولا كثيراً، فأما من الغريب كل، وأما من إخوتك فلا تأكل. هذا كلام التوراة. ولا شك أن الأشر يأكل الربو من الغريب ينسخ ما سبق من التهي عنه مطلقاً.

(١) لا تستحل.

(٢) يموتان ولا يخلفا ولد.

(٣) أخوين.

ي - ثم جاء في السفر الرابع ما معناه أن الله تعالى أمر برجم الشخص الذي التقط الحطب في الفقر يوم السبت فرجمه الشعب. ثم نسخ هذا الحكم في السفر الخامس حيث قال: وإذا أذنب رجل^١ ذنباً فليقتل ويصلب على خشبة ولا تيت جسده على الخشبة ولكن يدفن في يومه. ولا شك أن هذا الحكم نسخ أحكاماً كثيرة لأن المفهوم منه هو قتل المذنب مطلقاً، ومعلوم [أن] الذي التقط الحطب مذنب، فكان يجب قتله لا رجمه. وقالع العين أيضاً مذنب فيجب قتله على هذا التقدير لا قلع عينيه كما قيل في موضع آخر من التوراة: العين بالعين، وهذا نسخ ظاهر، ونفس عليه قول التوراة: السن بالسن وغير ذلك.

ك - ثم إن التوراة أمرت بالطلاق مطلقاً في موضع ونهت عنه في موضع آخر مخصوص، فأحد الاثنين لا بد وأن يكون ناسخاً والآخر متسوخاً، فإذا قد ظهر فسأد قول القائل بأن شريعة اليهود لا تنسخ. فإن كاتبني مكابر^٢ وغالطني مغالط وقال إن مرداناً يقولنا لا ننسخ هو أنها لا ننسخ بجملتها أي لا ننسخ كل واحد واحد من فرائضها بأسرها. ولنا ندعي امتناع نسخ بعض فرائضها دون البعض، فجوابه أن النسخ ثابت على تقدير نسخ بعض الفرائض. وقد زعمكم ولا مفر لكم منه.

ل - وأما النسخ على التقدير الذي ذكره المكابر فهو غير معقول لأنه مستتبع الوقوع في كل شريعة حتى في شريعة النصارى التي يعتقده اليهود فسأدها. مع علمهم بأنها قد تضمنت الإقرار بالربوبية وبوجود الملائكة

(١) حلاً.

(٢) مكابراً.

وبقاء الأنفس بعد الموت والمعاد والمجازاة الأخروية وأمرت بالإحسان إلى كل خلق الله بحسب استطاعته وبردع قوة الشهوة والغضب وبير الوالدين وبصبر المظلوم وبمساعدة الضعيف وبما يشاكل ذلك. وهذا وأمثاله لا يجوز نسخ جميعه في شريعة من الشرائع أبد الأبد.

م - ولا يقع النسخ أبداً إلا في الفرائض السمعية لا غير؛ وحيث قد لزم اليهود نسخ بعض فرائض التوراة السمعية، لزمهم نسخ شريعتهم حتماً، لأن العقل السليم يحكم بأن انقضاء البعض يستلزم انقضاء الكل؛ ومثال ذلك أن العشرة إذا انتفى منها واحد انتفت عشرتها قطعاً، والصادق إذا كذب مرة واحدة انتفى صدقه؛ والعفيف إذا زنى مرة واحدة انتفت عفته؛ والفيء إذا سرق مرة واحدة انتفت ثقتة. وأمثال ذلك كثيرة. وإذا قد ثبت نسخ بعض الشريعة الموسوية ثبت بواسطة ذلك نسخها لزوماً، فبطل قول من يحدد نسخها وصح قول من يدعي نسخها.

ن - ومن المحتمل أن يكون موسى عليه السلام قد نبه على نسخ شريعته يسكريته عن ذكر المجازاة الأخروية لعلهم بأن أبواب العقول السليمة لا يخفى عليها أن الأمور الأخروية أشرف من الأمور الدنيوية وأهم منها. فإذا جاءهم من يستميلهم إلى شريعة تضمن ذكر المجازاة الأخروية أجابوه من غير توقف لعلهم بأنها أشرف من المنسوخة، كما أن الآخرة أشرف من الدنيا. هذا ما يتعلق بنسخها.

س - وأما اعتقاد اليهود بأن شريعتهم لا تبدل بغيرها فهو مردود من وجوه كثيرة، منها ما نقله المصنف عن أخبار اليهود ونقله شرعهم من ذكر جزئيات الجنة والنار. وهنا تبديل لا شك فيه لأن النظرة السليمة تشهد أن

المزاد عليه مع الزيادة غير الذي كان قبل تلك الزيادة. وهذا الحكم لا يُنكره من له في الإنسانية نصيب. ومنها ما فعله أنقلوس صاحب اللسان الترجومي، فإنه بدل في التوراة ألفاظاً كثيرة مثل جعله بدل قول التوراة «نزل الله» «تعالى الله». ولا شك أن التجلي غير الثرول، فثبت التبديل لزوماً. وثبت مع ذلك خروج أخبار اليهود ونقله شرعهم عن طاعة التوراة ودخولهم تحت اللعنة المذكورة فيها. أما خروجهم عن طاعتها فليخالفهم قولها حيث نهتهم عن الزيادة والنقصان. وأما دخولهم تحت اللعنة المذكورة فيها فیسبب أنهم زادوا أشياء ونقصوا أشياء.

ع - ولندكر أنموذجاً من الأشياء التي زادوا وبين الأشياء التي نقصوا. أمّا التي زادوا فيها زيادة قولية مثل التي حكاها المصنف عن الأخبار، ومنها زيادة فعلية مثل الأصوام التي جددوها بعد وقائع جرت من بعد موت موسى بزمان طويل، ومثل تحريم المأكيل التي لم تحرمها التوراة عليهم، وذلك مثل تحريم الجمع بين أكل اللحم واللبن في وجبة واحدة حتى ولو كان من لحم الدجاج والعصافير، وهذا غير محرم في التوراة. نعم الذي هو حرام فيها إنما هو طبخ الجدي بلبن أمه لا غير وهذا لا يلزم منه تحريم طبخ اللحم باللبن مطلقاً كما قد فعلوه على سبيل التشريع المؤبد. بل ولا تحريم طبخ الجدي بلبن غير أمه، سواء كان لبن ماعز أو ضأن أو بقرة.

ف - وما قد زادوا أيضاً، فريضة الإفقاد وبالغوا فيها إلى حد [أنهم] أفردوا لها مصنفات. ولا شك أنها غير مذكورة في التوراة، وهم يتمسكون بهذه الفريضة تمسكاً بغوف تمسكهم بفرائض كثيرة من فرائض التوراة

وَلَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُ قَدْ انْطَوَى مِنْ مِلَّةِ الْيَهُودِ، قَبْلَ ائْتِدَاعِ هَذِهِ الْفَرِیضَةِ، أَنْبِیَاءُ وَأَبْرَارٌ وَصَالِحُونَ^١ وَمَا عِنْدَهُمْ بِهَذِهِ الْفَرِیضَةِ عِلْمٌ وَلَا خَطَرَتْ لَهُمْ بِبَالٍ. فَأَمَّا أَنْ هَؤُلَاءِ السَّلَفُ كَانُوا عَلَى ضَلَالٍ أَوْ الْخَلْفُ هُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَهَذِهِ الزِّيَادَاتُ وَأَمْثَالُهَا تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِتَسْخِخِ شَرِيعَتِهِمْ وَتَبْدِيلِهَا بِغَيْرِهَا. وَبِأَنَّهُمْ اسْتَغْفَلُوا نَبِيَّهُمْ عَنْ ذِكْرِهَا. فَذَكَرُوا نَبِيَّاهُ عَنْهُمْ، وَاسْتَنْقَصُوا شَرِيعَتَهُمْ فَتَمَّوْهَا بِهَذِهِ الزِّيَادَاتِ. هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالزِّيَادَةِ.

ص - وَأَمَّا النِّقْصَانُ فَمِنْهُ أَنَّهُمْ أَسْقَطُوا تَرَكَ التِّقَاطِ الْغَلَّاتِ فِي السَّنَةِ السَّابِقَةِ، وَعَقَّنَ الْعَبْدُ أَيْضًا فِي السَّنَةِ السَّابِقَةِ مِنْ اسْتِعْبَادِهِمْ إِيَّاهُ. وَهَذَا، مَعَ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى التَّسْخِخِ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى التَّبْدِيلِ أَيْضًا، لِأَنَّ الْمَجْمُوعَ الَّذِي حُذِفَ بَعْضُهُ غَيْرُ الْمَجْمُوعِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ حَذْفِ ذَلِكَ الْبَعْضِ الْمَحْذُوفِ. فَقَدْ ظَهَرَ لِكُلِّ رَشِيدٍ مُنْقِصٍ أَنَّ الزِّيَادَةَ وَكَذَا النِّقْصَانَ يَدُلُّانِ عَلَى التَّسْخِخِ وَالتَّبْدِيلِ مَعَ دَلَالَةِ الزِّيَادَةِ لَا مَعَرِّمِهَا، فَبَطَلَ مَا تَقَلَّهَ الْمُصَنِّفُ عَنِ الْيَهُودِ وَظَهَرَ فُسَادُ اعْتِقَادِهِمْ بِأَنَّ شَرِيعَتَهُمْ لَا تُنْسَخُ وَلَا تُبَدَّلُ بِغَيْرِهَا.

ق - وَلَقَدْ كَانَ يَجِبُ عَلَى الْيَهُودِ أَنْ لَا يُؤَافِقُوا^٢ فُقَهَاءَهُمْ عَلَى الْبِدْعِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا فِي الشَّرِيعَةِ، لِقَوْلِ إِرْمِيَا النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقَائِلِ عَنْهُمْ مَا حَكَاهُ: لَا تَنْتَهُمْ جَمِيعَهُمْ فَجَارَ جَاعَةُ الْكَذِبِ يَقْدِرُونَ الْكَذِبَ مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ كَالسِّهَامِ مِنَ الْقَوْسِ، وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكَذِبِ وَالزُّورِ وَخَرَجُوا مِنَ الشَّرِّ إِلَى الشَّرِّ وَلَمْ يَعْرِفُونِي يَقُولُ الرَّبُّ.

١) صالحين.

٢) يوافقون.

ر - وَقَالَ أَيْضًا: وَكُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَغْدُرُ بِصَاحِبِهِ وَلَا يَنْطِقُونَ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ عَوَدُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ كَلَامَ الْكَذِبِ. وَقَالَ أَشْعِيَا: يَا شَعْبِي رُؤْسَاؤُكُمْ هُمْ الَّذِينَ أَضَلُّوكُمْ وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ إِلَيْكُمْ وَأَفْسَدُوا طَرِيقَ سَبِيلِكُمْ، وَلَكِنْ سَبَّهَضَ الرَّبُّ لِلْمَحَاكِمَةِ مَعَ مَشَايِخِ شَعْبِهِ.

فَهَذِهِ حِكَايَةُ مَا تَعْتَقِدُهُ الْيَهُودُ فِي نُبُوَّةِ مُوسَى وَمَا جَاءَ بِهِ، عَلَى وَجْهِ الْإِنْجِيلِ. فَمَنْ أَرَادَهُ تَفْصِيلًا فَلْيَنْظُرْ فِي التَّوْرَةِ، وَأَسْفَارِ النُّبُوَاتِ، وَكُتُبِ الْأَخْبَارِ، الْقَدَمَاءِ مِنْهُمْ وَالْمُحَدِّثِينَ. وَهَذَا هُنَا اعْتِرَاضَاتُ سَبْعَةٍ.

الاعتراض الأول

إِنَّ تَوَارِثَ الْيَهُودِ مُنْقَطِعٌ بِوَاقِعَةٍ بِخُتْمِهِ وَغَيْرِهَا، فَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْتُمْ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ، وَلَا مِنْ غَيْرِهَا.

وجوابه

إِنْ هَذِهِ مَكَايِرَةٌ، لِأَنَّ مَنْ يَسْمَعُ أَخْبَارَهُمْ، عَلَى حَدِّسَاتِهِمْ هَا، لَا يَشْكُ فِي أَنَّ هَذِهِ اللَّفَّةَ الْعِبْرَانِيَّةَ الَّتِي لَا يَتَكَلَّمُ بِهَا غَيْرُهُمْ هِيَ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ بِهَا فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِمْ. وَلَا يَشْكُ فِي وُجُودِ مُوسَى وَهَارُونَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ مَشْهُورِي مُلُوكِهِمْ. وَبِحُزْمِ وُجُودِ الْمَشْهُورِينَ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ الَّذِينَ يَتَذَلَّلُونَ بِكَلَامِهِمْ وَفَقْهِهِمْ، بَلْ وَلَا يَشْكُ فِي مُدَّةِ بَقَاةِ الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ سُلَيْمَانُ إِلَى أَنْ خَرِبَ، وَفِي مُدَّةِ بَقَاةِ الْبَيْتِ الَّذِي بُنِيَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَفِي مُلْكِ أَوْلَادِ حُشْمَتَايَ، وَتَحْرِيبِ طَيْطُوسَ

لَبَّيْتُ الْثَانِي، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ تَفَاصِيلِ أَحْوَالِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَفَقْهِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَمْ يَسْأَلُوا مِنْ غَيْرِهِمْ. وَلَوْ كَانَ تَوَاتُرُهُمْ مُتَّفَعًا، لَمَّا جَزَمْنَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا قَتْلُ بَحْتَنَصَّرَ وَغَيْرِهِ لَهُمْ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى انْقِطَاعِ تَوَاتُرِهِمْ. أَلَيْسَ الرُّومُ ظَفِيرُ بِهِمِ الْفُرسُ، وَقَتَلُوا رِجَالَهُمْ وَاسْتَبَاخُوا ذُرَارِيَهُمْ، وَالرُّومُ فِي أَيَّامِ الاسْكَندَرِ جَاؤُوا إِلَى فَارِسَ، وَقَتَلُوا دَارَا مَلِكَهُمْ، وَهَدَمُوا حُصُونَهُمْ، وَأَذْهَبُوا كُتُبَهُمْ. وَالْعَرَبُ غَزَاهُمْ الْحَبَشَةَ، وَقَتَلُوهُمْ وَزَلُّوا بِلَادَهُمْ حَتَّى بَعَثَ مَلِكُ الْفُرسِ مَنْ هَزَمَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ لَمْ يَكُنْ جَمِيعُهُمْ يَبْنِيَنَّ الْمَقْدِسَ حِينَ ظَفِيرُ بِهِمْ فِيهَا بَحْتَنَصَّرَ، وَلَمْ يَقْتُلْ كُلُّ مَنْ فِيهَا.

فَإِنَّ فِي يَرْمِيَا - أَيْ فِي سِفَرِهِ - أَنَّ عَامَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَرَجُوا مُسْتَأْمِنَةً وَقَدْ كَانُوا بَعْدَ ذَلِكَ مُوجِدِينَ فِي بِلَادٍ لَا يُحْصَى عَدَدُهَا وَقَدْ صَحَّتْهُمْ الْبُتُوءُ بَعْدَ ذَلِكَ حُدُودَ مِائَةِ وَعَشْرِ سِنِينَ.

وَأَعْدَاؤُهُمُ الطَّاعِرُونَ فِي دِينِهِمْ يَشْهَدُونَ بِمَا يُنَافِي انْقِطَاعَ تَوَاتُرِهِمْ. فَإِنَّ صَاحِبَ كِتَابِ الْإِسْلَامِ الْيَهُودِ قَالَ فِي كِتَابِهِ الْمَذْكُورِ مَا حِكَايَتُهُ:

وَكَانَتْ الْيَهُودُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ تُسَمِّي فُقَهَاءَهَا بِالْحُكَمَاءِ وَكَانَ لَهُؤُلَاءِ الْفُقَهَاءُ مِنَ الْمَدَارِسِ فِي بَابِلَ وَسُورَا وَالْمَدَائِنِ وَالشَّامِ مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ مِثْلُهُ. وَكَانَ لَهُمْ فِي الْعَصْرِ الْوَاحِدِ الْوَفْ كَثِيرَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَذَلِكَ فِي زَمَانِ دَوْلَةِ النَّبَطِ الْبَابِلِيِّينَ وَالْفُرسِ وَدَوْلَةِ الْيُونَانِ وَدَوْلَةِ الرُّومِ.

إِلَى هَاهُنَا حِكَايَةُ كَلَامِهِ.

وَمَنْ قَدْ كَانَتْ حَالُهُمْ هَذِهِ بَعْدَ وَاقِعَةِ بَحْتَنَصَّرَ، فَكَيْفَ يَكُونُ بَحْتَنَصَّرَ قَدْ قَتَلَهُمْ إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَدَدٌ إِتَوَاتُرًا، ثُمَّ، عَقِبَ وَاقِعَةِ بَحْتَنَصَّرَ، كَانَ لَهُمْ اجْتِمَاعٌ عَظِيمٌ لَا يَشْكُ فِيهِ مَنْ يَسْتَعْمِلُ سِيرَتَهُمْ عَلَى الْحَالِ الَّذِي سَمِعُوهُ. وَكَانَتْ عِزَّةُ الْبَيْتِ الْثَانِي بَعْدَ الْوَاقِعَةِ الْمَذْكُورَةِ بِسِتِينَ سَنَةً. وَكَانُوا حَيِّثُ أُمَّةٌ لَا تُحْصَى. وَمَنْ أَنْصَفَ، وَلَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ الْعِنَادَ، يَعْلَمُ قَلْعًا أَنَّ تَوَاتُرَهُمْ لَيْسَ يَمْتَنِعُ بِالْكَلْبَةِ، وَلَكِنْ بَعْضُ أَحْوَالِهِمْ قَدْ انْقَطَعَ التَّوَاتُرُ بِهِ، لِيُطَوِّلَ الْمُدَّةَ وَلِكُونِهِ لَمْ يَكُنْ مُهْمًا عِنْدَهُمْ، فَلَمْ يَقَعْ الْإِهْتِمَامُ بِهِ كَالْإِهْتِمَامِ بِغَيْرِهِ، فَصَارَ مَرْوِيًّا بِالْأَحَادِ أَوْ نُسَبِي بِالْكَلْبَةِ.

١٦ حَنِيبُ
إِنَّ الَّذِي ادَّعَاهُ الْمُعْتَرِضُ هُوَ انْقِطَاعُ التَّوَاتُرِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ انْقِطَاعُ تَوَاتُرِ كُلِّ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي يَدْعِي الْيَهُودُ التَّوَاتُرَ بِهَا. وَحَيْثُ قَدْ اعْتَرَفَ الْمُصَنِّفُ بِانْقِطَاعِ التَّوَاتُرِ بِبَعْضِ الْأَحْوَالِ صَارَ هَذَا الْاعْتِرَافُ شَهَادَةً عَلَى الْيَهُودِ مَقْبُولَةً عِنْدَهُمْ كَافِيَةً فِي الْحُكْمِ بِانْقِطَاعِ تَوَاتُرِهِمْ. وَلَا سَبِيلَ لِلْمُكَابِرِ إِلَى جَحْدِ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ أَفْصَحَ خَلْقٌ لِلَّهِ لِسَانًا. وَهَذَا فَلَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ.

الاعتراض الثاني

إِنَّا، وَإِنْ سَلَّمْنَا صِحَّةَ أَصْلِ تَوَاتُرِهِمْ، لَكِنَّا لَا نَسَلِّمُ تَوَاتُرَ التَّوَارِقِ، لِأَنَّ حِفْظَهَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ فَرَضًا وَلَا سُنَّةً، بَلْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَارِجِينَ يَحْفَظُ قَصْدًا مِنَ التَّوَارِقِ. فَلَمَّا رَأَى عِزْرَا أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ أَخْرَقَ هَيْكَلَهُمْ وَزَالَتْ دَوْلَتُهُمْ وَتَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ وَرُفِعَ كِتَابُهُمْ، جَمَعَ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ وَمِنْ الْفُصُولِ الَّتِي يَحْفَظُهَا الْكَهَنَةُ مَا لَفَّقَ مِنْهُ هَذِهِ التَّوَارِقَ

التي بأيديهم. وربما يكون قد زاد فيها ونقص بحسب أغراضه. فهي بالتحقيق كتاب عَزَا وَلَيْسَتْ كِتَابَ اللَّهِ.

حاشية ١٧

أ - هذا اعتراض قوي جداً لا نجاة لليهود من التزايير. ومما يدل على صدق دعوى هذا المعتبر أن موسى عليه السلام لا يثبتهم بالجهل المركب الذي هو عدم اعتقاد الحق مع اعتقاد تقيضه، ولا بأنه يتقصّد تضليل أمّة أرسله الله لهدايتها. ولا شك أن التوراة التي بأيدي اليهود فيها أشياء تدل على جهل قائلها وعلى أنه ضال في نفسه وهو مع ذلك سبب ضلال غيره. وذلك مثل وصف الله تعالى بأنه نديم وأنه استراح من تعبِه وأنه خاطب موسى وجهاً لوجه كما يتكلم الرجل مع صاحبه إلى غير ذلك مما سأقل بعضه في هذه الحاشية فأقول:

ب - إن التذمة لا تصح إلا على من لا يعلم عواقب أفعاله حتى إذا آل بعض أفعاله إلى عاقبة وخيمة لم تحطّر ياله قبل وقوعها وأقعته التذمة على ما فعل. ولما كان الله عالماً بجميع الكائنات قبل وقوعها تقدّس عن التذمة وتعالى عن تطرّفها إليه.

ج - وفي التوراة أحكام جائرة مثل قولها عن الله تعالى: إِنِّي أَخَذْتُ الْإِبْنَاءَ بِذُنُوبِ آبَائِهِمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَخْفَابٍ وَأَرْبَعَةٍ. وقد جاء فيها عن شخص اسمه زمري أنه أخطأ في البرية بامرأة فأهلك الله من بني إسرائيل في يوم واحد مئة أربع وعشرين ألف نفر. وهذا جور ظاهر إذ عدّ الله الله

(١) لموسى.

(٢) لوجهه.

(٣) أخطى.

تعالى لا تقتضي هلاك هذا الخلق بدنب شخص واحد وهم لا يشعرون به ولا واقفوه على ذنبه.

د - وفي التوراة اختلافات كثيرة لا يتوهم وقوع مثلها في كلام الله ولا كلام نبي مرسل. فإن في السفر الأول منها: وقرق الله بين الثور والظلمة ودعا الله الثور نهاراً ودعا الظلمة ليلاً. وفي هذا السفر أيضاً ما يخالف هذا الكلام وهو القول عن الشمس والقمر: وليفرزاً بين النهار وبين الليل. وفيه عنها أيضاً: وليميزاً بين الضوء والظلمة. وكان قد سبق القول بأن الله قرق بين الثور والظلمة. وفيه أن الله تعالى قال لآدم: إِنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ، وفيه ما يخالف ذلك وهو عن حواء: فَأَكَلْتَ وَأَعْطَتْ بَعْلَهَا فَأَكَلَ مَعَهَا فَانْشَحَتْ أَبْصَارَهَا وَعَلِمَا أَنَّهَا عُرْيَانَانِ^١. ومعلوم أن آدم ما مات يومئذ لكنه ازداد فيه افتتاح البصر.

هـ - وفيه أن الله تعالى قال لنوح: وَأَرْفَكَ مِيثَاقاً فَادْخُلِ الْفُلْكَ أَنْتَ وَزَوْجَتُكَ وَبَنُوكَ وَنِسَاءُ بَنِكَ مَعَكَ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ مِنْ ذِي اللَّحْمِ أَدْخُلْ مَعَكَ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ فِي الْفُلْكِ لِيُعِيْشُوا ذِكْرًا وَأُنْثَى. وفيه ما يخالف هذا وهو القول لنوح أيضاً: واحمِلْ مَعَكَ مِنْ كُلِّ الدَّوَابِّ الْحَلَالِ سَبْعَةً

(١) افرق

(٢) دعى.

(٣) عرى.

(٤) مراد

(٥) سرك

سَبْعَةً ذَكَورًا وَإِنَاثًا^١. وَالرَّشِيدُ يَعْلَمُ أَنَّ السَّبْعَةَ غَيْرُ الْاِثْنَيْنِ وَالْاِثْنَيْنِ غَيْرُ السَّبْعَةِ وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ غَيْرُ الدَّوَابِّ الْحَلَالِ غَيْرٌ. فَإِنْ كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْمَلُ بِأَحَدِ الْقَوْلَيْنِ يَلْزِمُهُ مُخَالَفَةُ الْآخَرِ وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا لِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا مُسْتَحِيلٌ. وَأَيْضًا فَإِنَّ التَّوْرَةَ مَا جَاءَ فِيهَا تَحْرِيمُ حَيَوَانٍ عَلَى نُوحٍ وَقَوْمِهِ أَصْلًا، فَكَيْفَ قِيلَ هَهُنَا: وَاحْمِلْ مَعَكَ مِنْ كُلِّ الدَّوَابِّ الْحَلَالِ سَبْعَةً ذَكَورًا وَإِنَاثًا^٢؛ وَهَلْ يُحْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى سَهْوٍ عَزَا^٣ وَمِثْلِهِ مَعَ عَادِيَةِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا مِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ. وَفِيهِ: وَدَخَلَ مَعَ نُوحٍ الْفُلْكَ اِثْنَانِ^٤ مِنْ كُلِّ ذِي لَحْمٍ فِيهِ رُوحُ الْحَيَاةِ وَالَّذِي أَدْخَلَ ذَكَورًا وَإِنَاثَةً^٥ مِنْ كُلِّ ذِي لَحْمٍ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ؛ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِمْ بَابَ الْفُلْكِ فَكَانَ الطُّوفَانُ. وَلَا شَكَّ أَنَّ شَهَادَةَ التَّوْرَةِ هَهُنَا لِنُوحٍ بِأَنَّهُ فَعَلَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ مَرْدُودَةٌ بِالْأَمْرِ الْآخِرِ الْقَائِلِ: سَبْعَةً سَبْعَةً. وَ- فِيهِ: فَتَرَى اللَّهُ لِيَنْظُرَ الْقَرْيَةَ وَالْبَرْجَ وَفِيهِ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ حَيْثُ حُكِيَ عَنِ اللَّهِ: هَلُمُّوا بِنَا نَنْزِلُ وَنُقَسِّمُ هُنَاكَ أَلْسِنَتَهُمْ. وَفِيهِ حِكَايَةٌ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَقَادَاهُ مَلَائِكَةُ اللَّهِ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: إِبْرَاهِيمُ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ: هَاءُ تَذَا، فَقَالَ: لَا تَسْبِطْ يَدَكَ عَلَى الْغُلَامِ وَلَا تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا قَبْلَ الْآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ تُحِبُّنِي وَلَمْ تَحْبَلْ بِابْنِكَ وَوَحِيدِكَ عَلَيَّ. فَكَيْفَ يَصْدُقُ

١ (٢) ذَكَورًا وَإِنَاثًا.

٣) أَغْرَا.

٤) اِثْنَيْنِ اِثْنَيْنِ.

٥) ذَكَورًا وَإِنَاثًا.

الْقَوْلُ بِأَنَّ اللَّهَ مَا كَانَ يَعْلَمُ قَبْلَ الْآنَ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ يُحِبُّهُ حَتَّى عَلِمَ ذَلِكَ فِي الْآنَ. وَكَيْفَ يَصْدُقُ أَنَّ اسْحَقَ وَحِيدَ إِبْرَاهِيمَ مَعَ وُجُودِ إِسْمَاعِيلَ^١. نَعَمْ لَوْ قِيلَ وَحِيدٌ سَارَةً لَكَانَ صَادِقًا.

ز - وَفِي السَّفَرِ الثَّانِي: فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: أَمُرْ^٢ هَارُونَ حَتَّى يَأْخُذَ الْعَصَا^٣ وَارْقُعْ يَدَكَ عَلَى مَاءِ الْيَمْرِ يَمِينٍ وَعَلَى أَنْهَارِهِمْ وَعَلَى عُذْرَانِهِمْ وَعَلَى جَمِيعِ مِيَاهِهِمْ وَعَلَى دَوَابِّ مِيَاهِهِمْ فَتَنْحَوِلُ دَمًا فَيَصِيرَ الدَّمُ فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ فِي الْخَشَبِ وَالْحِجَارَةِ. وَفِيهِ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُهُ: فَرَقَعَ هَارُونَ الْعَصَا الَّتِي فِي يَدِهِ فَضَرَبَ بِهَا مَاءَ النَّهْرِ تَجَاهَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عِبِيدِهِ. فَتَنْحَوِلُ جَمِيعُ مَاءِ النَّهْرِ فَصَارَ دَمًا وَمَاتَتِ السَّمَكُ الَّتِي فِي النَّهْرِ، فَتَقَنَّ مَاءَ النَّهْرِ فَلَمْ يَقَارِ أَهْلُ مِصْرَ عَلَى شُرْبِ الْمَاءِ مِنَ النَّهْرِ فَصَارَ الدَّمُ فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ. فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ سَحَرَةُ مِصْرَ بِسِحْرِهِمْ.

ح - وَأَمَّا أَيُّهَا الرَّشِيدُ تَعْلَمُ أَنَّ فِي هَذَيْنِ الْكَلَامَيْنِ اخْتِلَافَاتٍ كَثِيرَةً. فَإِنَّ قَوْلَهُ فِي الْكَلَامِ الْأَوَّلِ: اَرْقُعْ يَدَكَ، يُخَالِفُ قَوْلَهُ فِي الْكَلَامِ الثَّانِي: فَرَقَعَ هَارُونَ الْعَصَا. وَقَوْلُهُ بِصَيْرُورَةِ الدَّمِ فِي الْخَشَبِ وَالْحِجَارَةِ مُمْتَنِعٌ لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْمَاءَ تَحَوَّلَ دَمًا لَا غَيْرَ. وَقَوْلُهُ فَتَقَنَّ مَاءَ النَّهْرِ مَرْدُودٌ بِقَوْلِهِ: انْقَلَبَ دَمًا. وَقَوْلُهُ: فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ السَّحَرَةُ بِسِحْرِهِمْ

١) إِسْمَاعِيلَ.

٢) سَأَلَ.

٣) نَزَلَ.

٤) مَضَاةً.

٥) سَحَرَا.

يُنَاقِضُ قَوْلَهُ السَّابِقَ بَأَنَّ الْمَيَاةَ بِأَسْرِهَا تَحَوَّلَتْ دَمًا لِأَنَّ فِعْلَ السَّحَرَةِ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ شَيْءٍ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى يُحْتَمِلَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ قَدْ تَحَوَّلَ دَمًا. وَحَيْثُ لَا مَاءَ فِي أَيِّ شَيْءٍ ظَهَرَ سِحْرُهُمْ. وَأَيْضًا قَوْلُهُ: فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ سَحَرَهُ مُضَرٌّ بِسِحْرِهِمْ يُدَلُّ عَلَى مُسَاوَاتِهِمْ لِمُوسَى فِي الْمُعْجِزِ، حَاشَاهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَوْلُ التَّوْرَةِ: فَتَنَ مَاءَ النَّهْرِ، مَرْدُودٌ بِقَوْلِهَا بِتَحَوُّلِهَا دَمًا؛ وَمِنْ أَيْنَ كَانَ فِي النَّهْرِ مَاءٌ حَتَّى يَنْتَنَ مَاءٌ.

ط - وَفِيهِ: وَأَكَلُوا سَبْعَةَ أَيَّامٍ فَطِيرًا، وَمِنْ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ فَأَقْبُوا الْحَمِيرَ مِنْ بِيُوتِكُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ مَنْ يَأْكُلُ مِنْكُمْ خَمِيرًا تَبِيدَ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ إِسْرَائِيلَ. ثُمَّ كَرَّرَ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ فَقَالَ: كُلُوا فَطِيرًا فِي الشَّهْرِ مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ حَتَّى وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ إِذَا أَمْسَيْتُمْ، سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَا يُوْجَدُ خَمِيرٌ فِي بِيُوتِكُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ مَنْ يَأْكُلِ الْخَمِيرَ تَهْلِكُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ جَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ثُمَّ جَاءَ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ: فَحَمَلَ الشَّعْبُ عَجَبَتَهُمْ وَلَمْ يَحْتَمِرْ. ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ قَلِيلٍ: وَخَبَرُوا الْعَجِينَ الَّذِي خَرَجُوا بِهِ مِنْ مِصْرَ رَغِيفَ فَطِيرٍ لَمْ يَحْتَمِرْ لِأَنَّ أَهْلَ مِصْرَ أَخْرَجُوهُمْ وَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَخْبِرُوا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقَوْلَ قَدْ تَقَدَّمَ بِإِخْلَاءِ الْبُيُوتِ مِنَ الْخَمِيرِ، وَكَلَامُهُ هَهُنَا يُدَلُّ عَلَى وُجُودِ الْخَمِيرِ فِي الْعَجِينَ، غَيْرَ أَنَّهُ مَا صَارَ فِي الزَّمَانِ مُسْتَحَقًّا إِلَى حَبْنِ الْإِخْتِمَارِ، وَهَذِهِ^١ اخْتِلَافَاتٌ لَا يَخْفَى فُحْشُهَا عَلَى كَلِيبٍ.

ي - ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ: وَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي جَوْفِ الْبَحْرِ فِي الْيَبَسِ

وَكَانَ الْمَاءُ مِثْلَ الْجَبَلَيْنِ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ شِمَالِهِمْ. ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ: وَبَنُو إِسْرَائِيلَ سَارُوا فِي الْبَحْرِ كَمَا نَهَمُ فِي الْيَبَسِ، وَكَانَ الْمَاءُ مِثْلَ الْحَائِطِ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ شِمَالِهِمْ. وَلَا شَكَّ أَنَّ قَوْلَ التَّوْرَةِ: «مِثْلَ الْجَبَلَيْنِ» يُخَالِفُ قَوْلَهَا «مِثْلَ الْحَائِطِ».

ك - ثُمَّ جَاءَ فِيهِ: وَجَاءَ يَثْرُونُ حَمُو مُوسَى بِامْرَأَةِ مُوسَى وَابْنَيْهِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ الَّتِي كَانَ حَلٌّ فِيهَا، إِلَى جَبَلِ اللَّهِ. وَقِيلَ لِمُوسَى أَنْ هُوَذَا يَثْرُونُ قَدْ جَاءَ وَامْرَأَتُكَ وَابْنَاكَ مَعَهُ، فَخَرَجَ مُوسَى يَتَلَقَّى يَثْرُونَ وَسَجَدَ لَهُ وَقَبَّلَهُ. وَكَانَ قَدْ جَاءَ فِي أَوَائِلِ هَذَا السِّفْرِ مَا هَذِهِ حِكَايَتُهُ: وَقَالَ اللَّهُ لِمُوسَى امْضُ رَاجِعًا إِلَى مِصْرَ لِأَنَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَكَ قَدْ هَلَكُوا بِأَجْمَعِهِمْ. فَمَضَى مُوسَى بِامْرَأَتِهِ وَابْنَيْهِ وَحَمَلَهُمْ حَمُوهُ رَاجِعًا إِلَى مِصْرَ وَبِيَدِهِ عَصَا^٢ اللَّهِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مُوسَى قَدْ اسْتَصْحَبَ امْرَأَتَهُ وَوَلَدَيْهِ لَمَّا خَرَجَ مِنْ مِصْرَ، فَكَيْفَ جَاءَ بِهِمْ يَثْرُونُ إِلَيْهِ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ بِهِمْ؟

ل - ثُمَّ جَاءَ فِي أَثْنَاءِ السَّنَنِ الَّتِي بَعْدَ الْعَشْرِ الْكَلِمَاتِ فِي سِتِّهِ الْعِبِيدَ مَا حِكَايَتُهُ: فَلْيَقْبِ سَيِّدُهُ أَذْنَهُ بِالْمِقْبَرِ وَلْيَكُنْ لَهُ عَبْدًا يَعْمَلُ إِلَى الدَّهْرِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَبْدَ وَسَيِّدَهُ يُمَوَّنَانِ عَمَّا قَلِيلٍ فَكَيْفَ يَعْمَلُ إِلَى الدَّهْرِ وَعِنْدَ مَنْ ذَا يَعْمَلُ؟

١) وابنيك.

٢) عصاة.

٣) العشرة.

١) نيبولون.

٢) يثرون.

٣) وهذا.

م - وجاء أيضاً: وإن خدع رجل امرأة عذراء لم تملك فاضجع معها فلما أخذها امرأة. وكان قد سلف القول في أثناء الكلمة السادسة: لا تزلن. وسوف يأتي في ما بعد هذا الكلام، الحكم يقتل الذي يزني. وهذا اختلاف ونسخ معاً.

ن - ثم جاء: ورأى الشعب أن موسى قد تأخر أن يهبط من الجبل، فاجتمع الشعب إلى هرون وقالوا له: قم فاضع لنا إلهة يذهبون أمامنا من أجل أن هذا موسى الذي أخرجنا من مصر، لا ندري ما كان منه. فقال لهم هرون: انزعوا الأقراط التي في آذان نسايتكم وبناتكم وبناتوني بها. فنزع الشعب الأقراط التي في آذان نسايتهم فأتوا بها إلى هرون فأخذها منهم فصبرهم في النار وجعل لهم عجلاً سيبكا فقالوا: هذا إلهك يا إسرائيل، الذي أخرجك من أرض مصر. ثم جاء بعد هذا عن هرون: فقلت لهم من كان له حلي فليأت به، فأتوا به فألقيته في النار فكان هذا العجل. وهذا الكلام فيه خبط واختلاف ظاهر لأن في هذا الفصل الأول قيل إن هرون قال: انزعوا الأقراط الذهب التي في آذان نسايتكم وبناتكم وبناتوني بها. وفي الثاني قيل: فقلت لهم من كان له حلي فليأت به وهذا غير القول الأول. وأيضاً في الأول قيل: وجعل لهم - أي هرون - عجلاً سيبكا. وفي الثاني قيل: فكان هذا العجل. ثم كيف اجتمع الشعب إلى هرون وكيف نهى له سماع كلامه كله مع أنه قد قيل في التوراة إنه يئس على ستائة ألف. وكيف صار عندهم ما شاهدوه من الآيات نسياً متسياً ولم يكن فيهم من العقلاء ولا

عشر عشرهم؟ ثم كيف ساع في عقل هرون طلب الحلي منهم من غير أن يعذرهم على قولهم ويذكرهم بأن الإله لا يجوز أن يكون مصنوعاً؟ س - ثم جاء أيضاً: وكلم الله موسى مقابلة وجهها لوجه، كما يتكلم الرجل مع صاحبه. ثم جاء ما يخالف ذلك وهو قوله تعالى: فاترحم على من أترحم وأتحنن على من أتحنن وأري وجهي لمن أريه وأما أنت فلن تستطيع أن ترى وجهي من أجل أنه لا يرى وجهي بشر فحياً.

ع - ثم جاء: وكانت إذا ارتفعت العمامة من أعلى القبة يرتجل بنو إسرائيل بكل مرتجلهم، وإذا لم ترتفع العمامة لم يرتجلوا. وجاء في السفر الرابع ما يخالف هذا، وهو قوله: يكلمه فم الله تعالى يرتجلون ويكلمه فم الله يحلون.

ف - ثم جاء فيه: فكان عدد كل بني إسرائيل لبست أبسهم من ابن عشرين سنة وما فوق ذلك، كل رجل حامل سلاح سبائة ألف وثلاثة آلاف وخمسة مائة وخمسين رجلاً. وبنو لاوي لبسوا أبائهم لم يعلوا. وهذا يناقض قوله حيث قال: كل بني إسرائيل. ثم جاء فيه بعد ذلك: وكلم الله موسى وقال له لا تعد سبط لاوي. وهذا الكلام فيه نظر من وجهين أحدهما أن العدد قد كان ومضى، والآخر أن سبط لاوي ما دخل في العدد على ما قيل هناك.

ص - ثم جاء فيه عقب الفراغ من ذكر التواريخ: وكلم الله موسى وقال له: اصعد هذا الجبل وهو جبل العبرانيين ثم انظر إلى أرض كنعان التي وهبت لبني إسرائيل فأبصرها ثم الحق بأصحابك كما لحق هرون أخوك. ثم إن موسى تم هذا السفر والسفر الخامس ولم يمت. ثم جاءت

قِصَّةُ مَوْتِ مُوسَى فِي أَوَاخِرِ التَّوْرَةِ بِخِلَافِ هَذَا.

ق - ثم إنه قد جاء في فَرِيضَةِ السَّبْتِ مِنَ التَّلَوُّنِ فِي الْكَلَامِ مَا تَحَارُّ مِنْ اخْتِلَافِهِ الْمُعْتَوَّلُ. فَإِنَّهُ جَاءَ فِي السِّفْرِ الثَّانِي: سَبْتَةُ أَيَّامٍ أَعْمَلَ عَمَلَكَ كُلَّهُ وَالْيَوْمَ السَّابِعَ اسْبِتْ يَرْيَكَ وَلَا تَعْمَلْ فِيهِ أَدْنَى عَمَلٍ أَنْتَ وَابْنُكَ وَبَنُوكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَدَابَّتُكَ وَسَاكِنُكَ الَّذِي فِي قَرْيَتِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ فِي سَبْتِهِ أَيَّامٌ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالبُحُورَ وَمَا فِيهِمْ وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَارَكَ اللَّهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَطَهَّرَهُ. ثُمَّ جَاءَ فِيهِ أَيْضًا بَعْدَ ذَلِكَ: سَبْتَةُ أَيَّامٍ أَعْمَلَ عَمَلَكَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ اسْتَرِجْ لِكَيْ يَسْتَرِجَ نَوْرُكَ وَحِمَارُكَ وَتَسْتَرِجَ أَمَتُكَ وَسَاكِنُ قَرْيَتِكَ. ثُمَّ جَاءَ فِيهِ أَيْضًا: احْفَظُوا السَّبْتَ إِنَّهُ طَهَّرَ لَكُمْ، وَمَنْ حَلَهُ قَلْبُ قَتْلٍ وَمَنْ يَعْمَلْ فِيهِ عَمَلًا فَتَهْلِكْ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَجَبِهَا. اْعْمَلُوا سَبْتَةَ أَيَّامٍ فَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَإِنَّ السَّبْتَ رَاحَةً طَهَّرَ لَكُمْ وَمَنْ يَعْمَلْ يَوْمَ السَّبْتِ قَلْبُ قَتْلٍ قَتْلًا. فَلْيَحْفَظْ بَنُو إِسْرَائِيلَ السَّبْتَ لِلَّهِ لِيُعْطُوا لِعُكُلِهِمْ بَيْتًا إِلَى الدَّهْرِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ فِي سَبْتَةِ أَيَّامٍ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالبُحُورَ وَمَا فِيهِمْ وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ سَكَنَ وَاسْتَرَاحَ.

ر - ثُمَّ جَاءَ أَيْضًا فِيهِ: سَبْتَةُ أَيَّامٍ أَعْمَلَ عَمَلَكَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ اسْتَرِجْ فِي الْمَرْزَعِ وَفِي الْحِصَادِ. ثُمَّ جَاءَ فِيهِ أَيْضًا: فَجَمَعَ مُوسَى جَمَاعَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ كُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي أَوْصَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تَعْمَلَ فِي سَبْتِهِ أَيَّامٌ عَمَلَكَ وَالْيَوْمَ السَّابِعُ يَكُونُ طَهْرُ السَّبْتِ رَاحَةً طَاهِرَةً لِلَّهِ، وَكُلُّ مَنْ يَعْمَلْ فِيهِ عَمَلًا يُقْتَلْ، وَلَا تَقْسُوا نَارًا فِي مَسَاكِنِكُمْ فِي يَوْمٍ

(١) حلها... ومن يعمل فيها.

(٢) عبارة غامضة يغالها في النص الرجمي: فليحافظ بنو إسرائيل على السبت مواظبين.

السَّبْتِ. ثُمَّ جَاءَ فِي السِّفْرِ الثَّالِثِ: سَبْتَةُ أَيَّامٍ أَعْمَلَ الْعَمَلَ وَالْيَوْمَ السَّابِعَ السَّبْتَ رَاحَةً يَكُونُ طَهْرًا لِلَّهِ فِي كُلِّ مَسْكِنِكُمْ. ثُمَّ جَاءَ فِي السِّفْرِ الْخَامِسِ: احْفَظْ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدِّسْهُ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ رَبُّكَ؛ سَبْتَةُ أَيَّامٍ أَعْمَلَ عَمَلَكَ كُلَّهُ وَالْيَوْمَ السَّابِعَ السَّبْتَ لِلَّهِ الْهَيْكَلُ لَا تَعْمَلْ فِيهِ أَدْنَى عَمَلٍ أَنْتَ وَابْنُكَ وَبَنُوكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَنَوْرُكَ وَحِمَارُكَ وَذَوَابَّتُكَ كُلُّهَا وَكُلُّ مَنْ يَسْكُنُ فِي مَسَاكِنِكَ.

ش - فَهَذِهِ سَبْعُ عِبَارَاتٍ فِي فَرِيضَةِ وَاحِدَةٍ وَمَا مِنْ عِبَارَةٍ مِنْهَا إِلَّا وَهِيَ مُخَالَفَةٌ لِلْسَّبْتِ الْبَاقِيَةِ. فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْاِخْتِلَافِ غَيْرُ هَذَا لَكَانَ فِيهِ كِفَايَةً، كَيْفَ وَفِيهَا مَا يَطُولُ الْكَلَامُ فِيهِ إِلَى حَدِّ الْإِسْنَابِ. وَالْعَجَبُ الْعَجِيبُ أَنَّهُ جَاءَ فِي السِّفْرِ الرَّابِعِ مَا حَكَايَتُهُ: وَإِذْ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَجَدُوا رَجُلًا يَوْمَ السَّبْتِ يَلْتَقِطُ حَطَبًا فَجَاوَزُوا بِهِ إِلَى مُوسَى وَهَرُونَ وَجَاعَةً بَنِي إِسْرَائِيلَ فَحَسَبُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ تَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَفْعَلُونَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ لِمُوسَى: قَتَلًا فَاقْتُلُوهُ وَتَرَجَّمُوهُ الْجَمَاعَةَ كُلُّهَا خَارِجًا عَنْ الْمَحَلَّةِ. فَأَخْرَجُوهُ وَرَجَّمُوهُ بِالْحِجَارَةِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى.

ت - هَذَا كَلَامُ التَّوْرَةِ وَفِيهِ أَنْظَرُ أُرِيدَ أَنْ أُنبِئَ عَلَى بَعْضِهَا فَأَقُولُ: أَمَّا قَوْلُهَا فَحَسَبُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ تَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَفْعَلُونَ بِهِ فَهَوَ مَرْدُودٌ بِمَا سَلَفَ فِي السِّفْرِ الثَّانِي مِنَ الْحُكْمِ يَقْتُلُ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلًا فِي يَوْمِ السَّبْتِ: أَمَّا فِي الْعِبَارَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ السَّبْعِ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تَقْلَسُهَا فَمَرَّتَيْنِ وَأَمَّا فِي الْعِبَارَةِ

(١) ويوم.

(٢) للسنة.

(٣) بفعلوا.

الحامية فَمَرَّةً وَاحِدَةً. فَاذَنْ كَيْفَ قِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السِّفْرِ الرَّابِعِ: فَحَبَسُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعِينَ لَهُمْ مَا يَتَّبِعُونَ بِهِ. أَلَيْسَ أَنَّهُ قَدْ مَضَى الْحُكْمُ بِقَتْلِ مَنْ يُحِلُّ السَّبْتَ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنَ السِّفْرِ الثَّانِي.

ث - فهذا الذي نقلناه وأمثاله يدلُّ على صِدْقِ قولِ الْمُعْتَرِضِ أَنَّ التَّوْرَةَ كِتَابُ عَزْرَا وَلَيْسَتْ كِتَابُ اللَّهِ. وَإِنَّمَا نَقَلْتُ مِنْهَا هَذَا الْقَدْرَ نِيَابَةً عَنِ الْمُعْتَرِضِ لِيَتَنَبَّهَ الْقَارِئُ عَلَى مِثْلِ الْمُصْطَفِ مَعَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ تَغَافَلَ عَنِ هَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ الَّتِي فِي التَّوْرَةِ، وَقَالَ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ عَلَى مِلَّةِ النَّصَارَى مَا حَكَايَتُهُ: «وَفِي أَنْجِيلِهِمْ اِخْتِلَافَاتٌ كَثِيرَةٌ وَقَدْ تَعَسَّفَ عَلَاؤُهُمْ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَهُمَا».

خ - هذا كلامُهُ هُنَاكَ. وَلَوْ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ لَكَانَتْ اِخْتِلَافَاتُ الَّتِي فِي التَّوْرَةِ قَدْ أَشْعَلَتْهُ عَنْ مِلَاحَظَةِ اِخْتِلَافَاتِ الْأَنْجِيلِ. وَمَا مَثَلُهُ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَثَلُ أَعْمَى يَعْيبُ أَعْوَرًا وَزَيْنَ يَعْيبُ أَعْرَجَ. ثُمَّ قَائِلُ النَّصَارَى لَهُ أَنْ يَقُولَ: لَيْسَ الْعَجَبُ فِي اِخْتِلَافَاتِ وَقَعَتْ فِي كَلَامِ أَرْبَعَةٍ نَفَرَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِ إِمَامِ النَّصَارَى، بَلْ إِنَّمَا الْعَجَبُ الْعَجَبُ فِي اِخْتِلَافَاتِ وَقَعَتْ فِي كِتَابِ إِمَامِ الْيَهُودِ نَفْسِهِ، مَعَ تَقَرُّرِهِ بِالْكَلامِ فِيهِ عَلَى مَا يَزْعُمُهُ الْيَهُودُ بِأَسْرِهِمْ.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا انْفَرَسَتْ، انْطَسَسَتْ حَقَائِقُ أَخْبَارِهَا وَانْدَرَسَتْ آثَارُهَا بِسَبَبِ تَتَابُعِ الْغَارَاتِ وَالْمُصَافَاتِ وَأَخْرَابِ الْبِلَادِ. وَهَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ اسْتَوَى عَلَيْهَا الْكَلْدَانِيُّونَ وَالْبَابِلِيُّونَ وَالْفَرَسُ وَالْيُونَانُ

وَالنَّصَارَى وَالْإِسْلَامَ. وَمَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ إِلَّا مَنْ قَصَدَهُمْ أَشَدُّ الْقَصْدِ. وَأَشَدُّ عَلَى الْيَهُودِ مِنْ جَمِيعِ هَذِهِ السَّامِكِ مَا تَأَلَّهُمْ مِنْ مُلُوكِهِمُ الْعُصَاةِ، فَإِنَّهُمْ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ وَابْتَنَوْا لَهَا الْبَيْعَ الْعَظِيمَةَ وَالْهَيْكِلَ. وَعَكَفَتْ عَلَى عِبَادَتِهَا الْمُلُوكُ وَمُعَظَمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَتَرَكُوا أَحْكَامَ التَّوْرَةِ وَبَرَعَهَا مَدَّةً طَوِيلَةً وَأَعْصَارًا مُتَّصِلَةً. فَإِذَا كَانَ هَذَا تَوَاتُرَ الْأَقَاتِ عَلَى شِرْعِهِمْ مِنْ قِبَلِ مُلُوكِهِمْ، وَمِنْهُمْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْأَقَاتِ الْمُتَّفَتِكَةِ الَّتِي تَوَاتَرَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ اسْتِثْلَاءِ الْأُمَمِ فِيمَا بَعْدَ وَعِيدِهِمْ، فِي أَخْبَارِ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ، أَنَّهُ أَحْضَرَ إِلَيْهِ سِيفَ التَّوْرَةِ قَدْ وَجَدَ فِي السِّفْرِ الْمُقَدَّسِ، فَقَرَأَ فِيهِ وَأَمَرَ بِعَمَلِ الْمَسْحِ. وَفِي أَخْبَارِ عَزْرَا أَنَّهُ، لَمَّا قَرَأَ التَّوْرَةَ بِمَحْضَرِ الْجَمَاعَةِ وَوَجَدُوا فِيهَا عَمَلَ الظَّلَالِ فِي الْعِيدِ الْمُحْتَضَرِ بِهِ وَتَحْرِيمِ التَّزْوَاجِ بِنِسَاءِ عَمَوْنَ وَمُؤَابَ، عَمِلُوا حَيْثُ بَدَأَ الظَّلَالُ وَطَلَقُوا النِّسَاءَ مِنْ بَنِي عَمَوْنَ وَمُؤَابَ. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّوْرَةَ قَدْ كَانَتْ تُقَرَأُ مِنْهُمْ.

وجوابه

أَنْ يُقَالَ: أَمَا قَوْلُهُمْ لَمْ يَكُنْ حِفْظُ التَّوْرَةِ قَرْضًا وَلَا سَنَةً فَالتَّوْرَةُ الَّتِي بِيَاثِيهِمْ الْآنَ تَطْلُقُ بِخِلَافِهِ، وَكَذَلِكَ كُتِبَ فِيهِمْ.

فَأَنْ قَالُوا إِنَّ هَذِهِ التَّوْرَةَ لَكُنْتُ هِيَ التَّوْرَةُ الْحَقِيقِيَّةُ بَلْ قَدْ حُرِّفَتْ وَبُدِّلَتْ، كَانُوا قَدْ بَيَّنُّوا أَنَّهَا مُبَدَّلَةٌ بِأَنَّهَا مُبَدَّلَةٌ، وَهَوَ لَكُنْ وَدَعَوَى مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ.

أَقْلُ مَا لَهُمْ مِنَ الْحُجَجِ مَا نَقَلْنَاهُ فِي الْحَاشِيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى هَذِهِ نِيَابَةً عَنْهُمْ لَا شَهَادَةَ عَلَى النَّصَارَى بِذَلِكَ، لِأَنَّ النَّصَارَى لَا يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيفَ التَّوْرَةِ بَلْ إِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ نَسْخَهَا.

وَيَتَقَدَّرُ أَنْ لَا يَكُونَ حِفْظُهَا قَرَضًا وَلَا سُنَّةً، فَلَا يَتَدَحُّ ذَلِكَ فِي تَوَاتُرِهَا لِأَنَّهَا كِتَابٌ عَظِيمٌ عِنْدَهُمْ وَعَنْهُ يَأْخُذُونَ شَرْعَهُمْ، فَدَوَاعِيهِمْ تَقْتَضِي حِفْظَهُ وَضَبْطَهُ وَالتَّنَاقُلَ بِهِ، لَا سِيَّمَا وَهُمْ يَتَبَارَكُونَ بِقِرَائَتِهِ وَيَتَعَبَّدُونَ بِتَعْظِيمِهِ.

وَنَحْنُ فَتَجِدُ الْكُتُبَ الَّتِي يَصِفُهَا بَعْضُ النَّاسِ، إِذَا كَانَتْ مِمَّا يَحْسُنُ الظَّنُّ بِهَا وَتَكْثُرُ الْفَائِدَةُ مِنْهَا، تُنْقَلُ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا إِلَى مِثْلِهَا مِنَ السَّبِينِ. فَمَا ظَنُّكَ بِكِتَابٍ يُعْتَدُّ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ.

حاشية ١٩

هذا الاعتقاد الفاسد هو من أكبر الدلائل على إفلاس معتقديه من العقل والفقاعة، وعلى أَنَّ العاقل لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُصَدِّقَهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَقُولُونَ؛ وَكَيْفَ يَكُونُ كَلَامُ اللَّهِ مَا هَذَا حِكَايَةً بَعْضِيهِ: فَقَالَتْ رَاحِلُ لَلِيثَا: هَبِي لِي مِنْهَا أَيْ مِنْ لَمَرَةِ الْبَيْرُوحِ، وَبَيَّتَ يَعْقُوبُ عِنْدَكَ اللَّيْلَةَ يَبْرُوحُ ابْنُكَ. فَلَمَّا جَاءَ يَعْقُوبُ عِنْدَ الْمَسَاءِ مِنْ مَزْرَعَتِهِ خَرَجَتْ لَيْثَا فَتَقَدَّمَتْهُ فَقَالَتْ لَهُ: إِلَيَّ ادْخُلْ فَإِنِّي قَدِ اسْتَأْجَرْتُكَ يَبْرُوحُ ابْنِي، فَبَاتَ عِنْدَهَا حَيِّئًا لَيْلَتَهُ ذَلِكَ وَانْضَجَّ مَعَهَا فَسَمِعَ اللَّهُ مِنْهَا فَحَلَّتْ وَلَدَتْ لِيَعْقُوبَ ابْنًا خَاسِمًا.

وَلَقَدْ صَبَّطَ الْيَهُودُ التَّوْرَةَ، بَلْ وَغَيْرَهَا مِنْ كُتُبِ أَنْبِيَائِهِمْ، صَبْطًا لَمْ يَجِدْهُ لِيَغْيِرْهُمْ فِي كِتَابٍ مِنَ الْكُتُبِ. فَعَدُّوا آيَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ وَحُرُوفَهُ، وَكُلَّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ اللَّغَةِ فِيهِ. وَكَذَا فَعَلُوا فِي كُلِّ سِفَرٍ مِنْهُ وَفِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ ذَلِكَ السِفَرِ، وَحَتَّى كُلَّ كَلِمَةٍ أَوْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ. بَيَّنَّا هَلْ جَاءَ بِمِثْلِهَا أَمْ لَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ جَاءَ بَيَّنَّا عَدَدَ مَا جَاءَ وَفِي أَيْ مَوْضِعٍ وَهَلْ هُوَ فِي وَسْطِ الْآيَةِ أَمْ فِي أَوَّلِهَا أَوْ فِي آخِرِهَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ

الصَّوَابِ الَّتِي يَفْعُ التَّعَجُّبُ مِنْهَا. وَقَدْ أَفْرَدْتُ كُتُبَ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفَةً عِنْدَهُمْ وَرَبَّمَا كُتِبُوا بَعْضُ ذَلِكَ عَلَى حَوَاشِي مَصَاحِفِهِمْ وَذَلِكَ مَشْهُورٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

حاشية ٢٠

مِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ هَهُنَا أَوْ بَعْضُهُ هُوَ مِنْ اخْتِرَاعَاتِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ فَلَا يَجُوزُ تَصْدِيقُهُمْ لَا سِيَّمَا وَقَدْ عَلِمْتُ الَّذِي اسْتَشْهَدْنَا بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كُتَابِهِمْ فِي السَّالِفِ.

وَلَهُمْ فِي كِتَابَةِ التَّوْرَةِ وَغَيْرِهَا أُمُورٌ تَعْبِيدِيَّةٌ لَا يَسْتَقْبِلُونَ فَائِدَتَهَا يَنْقُلُونَهَا خَلْقًا عَنْ سَلَكٍ وَيُوجِبُونَهَا تَعْبُدًا إِلَّا فِيمَا يَكُتُبُ مِنَ الْمَصَاحِفِ لِيَتَلَمَّ الصِّغَارُ أَوْ مَنْ يَجْرِي مَجْرَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَلْتَزِمُونَ بِجَمِيعِ بَلَدِ الْأُمُورِ التَّعْبِيدِيَّةِ فِيهَا كَمَا يَلْتَزِمُونَهُ فِي سِفَرِ التَّوْرَةِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ عَلَى وَجْهِ التَّعْبُدِ فِي مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ عِدَّةٌ يَرَوْنَ مُخَالَفَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فِي الْفُرُوعِ وَلَمْ يَفْعُ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ فِي نَفْسِ التَّوْرَةِ وَكُتُبِ نُبُوَّتِهِمْ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِ مَوَاضِعٍ مِنْهَا، لَا فِي أَلْفَاظِهَا وَتَرْجُمِهَا.

وَذَلِكَ كُلُّهُ مِمَّا يُزِيلُ تَوَهُمَ تَبْدِيلِهَا وَتَحْرِيفِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: التَّوْرَةُ الَّتِي عِنْدَ النَّصَارَى مُخَالَفَةٌ لَهَا، وَالَّتِي عِنْدَ السَّامِرَةِ مُخَالَفَةٌ لِلنَّسَخَتَيْنِ، وَهَذَا يُضِيدُ دَعْوَى مَنْ ادَّعَى التَّبْدِيلَ وَالتَّحْرِيفَ، قُلْنَا: النَّصَارَى لَيْسَتْ التَّوْرَةُ عِنْدَهُمْ بِلُغَةٍ تُتَرِيلُهَا الَّتِي هِيَ الْعِبْرَانِيَّةُ بَلْ تَقُولُهَا إِلَى السُّرْيَانِيَّةِ وَصَارَتْ عِنْدَهُمْ عَلَى نَسَخَتَيْنِ، الْوَاحِدَةُ مِنْهَا مِثْلُ الَّتِي عِنْدَ الْيَهُودِ إِلَّا أَلْفَاظًا اخْتَلَفَ فِي تَفْسِيرِهَا، فَتَقْلَبُهَا النَّاسِلُ إِلَى اللَّغَةِ الْأُخْرَى بِحَسَبِ رَأْيِهِ مِنْهَا، وَالنَّسَخَةُ الْأُخْرَى يُسَمُّونَهَا تَوْرَةَ السَّبِينِ مُخَالَفَ فِي أَلْفَاظٍ قَلِيلٍ يَحْتَلِفُ بِهَا التَّأْرِيخُ

الْمَأْخُودُ مِنَ الْأَعْتَابِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ التَّوْرَةِ وَمَا لَا يَتَّفِقُونَ بِهِ الْمَعْنَى تَقَاوُماً يُعْتَدُّ بِهِ. وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ النَّصَارَى لَا يَتَعَبَّدُونَ بِقِرَاءَةِ التَّوْرَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ الشُّبُوتِ عَلَى حَذَرٍ تَعْبُدُ الْيَهُودُ بِهَا، وَلَا عَلَى مَا يُقَارِبُهُ، فَلِهَذَا وَقَعَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ إِهْمَالُ أَوْ فِي النَّقْلِ إِلَى غَيْرِ لُغَةِ التَّشْرِيلِ، كَمَا يَقَعُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ، بِسَبَبِ إِهْمَالِ السَّامِعِ لِلْمُعَابَلَةِ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالشَّعْثَةُ الَّتِي عِنْدَ السَّامِرَةِ فَكَذَلِكَ أَيْضًا، وَتُخَالِفُ الشَّحْثَيْنِ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ لَأَنَّهُمْ فِي الْأَصْلِ مَا كَانُوا يَتَعَبَّدُونَ بِهَا، ثُمَّ بَعْدَ تَقْلِيمِهَا مِنْ غَيْرِ ضَبْطٍ وَتَحْرِيرٍ رَأَوْا التَّعَبُّدَ بِهَا وَهِيَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ فَاسْتَمَرَّتْ عِنْدَهُمْ كَذَلِكَ.

حاشية ٢١
لَوْ صَحَّ مَا نَقَلَهُ الْمُصَنِّفُ هَهُنَا لَكَانَ مِنْ بَعْدِ أَنْ رَأَوْا التَّعَبُّدَ بِهَا وَالدُّخُولَ تَحْتَ أَحْكَامِهَا طَوْعًا لَا كَرْهًا قَدْ اعْتَمَدُوا عَلَى الشَّعْثَةِ الَّتِي يَأْبُدِي الْيَهُودِ وَالْمُتَوَلِّئَةُ مِنْهَا نُسُخَتُهُمْ وَأَزَالُوا هَذَا الْاِخْتِلَافَ مِنَ الْبَيِّنِ. وَالْوَاقِعُ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَمْتَقِدُوا أَنَّ نُسَخَتَهُمْ هِيَ أَصَحُّ مِنَ الَّتِي يَأْبُدِي الْيَهُودِ لَمَا كَانُوا قَدْ تَعَبَّدُوا لَهَا إِلَّا بَعْدَ التَّصْحِيحِ الْبَالِغِ وَلَيْسَ فَلَيْسَ.

وَالشَّعْثُ الثَّلَاثُ بِالتَّوْرَةِ لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْأَفْظَاظِ الْمُتَخَالِفَةِ الْمَعْنَى مَا يُعْتَدُّ بِهِ وَهُوَ أَقَلُّ مِنَ الْاِخْتِلَافِ الَّذِي يُوجَدُ فِي الْقِرَاءَاتِ السَّعِ لِلْقُرْآنِ وَقِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِيٍّ وَغَيْرِهِمَا بِكَثِيرٍ.

وَمَعَ هَذَا فَفِرَّقَ الْيَهُودُ لَمْ يَتَخَالَفُوا فِي نَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَلَا فِي كُتُبِ الشُّبُوتِ الَّتِي يَأْبُدِيهِمْ

يَلْزِمُ عَلَى ذَلِكَ قَسَادُ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ الَّذِي اعْتَرَفَ فِيهِ بِالْاِخْتِلَافِ بَيْنَ نُسَخَتَيْ السَّامِرَةِ وَالْيَهُودِ، أَوْ أَنَّ يَكُونَ السَّامِرَةُ غَيْرَ يَهُودٍ. وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وَالْمُصَنِّفُ قَدْ اعْتَرَفَ أَنَّ السَّامِرَةَ تَتَعَبَّدُ بِالتَّوْرَةِ، وَكُلُّ مَنْ يَتَعَبَّدُ بِالتَّوْرَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا بِلَا شَكٍّ. فَإِذَا كَانَ كَلَامُ الْمُصَنِّفِ فِيهِ نَقْدًا مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ.

وَمَا فِيهَا مِنْ مُعْجَزَاتٍ مُوسَى عَمَ وَمِنَ الْأَفْظَاظِ التَّشْرِيعِ، فَلَا اِخْتِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَمِ الثَّلَاثِ، أَعْنِي الْيَهُودَ وَالسَّامِرَةَ وَالنَّصَارَى.

وَإِتِّفَاقُ الْيَهُودِ فِي الْبِلَادِ الْمُخْتَلِفَةِ عَلَى قَصْدِ تَغْيِيرِهَا ظَاهِرُ الْاِئْتِمَاعِ عِنْدَ كُلِّ ذِي لُبٍّ. وَلَوْ جَارَ ذَلِكَ، لَمَا وَافَقَهُمُ الْأُمَمُ غَيْرُهُمْ عَلَيْهِ كَالرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالْبَطْنِ وَالْأَرْمَنِ وَالْيُونَانِ وَالْقُسْطِ وَالْهِنْدِ وَالْحَبَشَةِ وَالْعَرَبِ وَالْيُتُوبَةِ وَالذَّبْلَمِ وَالسُّدَيْرِ وَالْحَزَرِ وَالصَّفَالِيَّةِ وَالصِّينِ وَالسُّودُسَ الَّذِينَ تَنْصَرُّوْنَ، لَا سِيَّامًا وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ أُمَّمِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى تَقْتَرِفُ إِلَى مَذَاهِبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمُتَعَادِيَةٍ.

فَإِنْ قَالُوا: تَبَدَّلَتْ قَبْلَ طَهُورِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ وَقَبْلَ انْتِشَارِهَا هَذَا الْاِئْتِمَاعُ، قِيلَ: لَوْ كَانَ كَذَا لَكَانَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ وَالسَّالِحُونَ قَدْ أَخْبَرُوا بِذَلِكَ وَهَبُوا عَنْ قِرَائَتِهَا وَالْاِعْتِدَادِ بِهَا وَالْاِسْتِشْهَادِ بِمَا فِيهَا وَمَا فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِهَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأُمَمَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّ الشُّبُوتَ صَحِيحَتِ أَهْلُ الْبَيْتِ الثَّلَاثِ مُدَّةَ أَرْبَعِينَ عَامًا وَكَانَتْ هَذِهِ التَّوْرَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ جَاءَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ زِيَادَةً عَلَى

(١) يكونوا.

(٢) رغبه.

ثَلَاثَةَ سَنَةٍ. وَكَانَتْ الْيَهُودُ فِي طُولِ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَيْضًا أُمَمًا كَثِيرَةً وَفَرَقًا مُتَعَدِّدَةً.

وَعَزَّرَا الَّذِي يُنْسِبُونَ إِلَيْهِ تَجْدِيدَ التَّوْرَةِ بَعْدَ ذَهَابِهَا كَمَا زَعَمُوا هُوَ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالْتَّفْطِيمِ وَكَثَرَةِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُسْلِمُونَ يُعْزِرُ وَيُدْعُونَ لَهُمْ وَيَقْبِضُ الْيَهُودَ نَبُوئُهُ. وَمَنْ يُخَالِفُ فِي نَبُوئِهِ فَلَا يُخَالِفُ فِي عِظَمِ شَأْنِهِ فِي الدِّينِ وَالْخَيْرِ فَلَا يَتَصَوَّرُ فِي حَقِّهِ أَنْ يَسْتَحِلَّ تَحْرِيفَ كِتَابِ اللَّهِ وَتَبْدِيلَهُ.

حاشية ٢٣

الَّذِي ادَّعَى الْمُعْتَرِضُ هُوَ تَجْدِيدُ التَّوْرَةِ بَعْدَ ذَهَابِهَا لَا تَحْرِيفُهَا وَتَبْدِيلُهَا حَالٌ وَجُودُهَا كَمَا هُوَ مَدْلُولُ كَلَامِ الْمُصَنِّفِ. أَمَّا خَيْرِيَّةُ عَزَّرَا وَدِيَانَتَهُ فَلَوْ سَلَّمَهَا الْمُعْتَرِضُ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً عَلَيْهِ بَلْ حُجَّةً لَهُ، لِأَنَّهُ لَهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ دِيَانَةَ عَزَّرَا وَخَيْرِيَّةَهُ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْبَوَاحِثِ عَلَى تَلْفِيحِ كِتَابِ يَتُوبُ عَنْ الْكِتَابِ الَّذِي ذَهَبَ، إِشْفَاقًا عَلَى الْمِلَّةِ لِئَلَّا تَضْطَرِبَ أُمُورُهُمْ وَتَفْسَدَ مَصَالِحُهُمْ وَتَمِيلَ قُلُوبُهُمْ إِلَى مُتَابَعَةِ بَعْضِ الْأُمَمِ. وَفِي هَذِهِ الْأُمُورِ مِنَ الْمَحْذُورِ أَضَاعُفَ مَا فِي تَلْفِيحِ كِتَابِ تَنْقِصُطُ فِيهِ أُمُورُهُمْ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ رَسُولًا يُجَلِّدُ لَهُمْ شَرِيعَةً تُغْنِيهِمْ عَنْ هَذَا الْكِتَابِ الْمَلْفُوحِ.

وَمَا ذَكَرَهُ مِنْ كَثُورِ مُلُوكِ الْيَهُودِ عَبْدُوا الْأَوْتَانَ وَابْتَنَوْا لَهَا الْبَيْعَ فَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ عَنْ كُفْرٍ بِاللَّهِ نَحْوِ وَلَا بِالتَّوْرَةِ وَلَا بِمُوسَى عَمَّ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ، عَلَى مَا قِيلَ، بِسَبَبِ تَقَلُّبِهِمْ لِمَنَافِعِهَا الْعَاجِلَةِ مِنْ طَرِيقِ الْخَوَاصِّ الَّتِي يَدْعِيهَا أَرْبَابُ الرِّضْدِ وَالطَّلَسَاتِ. وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يُحَافِظُونَ عَلَى وَظَائِفِ الدِّينِ وَأَرْكَانِهِ. وَقَدْ كَانَ فَضْلُهُ الْمُلُوكِ مِنْهُمْ يَهْدِمُونَ تِلْكَ الْبَيْعَ كَيْلًا يُعْظَمُ غَيْرُ الْبَيْتِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ.

حاشية ٢٤ أ - قَوْلُ الْمُصَنِّفِ: فَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ عَنْ كُفْرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، هُوَ تَحَكُّمٌ

وَدَعَا مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ، وَتَعَصَّبُ لِهَوْلَاءِ الْمُلُوكِ الْوَلِيِّينَ، وَتَعَاوَلُ عَنْ قَوْلِ التَّوْرَةِ الْقَائِلَةِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى: إِنِّي أَنَا إِلَهُكَ الرَّبُّ الَّذِي رَفَعْتُكَ مِنْ أَرْضٍ مِصْرَ مِنَ التَّعْبِيدِ، فَلَا يَكُنْ لَكَ إِلَهٌ آخَرُ غَيْرِي وَلَا تَنْصَحْ لَكَ أَدْنَى صَنَمٍ وَلَا أَدْنَى شَيْءٍ لَا فِي السَّمَاءِ قَوْفَكَ وَلَا فِي الْأَرْضِ أَسْفَلَ مِنْكَ أَوْ فِي الْمَاءِ أَسْفَلَ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا تَسْجُدْ لَهُمْ وَلَا تَعْبُدْ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّكَ إِلَهٌ غَيْرُ.

ب - هَذَا كَلَامُ التَّوْرَةِ. فَلَوْ كَانَ الْمُصَنِّفُ يَقْصُدُ الْحَقَّ لَمَا كَانَ أَقَامَ عُدْرَ مَنْ خَالَفَ هَذَا الْكَلَامَ مِنَ الْمُلُوكِ الْمَذْكُورِينَ، وَلَا كَانَ شَهِدَ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُحَافِظُونَ عَلَى الدِّينِ. لَكِنَّهُ لِيَشِدَّ مِثْلَهُ مَعَ الْهَوَى وَكَثَرَةِ مَحَبَّتِهِ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ تَلَطَّفَ لَهُمْ فِي تَمْهِيدِ الْعُدْرِ الَّذِي هُوَ أَقْبَحُ مِنَ الذَّنْبِ فَيَنْسَ الْقَوْمَ وَيَسَّ مِنْ بَعْدُ لَهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ لِأَنَّهُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا عَنْ كُفْرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى.

ج - وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُ أَشْعِيَا النَّبِيِّ الْقَائِلُ: وَبَنُو إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْأَصْنَامَ عَلَيَّ وَعَمِلُوا الْخُبْثَ بَيْنَ يَدَيَّ، أَعْجَلُ خَزَائِمُهُمْ وَأَكَاوِي الشَّعْبِ الرَّدِيِّ سِوَهُ عَمَلِهِ الْفَاحِشِ. وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قِصَّةُ أَحَابَ، فَإِنَّ إِلَهَ النَّبِيِّ لَوْ لَمْ يَتَيَقَّنْ كُفْرَ أَحَابَ لَمَا كَانَ قَدْ سَأَلَ اللَّهَ فِي حَبْسِ الْمَطَرِ طُولَ تِلْكَ الْمُدَّةِ. وَأَمَّا قَوْلُ الْمُصَنِّفِ: وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ عَلَى مَا قِيلَ بِسَبَبِ تَقَلُّبِهِمْ لِمَنَافِعِهَا الْعَاجِلَةِ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، لِأَنَّ الْمَنَافِعَ الْعَاجِلَةَ تَحْصُلُ لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ مِنْ دُونِ ارْتِكَابِ هَذَا الْمَحْذُورِ، عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي التَّوْرَةِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: كَانُوا مَعَ ذَلِكَ يُحَافِظُونَ عَلَى وَظَائِفِ الدِّينِ وَأَرْكَانِهِ،

فَكَذِبُهُ ظَاهِرٌ. نَعَمْ يَجُوزُ أَنَّهُمْ سَكَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِذَلِكَ مُدَارَةً لِلنَّاسِ وَتَسْتَرًا وَتَوْبِيهَا.

وَهَذَا عِنْدَ عَصَاةِ الْمُلُوكِ ذَلِكَ، فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَإِنْ كَانَ فَعَلُهُ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَايِرِ فِي الدِّينِ.

حاشية ٢٥

شَهَادَتُهُ هَهُنَا عَلَى الْمُلُوكِ بِأَنَّهُمْ عَصَاةٌ وَبِأَنَّ الَّذِي فَعَلُوهُ هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَايِرِ فِي الدِّينِ، يُنَافِي بَسْطَهُ عَذْرَهُمْ وَشَهَادَتَهُ لَهُمْ بِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ عَنْ كُفْرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى وَلَا بِالتَّوَرَةِ.

لَيَكُونُ جَمِيعُ الْعِلَلِ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الصُّورَ وَيَدْعُونَ اتِّصَالَ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ بِهَا، وَيَنْتَفِعُونَ الْإِنَّ لَا يَنْتَفِعُونَ مِنْ أَكْثَرِ الْعِلَلِ فِي زَمَانِنَا وَبِلَادِنَا.

حاشية ٢٦

أُظْهِرُ أَنَّ الْمُصَنِّفَ أَرَادَ بِهَذَا الْكَلَامِ تَأْكِيدَ بَسْطِ عَذْرِ الْمُلُوكِ الْوَقْتِيِّينَ وَالظَّاهِرِينَ أَنَّ هَذَا ذَنْبٌ آخَرُ زَائِدٌ عَلَى الذَّنْبِ الْأَوَّلِ. وَكَيْفَ يَجُوزُ لِلْيَهُودِيِّ الْإِقْتِدَاءُ بِغَيْرِ الْيَهُودِ فِي أَمْرِ يُخَالِفُ قَوَاعِدَ مِلَّتِهِ وَيُزَجِّجُ رَأْيَ الْعِلَلِ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا حَدِيثُ السَّيْفِ الَّذِي وَجَدُوهُ فِي الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ فَأَمْرُ الْمَلِكِ بِعَمَلِ الْفِسْحِ فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ التَّوَرَةُ مَوْجُودَةً حَتَّى وَجِئَتْ بِتِلْكَ، وَلَا أَنَّ أَحْكَامَهَا نُسِيتْ.

حاشية ٢٧

إِنَّ الْمُصَنِّفَ قَدْ جَعَلَ الدَّعَاوَى الْمُجَرَّدَةَ وَالتَّحْكُمَاتِ الْبَارِدَةَ دَابَّةً وَدَيْدَنَةً فِي هَذَا الْكِتَابِ بِخِلَافِ الْمَعْمُودِ فِي مُصَنَّفَاتِهِ الْحَكِيمَةِ لِأَنَّهُ تَابَعَ فِيهَا نُهَاهُ وَفِي هَذَا الْكِتَابِ تَابَعَ هَوَاهُ، وَلِذَا سَاءَ بِسَبَبِ هَذَا الْكِتَابِ مَا لَهُ مِنْ

(١) وَتَشْتَبِعُ.
(٢) أَسَاءَ.

بَعْدَ مَا حَسُنَ بِتِلْكَ الْكُتُبِ حَالُهُ. وَمِنْ الظَّاهِرِ أَنَّ كَلَامَهُ هَهُنَا غَيْرُ كَافِرٍ فِي تَسْكِيَتِ الْخَصْمِ، أَمَّا أَوَّلًا فَلَأَنَّهُ دَعَاوَى مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَأَمَّا ثَانِيًا فَلَأَنَّهُ تَقَدَّمَ الْمَلِكُ بِعَمَلِ الْفِسْحِ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى عَدَمِ وُجُودِ التَّوَرَةِ يَوْمَئِذٍ وَنِسْيَانِ أَحْكَامِهَا كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا، وَإِلَّا فَأَيُّ فَائِدَةٍ كَانَتْ فِي تَقَدُّمِ الْمَلِكِ بِعَمَلِ الْفِسْحِ لَوْ لَمْ يَكُنْ عَمَلُهُ مُنْسِيًا؟

وَإِنَّمَا قَالُوا إِنَّهُمْ وَجَدُوا ذَلِكَ السَّيْفَ مُدْرَجًا إِلَى آيَةٍ يَتَطَيَّرُ مِنْهَا الْمَلِكُ وَكَلَّمَا أَدْرَجُوهُ إِلَى غَيْرِهَا وَجَدُوهُ مُدْرَجًا إِلَيْهَا، فَعَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ آيَةٌ وَإِنْدَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. هَكَذَا قِيلَ. وَلَعَلَّ لِقَوْلِكَ تَأْوِيلًا غَيْرَهُ.

وَأَمَّا الَّذِينَ قَرَأُوا عِزْرًا عَلَيْهِمُ التَّوَرَةَ فَتَحَرَّكُوا بِتَطْلِيقِ نِسَائِهِمْ مِنْ بَنِي عَمُونَ وَمَوَابٍ وَعَمَلِ الْمُطَالَةِ فِي الْعِيدِ الَّذِي يَخُصُّهَا، فَهَمَّ بَعْضُ الْأُمَمَةِ بِمَنْ خَالَطَ أُمَّةً أُخْرَى، لَا كُلَّ الْأُمَمَةِ.

فَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَنْبِيَاءُ وَأَوْلِيَاءُ وَعُلَمَاءُ وَخُلُقٌ مِنْ فُضَلَاءِ الْهَارُونِيِّينَ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ سَبِيلِ يَهُوِي وَأَهْلِ الْكَنِيسَةِ الْعُظْمَى النَّاظِلِينَ لِلشَّرِيعَةِ وَالْبَتِينِ يُرْجِعُ إِلَى أَحْكَامِهِمْ وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا.

حاشية ٢٨

إِنَّ الْمُصَنِّفَ قَدْ أَقْبَضَ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِالدَّعَاوَى الْمُجَرَّدَةِ وَالتَّحْكُمَاتِ الْبَارِدَةِ إِلَى حِلِّ صَارَتْ لَهُ مَلَكَةً وَعَادَةً وَإِلَّا فَكَيْفَ جَزَمَ بِأَنَّ الْأَمْرَ الْمَذْكُورَ مَخْصُوصٌ بِبَعْضِ الْأُمَمَةِ دُونَ الْكُلِّ وَمَا الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ؟ وَكَيْفَ نَهَى بِبَعْضِ الْأُمَمَةِ فِي زَمَانِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ مُخَالَطَةَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى وَلَمْ يَرُدُّوهُمْ عَنْ ذَلِكَ لَا بِوَعْظٍ وَتَنْبِيهِ وَلَا بِمُعْجَزٍ وَلَا بِإِنْتِقَامٍ يَوْجِبُهُ مِنَ الْوُجُوهِ. وَكَيْفَ يَسُوغُ فِي الْعَقْلِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ وَالْعُلَمَاءَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْمُصَنِّفُ مَا قَرَأُوا التَّوَرَةَ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَرَأَهَا عَلَيْهِمْ عِزْرًا أَوْ

أَنَّهُمْ قَرَأُوهَا عَلَيْهِمْ فَمَا تَحَرَّكُوا لِتَطْلِقَ نِسَائِهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؟ إِنَّ هَذَا لَا يَنْصَوْرُهُ عَاقِلٌ.

فَهَلْ يَنْصَوْرُ أَنْ هُوَ لَا يَأْسِرُهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ التَّوْرَةَ؟ هَذَا مِنْ أَعْيُنِ الْمُسْتَبْعَدَاتِ فِي بَادِي الرَّأْيِ. وَلَوْ أَقْصَرَ الْمُعْتَرِضُ عَلَى مُجَرَّدِ عَدَمِ تَسْلِيمِ ثَوَائِرِ التَّوْرَةِ قَبْلَ بِنَاءِ الْبَيْتِ الثَّانِي لَكَانَ أَوَّلَى بِهِ.

الاعتراض الثالث

إِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَةِ الَّتِي بِيَدِيهِمْ مَوَاضِعَ كَثِيرَةً تَدُلُّ عَلَى التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ وَصِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا يَسْتَحِيلُ وَصْفُهُ بِهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكُفْرِيَّاتِ وَالْأُمُورِ الَّتِي تَسْتَبْعِدُهَا الْعُقُولُ بَلْ تَمْتَنِعُ مِنْ وُقُوعِهَا فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُتَرَلًّا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى. وَذَلِكَ مِثْلُ الْإِخْبَارِ بِصُعُودِ مُوسَى إِلَى الْحِجْلِ مَعَ مَشَائِخِ أَهْلِيهِ فَأَبْصَرُوا اللَّهَ هُنَاكَ؛ وَمِثْلُ أَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ بِصُورَةِ اللَّهِ؛ وَمِثْلُ أَنَّ نُوْحًا لَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ بَدَأَ بِنَاءَ مَذْبَحٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَاقْرَبَ عَلَيْهِ الْقَرَابِينَ فَاسْتَنْشَقَ اللَّهُ رَائِحَةَ الْقَرَابِ؛ وَأَنَّ اللُّوحَيْنِ مَكْتُوبَانِ بِأَصْبَحِ اللَّهُ؛ وَأَنَّهُمْ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ تَعَالَى التَّكْدِيمَ وَالْقَضْبَ وَالْحَبَّةَ وَالتَّكْلِمَ بِالصَّوْتِ وَالْحَرْفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُتَرَدِّدٌ عَنْهُ.

وجوابه

إِنَّ التَّنْهِيَّ عَنِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ مَذْمُومٌ فِي عِدَّةٍ مِنْ مَوَاضِعَ مِنَ التَّوْرَةِ. وَثَانِي الْكَلِمَاتِ الْعَشْرَ الْمَكْتُوبَةِ عَلَى اللُّوحَيْنِ هُوَ التَّنْهِيُّ عَنِ اتِّخَاذِهِ دُونَ اللَّهِ وَعَنِ الْإِشْرَاقِ بِهِ وَعَنِ التَّمثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّخْيِيلِ.

إِذَا كَانَ التَّنْهِيُّ عَنِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ قَدْ جَاءَ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّوْرَةِ أَوْ

مَوَاضِعَ، وَالتَّشْبِيهُ وَالتَّمثِيلُ قَدْ جَاءَا فِي مَوَاضِعَ آخَرَ أَوْ مَوَاضِعَ آخَرَ، فَقَدْ لَزِمَ مُنَاقَضَةُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّنَاقُضَ لَا يَنْطَرُقُ إِلَى كَلَامِ اللَّهِ وَلَا إِلَى كَلَامِ أَنْبِيَائِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَكَيْفَ الْأَمْرُ؟ فَإِنْ نَازَعَنِي مُنَازِعٌ فِي وُجُودِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ فِي التَّوْرَةِ أَفَحَمَّتْهُ يَقُولُهَا فِي السِّفْرِ الْأَوَّلِ مِنْهَا: فَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ بِصُورَتِهِ وَمِثَالِهِ. وَفِيهِ أَيْضًا: وَسَمِعَا - يَعْنِي آدَمَ وَحَوَّاءَ - صَوْتَ اللَّهِ يَمْشِي فِي الْفِرْدَوْسِ. وَفِيهِ أَيْضًا: وَقَالَ اللَّهُ رَبَّنَا إِنَّ آدَمَ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا يَعْلَمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَفِي التَّوْرَةِ أَيْضًا: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى وَجْهًا لِيُوحِيَ.

وَأَمَّا الشَّيْخُ أَبْصَرُوا اللَّهَ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ، وَإِنْ كَانَ فِي الْيَقِظَةِ، فَهُوَ

عَلَى مِثْلِ مَا يُرَى فِي الْمَنَامِ، لَا بِالْحِسِّ الظَّاهِرِ.

حاشية ٣٠ أ- إِنْ الْمَصْنُوفُ عِنْدَمَا تَعْرِضُ لَهُ لَفَتَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَى عَقْلِهِ، يُسْنِدُ الْكَلَامَ الْمُسْتَحِيلَ إِلَى قَائِلِهِ، يَقُولُ: قَدْ قِيلَ كَذَا وَكَذَا، كَمَا قَالَ فِي أَثْنَاءِ اعْتِزَالِهِ لِلْمُلُوكِ الْوَلِيِّينَ، وَكَأَنَّ قَالَهُ هُنَا. وَلَا شَكَّ أَنَّ كَلَامَهُ هُنَا غَيْرُ كَافٍ فِي دَفْعِ الْإِعْتِرَاضِ لِأَنَّ التَّوْرَةَ أَطْلَقَتْ الْقَوْلَ بِأَنَّ الشَّيْخَ أَبْصَرُوا اللَّهَ وَسَمِعُوا صَوْتَهُ. مَعَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عِبَارَةُ التَّوْرَةِ عِبَارَةً لَا تَحْتَمِلُ هَذِهِ الشُّبْهَةَ وَلَا يَتَوَجَّهَ الطَّعْنُ بِسَبِّهَا.

ب- وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَهُوَ عَلَى مِثْلِ مَا يُرَى فِي الْمَنَامِ، فَهُوَ مُكَابَرَةٌ فِي الْبَدِيهِيَّاتِ وَجَدًا لِلْحِسِّيَّاتِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: لَا بِالْحِسِّ الظَّاهِرِ، فَيُخَالِفُ قَوْلَ التَّوْرَةِ الْقَائِلَةَ بِأَنَّ الشَّيْخَ سَمِعُوا وَوَقَفُوا وَسَمِعُوا وَأَبْصَرُوا.

وَالدَّلَالَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ، حَيْثُ نَهَاَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّوْرَةِ، فِي

موضع آخر غير التشبيه وحذرهم من اعتقادوا، ذكرهم أنهم لم يروا
في ذلك المؤخر شيئا من الصور.

حاشية ٣١

فما قولك في الذي جاء في موضع آخر من التوراة القائلة: وقال الله
لموسى انطلق إلى الشعب فطهرهم اليوم وغدا، فليغتسلوا ثيابهم وليستعدوا
لليوم الثالث من أجل أنه إلى اليوم الثالث يهبط الله ليراه الشعب كلهم
على طور سيناء.

وما ذاك إلا أنه نفى الرؤية الحقيقية بالعين الباصرة.

حاشية ٣٢

لقائل أن يقول: بل وما ذاك إلا لمناقضة بعض كتابكم بعضا. وما
دليلك على دعوائك. وأما دليلي على دعوائي فهو ما سلف ذكره في الحاشية
التي على دعوى من ادعى أن التوراة كتاب عزرا لا كتاب الله.

فتعين أن تكون الرؤية المتيقنة بهذا الموضع لا من ذلك القيل.
وذلك لأن الله تعالى لم يطلع، فوضع نسبة بين الحس الباطن والمعنى
الغیر المتجسم. فجعل لمن حرقه من خلقه عينا باطنة ترى أشياء ويستدل
بالعقل على معاني تلك الأشياء ولبابها. ومن خلقت له تلك العين هو
البصير بالحقيقة. ولعل تلك العين هي القوة المتخيلة مهما خدعت
القوة العقلية فترى صورة عظيمة هائلة تدل على حقائق لا ريب فيها.

وكما تغلر على تحصیل معاني صلاة بمجرى الفكر دون قراءة، ولا عو
مائة مثلا دون نطق، لا سيما إن أردت أن تؤلفها مع أعداد مختلفة،
فكذلك، لولا الحس الذي يضبط النظام العقلي بيئاته

(١) فليستدلو.

(٢) وليستدلو.

وحكايات، لكان لا يضبط. فهكذا يحتمل أن يكون الحال فيما
انتظم لموسى ومشايخ بني إسرائيل من عظمة الرب تعالى بما رأوه من
عظم تلك الصورة المخلوقة لهم وبها وبما اقترن برؤيتها من
الأمر الهائلة. ونحو فكالمعش الذين لا يحتملون إبطار ذلك الثور
فتفتدي البصر القادرين على رؤيته. وما جرب من رؤية الصور،
في المنام وفي اليقظة، على غير حقايقها، يسهل تصور ذلك ويزيل
الاشتباه، وإن كانت النسبة بين الإذراكين بعيدة جدا. وكما أن
الحرف والصوت الدال على كلام الله الذي ليس بحرف ولا صوت
يسمى كلام الله أيضا، فكذلك هذه الصورة التي خلقها الله تعالى ليراها
الأنبياء والأولياء الدالة على عظمته وجلاله، عز وجل، قد سُمي
باسم الإله على وجه المجاز. ولا محذور في ذلك، إذا لم يُعتقد
التشبيها والتشبيها والحلول.

حاشية ٣٣

أ - التوراة قد صرحت بأن القوم رأوا الله، والقوم بأسرهم اعتقدوا
[أنهم] رأوه. وفي طي هذا الاعتقاد انطوى التشبيه والتجسيم والجهل
المركب إن ثبت الذي ذكرتموه. وهكذا تسمية المخلوق باسم الخالق
والخالق بالمخلوق، مع العقلة عن كون هذه التسمية مجازية أم لا.

ب - وهذه الدعاوى ظاهرة لكل سليم الذهن إذا كان من أهل العلم
ولاحظها بعين عقله لا بعين هواه. والعجب من المصنف كيف حكم
هنا بأنه لا محذور في ذلك. فأي محذور أعظم من أن يعتقد القوم في
جسم مخلوق قد أبصره كلهم وسَمِعُوا صَوْتَهُ، أنه هو الخالق، وما جاءهم

(١) هواه.

في التوراة أَنَّهُ مَخْلُوقٌ، فَلَزِمَهُمُ الْاِغْتِقَادُ الْفَاسِدُ لَا مَحَالَةَ وَاسْتَمَرَّتْ مِلَّةُ الْيَهُودِ عَلَيْهِ مُفْتَحِرَةً بِهِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ اللَّيْلِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَلَا تَرَالُ كَذَلِكَ مَا دَامَتْ مُوجُودَةً.

وَقَدْ مَضَى تَقْدِيرُ ذَلِكَ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي أَسْرَارِ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الصُّورِ.

وبهذا ينحلُّ خَلْقُ آدَمَ بِصُورَتِهِ وَعَلَى أَنَّ الصُّورَةَ قَدْ تَطَلَّقَتْ وَلَا يُرَادُ بِهَا الشَّكْلُ وَالتَّخْطِيطُ وَلَعَلَّهَا لَمْ تُوضَعْ لِلذِّكْرِ. وَقَدْ ذَكَرُوا فِي رُؤْيَى اللَّهِ وَخَلْقِ آدَمَ بِصُورَتِهِ تَأْوِيلَاتٍ أُخْرَى لَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِهَا.

وَأَمَّا اسْتِنْفَاعُ فَتَارِ الْفَرَايِضِ فَهُوَ كَيَانِيَّةٌ عَنْ تَقْلِيدِهَا، كَمَا يُقَالُ سَمِعَ اللَّهُ دُعَاءَهُ بِمَعْنَى تَقْبَلْهُ. وَاصْبَحَ اللَّهُ مُسْتَعَارَةً لِقُدْرَتِهِ كَمَا تُسْتَعَارُ الْبِدْ لِلذِّكْرِ فِي لُغَتَي الْعِبْرَانِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ. وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةٌ قَطْعِيَّةٌ مَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ كَيَانِيَّةٌ عَنِ الْبَصِيرَتَيْنِ أَنَّهُمْ لَمَّا ابْتَلَوْا بِمَا ابْتَلَوْا بِهِ قَالُوا اصْبَحَ اللَّهُ هِي.

أ - إِنْ كَانَ قَوْلُ الْمُصَنِّفِ هَهُنَا حَقًّا فَمَا الَّذِي دَعَا الْقَائِلَ إِلَى الْقَوْلِ حَاشِيَةِ ٣٤ بِأَنَّ الْأَلْوَحَ مَكْتُوبَةٌ بِاصْبَحَ اللَّهِ. وَمَا الَّذِي مَنَعَهُ عَنِ الْقَوْلِ بِأَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ، مَعَ أَنَّ فِي هَذَا الْقَوْلِ قَوَائِدَ لَيْسَتْ فِي الْقَوْلِ بِأَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ بِاصْبَحَ اللَّهِ.

ب - فَمِنْ هَذِهِ الْقَوَائِدِ نَجَاةُ النَّاسِ مِنَ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، وَمِنْهَا سَدُّ بَابِ الْاِعْتِرَاضِ عَلَى التَّوْرَةِ، وَمِنْهَا تَرْجِيحُ الْحَقِيقَةِ عَلَى الْمَجَازِ، وَمِنْهَا صِدْقُ قَوْلِ الْقَائِلِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. وَأَمَّا جَعْلُ الْمُصَنِّفِ كَلَامَ أَهْلِ مِصْرَ دَلَالَةً

قَطْعِيَّةً، فَهَوَّ قَبِيحٌ جِدًّا مِنْ مِثْلِهِ، لِأَنَّ أَهْلَ مِصْرَ عِنْدَهُ كَفَرَةٌ وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَى كَلَامِ الْكُفَرَةِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ جِزْيِهِمْ. وَهَلْ يَجْعَلُ كَلَامَ الْكُفَرَةِ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ مَنْ لَهُ عَقْلٌ أَوْ دِينٌ؟ كَلَّا!

ج - وَأَقُولُ أَيْضًا لَوْ كَانَ أَهْلُ مِصْرَ يَعْتَقِدُونَ مَا نَقَلَهُ الْمُصَنِّفُ عَنْهُمْ لَكَانُوا قَدْ انْقَادُوا لِمُوسَى طَائِعِينَ فِي جَمِيعِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، حَتَّى فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ مِنْ مِصْرَ. فَإِنْ ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّ أَهْلَ مِصْرَ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبُصْدِيقِ نُبُوَّةِ مُوسَى وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ قَالُوا: اصْبَحَ اللَّهُ هِي، فَجَوَابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ هَكَذَا لَكَانَتِ التَّوْرَةُ قَدْ قَالَتْ «بَعْضُ الْمِصْرِيِّينَ»، لَكِنَّهَا مَا قَالَتْ كَذَلِكَ. وَالْوَجْهُ الْآخَرُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا لَمَا كَانَ قَدْ مَاتَ أَبْكَارُ أَهْلِ مِصْرَ عَنْ آخِرِهِمْ، لَكِنْ كَانَتْ أَبْكَارُ هَؤُلَاءِ بَاقِيَةً كَأَبْكَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْوَاقِعُ بِخِلَافِ ذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُرَادَهُمْ بِذَلِكَ قُدْرَةُ اللَّهِ. وَمَنْ يَقُولُ مَا يَقُولُهُ النَّاسُ بِنَاءً يُسَمَّى نَادِيًا بِالْجَازِ. وَقَدْ تَطَقَّرَتِ التَّوْرَةُ وَكُتِبَتِ الشُّبُوتُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْبَحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

حاشية ٣٥

إِنَّ هَذَا مُكَابَرَةٌ بِالْعَقَّةِ. أَلَيْسَ فِي السِّفْرِ الْأَوَّلِ مِنَ التَّوْرَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى دِيمَ؟ وَفِي اسْفَارِ الْمُلُوكِ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِشِمُوثِيلَ النَّبِيِّ: إِنِّي أَسَيْفُ عَلَى تَمْلِيكِ لِسَاوُولَ؟ وَفِيهِ أَيْضًا: وَتَنَاسَفَ الرَّبُّ عَلَى تَمْلِيكِ شَاوُولَ. وَأَقُولُ أَيْضًا: لَوْ

(١) كانوا.

(٢) يأنس.

(٣) هي.

(١) غيره.

(٢) دعى.

كَانَتْ التَّوْرَةُ قَدْ اثْبَتَتْ نَدَمَ اللَّهِ تَارَةً وَنَفَثَهُ تَارَةً أُخْرَى ، لَكَانَتْ قَدْ نَاقَصَتْ نَفْسَهَا وَصَارَتْ حُجَّةً لِمَنْ يَدَّعِي تَبْدِيلَهَا ، لِأَنَّ التَّنَاقُضَ لَا يَقَعُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَلَا فِي كَلَامِ أَنْبِيَائِهِ أَجْمَعِينَ .

فَلَا بُدَّ مِنْ حُلِّ التَّدْمِيرِ الْمُنْسَوْبِ إِلَيْهِ عَلَى التَّأْوِيلِ بِمَا قُلْنَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَهْلَكَ اللَّهُ نَحَ الْخَلَائِقَ بِالطُّوفَانِ ، أَخْبِرَ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّهُ يُهْلِكُهُمْ ، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ نَدَمَ عَلَى خَلْقِهِمْ ، تَعْمِيلًا بِمَنْ يَنْدَمُ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ بَسْتَدْرَكَ ذَلِكَ بِتَرْكِهِ فَعِلُوهُ .

حاشية ٣٦

لَوْ سَلَّمْنَا مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ هَهُنَا عَلَى سَبِيلِ الْمُسَامَحَةِ لَهُ ، فَلَا نَسْلِمُ أَنَّ تَأْوِيلَهُ هَذَا يَتِمُّ فِي ذِكْرِ التَّدْمِيرِ مَعَ خَلْقِ اللَّهِ لَادَمَ ، لِأَنَّهُ أَخْبِرَ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُهُ ، وَلَمْ لَا أَبَادَهُ كَمَا أَبَادَ النَّاسَ فِي الطُّوفَانِ ، لَوْ كَانَ تَأْوِيلُ الْمُصَنِّفِ صَادِقًا ؟

وَنَسَبَ الْقَضَبَ إِلَيْهِ لَيْثْلُ ذَلِكَ . فَإِنَّ الْقَضْبَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَشْتَمَّ مِنْ غَضَبِ عَلَيْهِ . فلهذا عَبَّرَ عَنْ اتِّقَاعِهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، بِالْقَضَبِ . وَلَا يَجُلُّ أَنَّ الْمُحِبَّ مِمَّا يَكْثُرُ الْعَيْنَاةُ وَالشَّفَقَةُ عَلَى مَنْ يُحِبُّهُ سَبَبَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ وَشِدَّةُ عَيْنَايِهِ مَحَبَّةٌ ، لَا أَنَّهُ يَفْعَلُ أَعْيَالَ الْقَضْبَانِ وَالْمُحِبِّ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

حاشية ٣٧

إِنَّ هَلْوَى تَحْكُمَاتٍ بَارِدَةً وَاعْتِدَارَاتٍ وَاهِيَةً وَلَا تَتَمَتَّى إِلَّا إِذَا غَضِبْتَ بِالْتَعَصُّبِ وَالْمَيْلِ مَعَ الْهَوَى . لِأَنَّ الْقَضَبَ وَالْمَحَبَّةَ تَابِعَانِ لِلْأَعْيَالِ ، وَلِهَذَا الْأَمْرُ وَضِعَا فِي اللَّغَةِ . وَأَمَّا التَّعَصُّفُ الَّذِي تَعَسَّفَهُ الْمُصَنِّفُ هَهُنَا

فَلَا يُفِيدُهُ شَيْئًا وَلَا يُنْفَعُهُ سَائِرُ مَا يَجْرِي مَجْرَى هَذَا مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا عُلَمَاءُ الْيَهُودِ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ ، كَيْفَ وَالْغَرَضُ الْمُقْصُودُ مِنْ كُتُبِ التَّنْزِيلِ إِنَّمَا هُوَ هِدَايَةُ النَّاسِ لَا صَلَاحُهُمْ . وَمَنْ يَعْدِلُ عَنِ الْأَصْطِلَاحَاتِ اللَّغَوِيَّةِ إِلَى غَيْرِهَا لَا يُسَبِّبُ إِلَى تَوَخُّي هِدَايَةِ السَّامِعِينَ لِأَنَّهُ قَدْ عَدَلَ عَنِ لَفْظٍ وَاضِحٍ يُنْفَعُ إِلَى لَفْظٍ خَفِيَ بِصُرِّ قَضَا عَنْ أَنَّهُ لَا يُنْفَعُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُرْجَحُ عِنْدَهُمُ الْبَاطِلُ عَلَى الْحَقِّ وَالْكَذِبُ عَلَى الصِّدْقِ .

وَأَمَّا كَلَامُهُ بِالصُّوَرِ وَالْحُرُوفِ فَقَدْ عَرَفْتَ الْحَالَ فِيهِ . وَعَلَى يَثُلُ هَذَا هُوَ تَأْوِيلُ كُلِّ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا يُنَاسِبُهُ فِي كُتُبِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ عَلَى مِلَّةِ مُوسَى فِي كُتُبِ الْأَخْبَارِ وَالْعُلَمَاءِ . وَقَدْ صَنَّفَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْيَهُودِ كُتُبًا تُوضِحُ ذَلِكَ وَأَمَّا أَنَّهُ إِضَاحًا أَبْسَطَ مِنْ هَذَا .

الاعتراض الرابع

قَدْ وَرَدَ فِي التَّوْرَةِ الْمَوْجُودَةِ الْآنَ حِكَايَاتٌ تَسْتَعِيدُهَا الْعُقُولُ بَلْ تَشْتَعُ مِنْ وَفُوعِهَا ، يَثُلُ قِصَّةُ آدَمَ وَسَبَبُ خُرُوجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَقِصَّةُ لُوطٍ وَيَهُودَا ، وَحِكَايَاتٌ لَا فَايِدَةَ فِي ذِكْرِهَا ، يَثُلُ قِصَّةُ تَقَرُّعِ الْقَبَائِلِ مِنْ نُوحٍ وَأَسْمَائِهِمْ وَمَوَاضِعِهِمْ ، وَكَذَلِكَ أَوْلَادُ سِيعِيرَ وَوَصَفُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ مَلَكَوْا فِي آدَمَ ، وَعَدَدُ الْمَنَازِلِ فِي سُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ، وَنَحْوِ هَذِهِ . وَوَرَدَ فِيهَا أَيْضًا تَشْرِيعَاتٌ لَا يُفَعَّلُ هَا مَعْنَى مُفِيدٍ ، وَالْعَقْلُ يَأْبَى أَنْ يَصْغُرَ أَمْثَالُ هَذِهِ عَنْ أَحْكَامِ الْحَاكِمِينَ ، عَزَّ سُلْطَانُهُ ، أَوْ أَنَّ يُجِيرَ بِهَا نَبِيٌّ يُخَاطِبُهُ اللَّهُ شِفَاهًا . وَيُوكِّدُ ذَلِكَ مَا فِي آخِرِهَا مِنْ حِكَايَةِ مَوْتِ مُوسَى وَكَيْفِيَّةِ دَفْنِهِ وَكَوْنِ قَبْرِهِ كَمْ يُعْرَفُ . وَهُوَ مِمَّا يَسْتَعِيدُ الْعَقْلُ أَنَّ مُوسَى أَخْبِرَ بِهِ ، وَهُوَ حَيٌّ ، لِيَسْلَى الْمَاضِيَ بِوَحْيِ الْإِلَهِ .

وَجَوَابُهُ

إِنَّا لَا نُسَلِّمُ أَنَّ قِصَّةَ آدَمَ وَلُوطَ وَيَهُودَا مُتَّبِعَةٌ الرَّوْعِ عِنْدَ الْعَقْلِ ،
لَا سِيَّامًا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ . فَإِنَّ الْمَشْهُورَاتِ تَحْتَلِفُ بِحَسَبِ الْأَزْمِنَةِ . وَمَا
يُسْتَبْعَدُ وَقُوعُ بَعْضِهِ فِي زَمَانٍ ، لَا يُسْتَبْعَدُ فِي آخَرٍ .

حاشية ٣٨

عَدَمُ التَّسْلِيمِ لَوُ تَمَثَّى فِي غَيْرِ قِصَّةِ آدَمَ ، فَإِنَّهُ لَا يَتَمَثَّى فِي قِصَّةِ آدَمَ ،
وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَشْهُورَاتِ هِيَ قَضَايَا يَحْكُمُ الْعَقْلُ بِوَاسِطَةِ اغْتِرَافِ النَّاسِ
بِهَا ، وَهِيَ مُسْتَفَادَةٌ مِنْ عَادَاتٍ أَوْ شَرَائِعَ أَوْ آدَابٍ . وَكُلُّ هَذِهِ لَمْ تُوجَدْ فِي
زَمَانِ سُكْنَى آدَمَ الْجَنَّةِ ، بَلْ وَلَا بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْهَا بِزَمَانٍ . فَإِنْ قِيلَ إِنَّ الْمُرَادَ
إِنَّمَا هُوَ الْمَشْهُورَاتُ فِي زَمَانٍ غَيْرِ آدَمَ فَلَنَا هَذَا أَبْعَدُ عَنِ الصَّوَابِ لِأَنَّ الْخَبَرَ
الصَّادِقَ يَبْنِي أَنَّ يَنْقَلِبُ الَّذِي جَرَى بِعَيْنِهِ مِنَ الْوَاقِعَةِ فِي الزَّمَانِ الَّذِي
مَضَى ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَتَقْصَادٍ وَتَخْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ .

وَمَا ادَّعَى فِيهِ مِنَ الْحِكَايَاتِ أَنَّهُ لَا فَايِدَةَ فِي ذِكْرِهِ فَغَيْرُ مُسَلَّمٍ أَنَّهُ
عَدِيمُ الْفَايِدَةِ فِي زَمَنِ زَوَلِ التَّوَرَاةِ أَوْ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ .

أَمَّا الْأَنْسَابُ وَالْقَبَائِلُ فَلَعَلَّهَا ذُكِرَتْ لِئَلَّا يُسْتَبْعَدَ أَنَّ مِنْ نُوحٍ إِلَى
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مَعَ قِصْرِ الْمُدَّةِ بَيْنَهُمَا ، تَفَرَّقَ هَذَا الْعَالَمُ الْعَظِيمُ
فِي الْمَمُورَةِ ، وَيَتَشَكَّلُ فِي ذَلِكَ ، فَأَزِيلُ هَذَا التَّشَكُّلُ بَيْنَتِهِمَا
كُلَّهُمْ وَتَفَارِقُهُمْ . وَذَكَرَ أَسْمَاءَ الْمَشَاهِيرِ مِنْهُمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَمَوَاضِعَ
سُكْنَاهُمْ .

حاشية ٣٩

جَوَابُ الْمُصَنِّفِ هَهُنَا أَبْرَدُ مِنْ حُجَّةِ نَحْوِي . وَمِمَّا يَذْكُرُ عَلَى ضَعْفِهِ بَلْ

عَلَى فَسَادِهِ قَوْلُهُ « فَلَعَلَّهَا ذُكِرَتْ لِئَلَّا يُسْتَبْعَدَ ... » ؛ قُلْنَا : هَبْ أَنَّهُ يُسْتَبْعَدُ
ذَلِكَ وَيُتَشَكَّلُ فِيهِ ، فَأَيُّ مَحْذُورٍ دِينِي يَلْزِمُ مِنْهُ وَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي
الشَّرِيعَةِ .

وَأَمَّا وَصَفُ قَبَائِلِ بَنِي سِيعِيرَ فَلَعَلَّهُ مِنْ أَجْلِ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ اسْتِثْنَالِ
نَسْلِ عَالِقٍ الَّذِي هُوَ ابْنُ أَلِفَازٍ . وَكَانَ عَيْسُو أَخُو يَعْقُوبَ قَدْ صَاغَرَ
أَوْلَادَ سِيعِيرَ وَأَوْلَدَ مِنْهُمْ وَمَلَكَ عَلَيْهِمْ وَاخْتَلَطَ نَسْلُهُ بِنَسْلِهِمْ وَصَارَتْ
بِلَادُ سِيعِيرَ كُلِّهَا ، وَتِلْكَ الْقَبَائِلُ مَتَّسِقَةٌ لِلْقَبِيلِ الْغَالِبِ الَّذِينَ هُمْ بَنُو
عَيْسُو وَبِخَاصَّةِ نَسْلِ عَالِقٍ . فَبَيَّنَ الْكِتَابُ قَبَائِلَهُمْ لِئَلَّا يُقْتَلَ قَبِيلٌ فِي
غِيَارِ قَبِيلٍ آخَرَ . وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَمَلَهُ لِأَسْبَابٍ أُخْرَى خَفِيَتْ عَنَّا الْآنَ ،
فَلَوْ عَلِمْنَاهَا وَعَلِمْنَا النَّوَازِلَ الَّتِي تَرَكْتَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ ، لَكُنْتَيْنِ لَنَا عَلَى
التَّفْصِيلِ عِلَّةٌ كَثِيرٌ مِمَّا ذُكِرَ . وَلَا شَكَّ أَنَّ أَفْعَالَ أَوْلَادِ السُّلُوكِ
الْمَذْكُورِينَ وَمَا جَرَى لَهُمْ قَدْ كَانَتْ مَشْهُورَةً . فَلَعَلَّكُمْ ذَكَرُوا لِلَاغِيَارِ
بِهِمْ .

وَأَمَّا ذِكْرُ مَنَازِلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي وَعِدُوا بِهَا ، فَلَعَلَّهُ
لِتَشْيِيتِ الْمُعْجَزَةِ فِي إِقَامَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرِّ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَوُجُودِ الْمَرْ
فِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ .

حاشية ٤٠

الْإِقَامَةُ فِي الْبَرِّ وَكَذَا وَجُودُ الْمَرْ فِيهِ قَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ وَلَا تَعْلُقُ لَهُ بِذِكْرِ
الْمَنَازِلِ . وَقَوْلُ الْمُصَنِّفِ « لَعَلَّهُ لِتَشْيِيتِ الْمُعْجَزَةِ » فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ عَلَى شَكْلِ
مِنْ كُلِّ كَلَامٍ تَقَرَّرَ مَعَهُ هَذِهِ اللَّفْظَةُ ، أَعْنِي لَفْظَةَ « لَعَلَّهُ » . وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ
الْأَجْرِبَةَ الضَّعِيفَةَ مَعَ تَنْبِيْهِهِ عَلَى ضَعْفِهَا بِلَفْظَةِ « لَعَلَّهُ » مُتَابَعَةً لِرِضَا خَوَاطِرِ أَهْلِ
مِلَّتِهِ وَإِهْمَامًا لَهُمْ أَنَّهُ قَدْ أَسْكَتَ الطَّاعِنِينَ فِي دِينِهِمْ .

وهو يَرُبُّ عَيْدُ جِدًّا عَنِ الْعِمَارَةِ ، لَا مَاءَ فِيهِ وَلَا زَرْعٌ ، وَفِيهِ الْحَيَاتُ
وَالْحَشَرَاتُ الْمَوْتِيَّةُ ، وَلَمْ يَأْكُلُوا فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ خَبِيرًا . وَهَذِهِ مُعْجَزَاتُ
بَيْتَةِ مُرْيُونَةَ .

حاشية ٤١ أ - هَذَا مَرْدُودٌ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ حِكَايَةً عَنْ يَثْرُونَ عِنْدَمَا جَاءَ بِأَوَّلَادِ
مُوسَى إِلَيْهِ ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَسْتَسَيِّبَ مِنَ الشَّعْبِ رَجُلًا يَحْكُمُونَ نِيَابَةً عَنْهُ ،
وَتَرْفَعُهَا لَهُ . ثُمَّ إِنَّ يَثْرُونَ ارْتَحَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى حَيْثُ كَانَ . فَلَوْ كَانَ الْبَرُّ بَعِيدًا
جِدًّا لَكَانَ يَثْرُونَ فِي مَجِيئِهِ وَذَهَابِهِ قَدْ افْتَقَرَ إِلَى جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ يَصْحَبُهَا فِي هَذِهِ
الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ كَمَا هُوَ مَعْهُودٌ مِنَ الْمَسَافِرِينَ فِي الدُّرُوبِ الْبَعِيدَةِ .

ب - وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَلَمْ يَأْكُلُوا فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ خَبِيرًا ، فَهُوَ مَرْدُودٌ يَقُولُ
التَّوْرَةُ الْقَائِلَةَ إِنَّ فِي أَيَّامِ تَجْدِيدِ الْمَدِينِ كَانَ مِنْ جُمْلَةٍ مَا قَرَّبَهُ عَظَمَاءُ بَنِي
إِسْرَائِيلَ اثْنَا عَشَرَ مُورًا^١ وَاثْنَا عَشَرَ كَبْشًا^٢ وَاثْنَا عَشَرَ حَمَلًا^٣ حَوْلِيًا^٤
وَسَمِيدًا^٥ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِمْرَةَ قَدْ كَانَتْ تَأْتِي إِلَيْهِمْ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي
جَاءَ فِيهِ يَثْرُونَ أَوْ فِي غَيْرِهِ ، وَإِلَّا لَمِنْ أَينَ كَانَ لَهُمْ فِي الْفَقْرِ الْيَبَرِ وَالْكِبَاشِ
وَالْحُمُلَانِ وَالسَّمِيدِ ، مَعَ أَنَّ الْمُصَيِّفَ قَدْ قَالَ إِنَّهُ يَرُبُّ عَيْدُ جِدًّا لَا مَاءَ فِيهِ وَلَا
زَرْعٌ . وَهَلْ لِلْحَيَوَانِ بَقَاءٌ دُونَ الْاِعْتِدَاءِ بِالنَّبَاتِ ؟

ج - وَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ تَجَاسَرَ الْمُصَيِّفُ عَلَى الْقَوْلِ عَنْ قَوْمٍ لَهُمْ
سَمِيدٌ إِنَّهُمْ مَا أَكَلُوا خَبِيرًا مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَعَ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ
مِنَ التَّوْرَةِ تَقَرُّبُ السَّمِيدِ وَالذَّقِيقِ الْمَلُوثِ بِالذُّهْنِ فِي أَثْنَاءِ الْقَرَابِينَ .

(١) ثور.

(٢) كبش.

(٣) حمل حولية.

د - وَأَمَّا قَوْلُهُ فَهَذِهِ مُعْجَزَاتُ بَيْتَةِ فَجَوَابُهُ أَمَّا أَوَّلًا فَيُنْهَى : إِنَّ هَذِهِ
مُتَّبِعَةٌ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي قَدْ أَظْهَرْنَا فَسَادَهُ فَلَا تَبْقَاتُ إِلَيْهَا ، وَأَمَّا ثَانِيًا فَيُنْهَى :
يُقَالُ : بَلَّ هِيَ عَلَى تَقْدِيرِ تَسْلَمَ صِدْقُهَا عَقُوبَاتُ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَلَمْ يُعَاقِبُوا بِعَشْرِ
هَذِهِ الْعُقُوبَةِ وَهُمْ فِي مَصْرَ تَحْتَ الْعُيُودِيَّةِ ، كَيْفَ لَا وَقَدْ انْطَوَى مِنْهُمْ الْوَفُ
الْوَفَى فِي الْبَرِّيَّةِ وَلَوْ بِهِمْ يَنَارُ الْحَسْرَةِ عَلَى بَصْلِهِ وَغَيْرِهَا مِنَ النَّبَاتِ ، مُشْوِيَّةٌ .

فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَطْرُقُ لِهَذِهِ الْمُعْجَزَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا
يَطْرُقُ لِلْأَخْبَارِ ، وَيُظَنُّ أَنَّ إِقَامَتَهُمْ كَانَتْ فِي بَرِّيَّةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْعُمَرَانِ
يُمْكِنُ إِقَامَةُ الْإِنْسَانِ فِيهَا ، كَبَرَارِي الْعَرَبِ وَالثَّرَلِ .

حاشية ٤٢ هَذَا الظَّنُّ هُوَ يَقِينٌ ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا سَلَفَ فِي الْحَاشِيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى
هَذِهِ ، فَتَأَمَّلْهُ .

أَوْ أَنَّهُ يُمْكِنُ زَرْعُهَا ، أَوْ أَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمَنْ الَّذِي هُوَ الْمُعْجَزَةُ
الْمُطْطَى أَنْ يَتَرَكَّ فِيهَا دَائِمًا ، أَوْ أَنَّ فِيهَا آبَارُ مَاءٍ ، فَزِعَتْ هَذِهِ الْأَوْهَامُ
كُلُّهَا بِذِكْرِ تِلْكَ الْمَاحِلِ وَالْمَازِلِ لِيُرَاهَا النَّاسُ فِي الزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ
فَيَعْلَمُوا عَظِيمَ الْمُعْجَزَةِ فِي مَقَامِ تِلْكَ الْأُمَمِ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ أَرْبَعِينَ
سَنَةً .

وَكَانَ يُوشَعَ بْنُ نُونٍ لِيُجَلِّلَ هَذِهِ الْعِلَّةَ نَهَى عَنْ بِنَاءِ يَرِيحَا إِبْدًا لِيَكُونَ
تِلْكَ الْمُعْجَزَةُ ثَابِتَةً قَائِمَةً لِكُلِّ مَنْ يَرَى ذَلِكَ السُّورَ غَارِقًا فِي الْأَرْضِ ،
فَيَجِبُ لَهُ أَنْ لَيْسَ هَذِهِ صُورَةُ بُشْيَانٍ يَنْهَلُهُمْ بِمِثْلِ الْغَرَقِ بَلَّ بِمُعْجَزِ .
وَذُكِرَتْ الْمَاحِلُ الْغَيْرُ الْمُتَقَطِّعَةُ ، وَمَا وَقَعَ مِنَ التَّرَدُّدِ فِي

(١) الحفصة.

(٢) فملوا.

بعضها، واختلاف مدد الإقامة فيها، حتى كانت في مَرَحَلَةٍ واحدةٍ ثمانِي عَشْرَةَ سَنَةً وفي أخرى يوماً واحداً وفي أُخْرَى لَيْلَةً واحدةً، بِحَسَبِ ارتفاعِ عُمُودِ القَتَامِ، لِيُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ بِتَأْيِيدِ الإلهي، وليس بِضَلَالٍ في الطَّرِيقِ، كما يَظُنُّ قَوْمٌ من الناسِ اليَوْمِ. وتلك المسافةُ مَعْرُوفَةٌ. وهي مَمْشَى أَحَدٍ عَشَرَ يَوْماً.

حاشية ٤٣

لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّ أَطْرَافَ هَذِهِ الْمَسَافَةِ كما تَدُورُ أو بَعْضُ أَطْرَافِهَا لا تَخْلُو مِنْ أَنْ تَكُونَ مُتَاحِمَةً لِلْعِمَارَةِ أو غَيْرَ مُتَاحِمَةٍ. فَإِنْ كَانَتْ مُتَاحِمَةً لِلْعِمَارَةِ ما من العِمَارَاتِ، بَطَلَّ قَوْلُ الْمُصَنِّفِ حَيْثُ قَالَ: وَهُوَ بَرٌّ بَعِيدٌ جَدًّا عَنْ الْعِمَارَةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُتَاحِمَةً لِلْعِمَارَةِ بَطَلَّ قَوْلُهُ هَهُنَا بَأَنَّهُ مَمْشَى أَحَدٍ عَشَرَ يَوْماً وَوَجِبَ انْقِصَافُ مَا يُتَاحَمُهَا مِنَ الْخِرَابِ إِلَيْهَا. وَمِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ يَظْهَرُ مِثْلُ الْمُصَنِّفِ مَعَ الْهَوَى وَتَلَوُّنُهُ فِي الدَّعْوَى.

فَكَيْفَ تَقِيلُ فِيهَا تِلْكَ الْأُمَّةُ الْعَظِيمَةَ مَدَّةَ أَرْبَعِينَ عَامًا.

وما مِنْ قِصَّةٍ مَذْكُورَةٍ فِي التَّوْرَةِ إِلَّا لِغَايَةِ ضَرُورِيَّةٍ فِي الشَّرِيعَةِ، إِمَّا لِتَضَحِيحِ رَأْيٍ أَوْ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُهْمَةِ فِي انْتِظَامِ الْجَمْعِ أَوْ غَيْرِهِ.

حاشية ٤٤

أ - كَلَامُهُ هَهُنَا مَرْدُودٌ بِمَا فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْقِصَصِ الْخَالِيَةِ عَنِ الْغَايَةِ بِالْكَلْبَةِ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ ضَرُورِيَّةً فِي الشَّرِيعَةِ. فَمِنْهَا قَوْلُ التَّوْرَةِ: فَعَاشَ آدَمُ تِسْعَ مِائَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً قَوْلُهُ لَمْ يَصُورْهُ وَمِثَالُهُ وَلَكِنْ قَسَمَاهُ شَيْئًا. وَمِنْهَا: وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِذْ نَحَرَ رَقِيقًا؛ وَمِنْهَا: فَاقْتَرَبَ يَعْقُوبُ مِنْ اسْحَاقَ أَبِيهِ فَجَسَّهُ وَقَالَ: أَمَا الصَّوْتُ فَصَوْتُ يَعْقُوبَ وَأَمَا الْمَجْسُ فَمَجْسُ

(١) ووجوب.

عيسوا. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ، مَعَ خُلُوعِهَا مِنَ الْغَايَةِ، يُتَوَهَّمُ مِنْهَا قِلَّةُ مَرُوءَةٍ يَعْقُوبَ مِنْ حَيْثُ دَلَّسَ نَفْسَهُ بِأَخِيهِ رَعْبَةَ فِي أَخْذِهَا لَا يَسْتَحِقُّهُ؛ وَيُتَوَهَّمُ مِنْهَا أَيْضًا بِلَادَةُ ذِهْنِ اسْحَاقَ^١ مِنْ حَيْثُ اخْتَفَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْقِصَّةُ، حَاشَاهُمَا عَنْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَى أَنَّ التَّوْرَةَ شَهِدَتْ بِضَعْفِ نَظَرِ اسْحَاقَ لَا بِعَمَاهُ. سَلَّمْنَا أَنَّهُ عَمِيَ بِالْكَلْبَةِ فَكَيْفَ غَفَلَ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ وَلَدَيْهِ، وَقَدْ شَهِدَ مِنَ الْكُفْرِ الْغُرَبَاءُ مِنْ يَسْرَدَدٍ فِي الْبُلْدَانِ لِلْإِسْتِعْطَاءِ، وَفِي كُلِّ بَلَدٍ يَعْرِفُ مِنْ أَشْخَاصِهِ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا وَيَفْرُقُ بَيْنَهُمْ إِذَا سَمِعَ لَفْظَ أَحَدِهِمْ أَوْ الْقَاطِ أَغْدَادَ مِنْهُمْ.

ب - وَمِنْهَا: وَنَذَرَ يَعْقُوبُ نَذْرًا وَقَالَ: إِنْ كَانَ اللَّهُ يَكُونُ مَعِي وَيَحْفَظُنِي فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَنْطَلِقُ فِيهَا، وَيُعْطِينِي خُبْرًا^٢ أَكُلُ وَلِبَاسًا^٣ أَلْبَسُ، وَأَرْجِعَ إِلَى بَيْتِ أَبِي بِسَلَامٍ لِكَيْكُونَ الرَّبُّ لِي اللَّهُ إِلَهًا. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ يُتَوَهَّمُ مِنْهَا أَشْيَاءٌ، مِنْ جُمْلَتِهَا عِبَادَةُ يَعْقُوبَ لِتَعْيِيرِ اللَّهِ حَاشَاهُ عَنْ ذَلِكَ. وَمِنْهَا: فَعَمِلَ يَعْقُوبُ مَعَ خَالِهِ سَبْعَ سِنِينَ بِرَاحِيلَ، وَكَانَتْ فِي عَيْنَيْهِ أَيْمَانًا سِيرَةً مِنْ أَجْلِ حَبْلِ لِرَاحِيلَ. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ يُتَوَهَّمُ مِنْهَا شِدَّةُ مِثْلِ يَعْقُوبَ

(١) عيسوا.

(٢) مروت.

(٣) ٤٠٣ اليسحق.

(٤) عايه.

(٥) قليل أو كثير.

(٦) ٨٠٧ غيز ولياس.

إِلَى الشَّهَوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَعِظَمُ مُبَالَغَتِهِ فِي السَّعْيِ لِتَحْصِيلِهَا؛ حَاشَا عَنْ ذَلِكَ.

ج - ومنها - وَأَخَذَ - أَيَّ يَعْقُوبُ - مِنْ كُلِّ مَا كَانَ مَعَهُ وَقَرَّبَهُ لِأَخِيهِ هَدِيَّةً مَا تَنَّى عَشْرَ وَعِشْرِينَ تَيْسًا وَمَا تَنَّى نَعَجَةً وَعِشْرِينَ كَبْشًا وَلِفَاعًا ٣ وَأَوْلَادَهُنَّ ثَلَاثِينَ، وَأَرْبَعِينَ بَقَرَةً وَعَشْرَةً ثِيْرَانِ وَعِشْرِينَ أَتَانَةً وَعَشْرَةَ أَحْمَرَةً. فَإِنَّا لَوَسَّلْنَا عَلَى سَبِيلِ الْمُسَامَحَةِ، أَنَّ فِي ذِكْرِ عَدَدِ الدَّوَابِّ فَائِدَةً، فَلَا نُسَلِّمُ أَنَّ فِي ذِكْرِ أَصْنَافِهَا فَائِدَةً. وَلَوْ سَلَّمْنَا فَلَا نُسَلِّمُ أَنَّ فِي تَعْيِينِ ذِكْرَانِ الْأَصْنَافِ وَإِنَائِهَا فَائِدَةً. وَكَمْ فِي التَّوَرَاةِ مِثْلُ ذَلِكَ يَعْرِفُهُ مَنْ يَنْصَفُحُهَا مُعَفِّيًا.

وَأَمَّا التَّشْرِيعَاتُ الْغَيْرُ الْمَعْقُولَةُ الْفَائِدَةُ، فَلَا يُلْزَمُ مِنْ كَوْنِنَا لَا تَعْقِلُ فَائِدَتَهَا أَنْ لَا تَكُونَ مُفِيدَةً فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، إِذَا لَا إِطْلَاعَ لَنَا عَلَى حِكْمِ اللَّهِ الْحَقِيقَةِ كُلِّهَا. وَقَدْ سَبَقَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ. وَمَعَ هَذَا، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ تِلْكَ الْأَعْصَارِ قَدْ عَرَفُوا فَوَائِدَهَا.

وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ أُنْتُ وَمِلَّةُ الصَّابِيَةِ هِيَ الظَّاهِرَةُ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ يَتَّقَى عَلَى مَذَاهِبِ الصَّابِيَةِ وَأَرْيَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، يَتَّبِعِينَ

(١) تيس.

(٣، ٢) كبش ولفاح.

(٤) وعشر.

(٥) الصابية

(٦) الصابية

لَهُ تَعْلِيلٌ كَثِيرٌ مِنْ فَرَائِضِ التَّوَرَاةِ الْغَيْرِ الظَّاهِرَةِ الْفَائِدَةِ. وَتِلْكَ الْمَذَاهِبُ وَالْأَرَاءُ تَعْرِفُهَا مِنَ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ لَهُمْ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ الْفَلَاحَةِ التَّجَنُّبِيَّةِ إِخْرَاجُ ابْنِ وَحْشِيَّةٍ، وَهُوَ كِتَابٌ مَمْلُوءٌ مِنْ هَدَايَاتِ عِبَادِ الْأَصْنَافِ وَأَعْمَالِ الطَّلَسَمَاتِ وَالْمِيحَرِّ وَالْجِنِّ وَالنِّيلَانِ الَّتِي تَأْتِي الْبَرَارِي؛ وَكَانَ فِي كِتَابِ الْإِسْطِبَاخِ الْمَحْذُورِ إِلَى أَرِسْطُو، وَكَانَ فِي كُتُبِ الطَّلَسَمَاتِ الَّتِي فِيهَا كِتَابٌ طَبْطُومٌ وَكِتَابُ السَّرْبَرِ وَكِتَابُ دَرْجِ الْفَلَكِ وَالصُّورِ الطَّالِعَةِ فِي دَرَجَةِ دَرَجَةٍ مِنْهُ، وَفِي كِتَابِ يُنْسَبُ إِلَى أَرِسْطُو فِي الطَّلَسَمَاتِ، وَكِتَابُ مَنْسُوبٍ إِلَى هِرْمِسَ، وَكِتَابُ إِسْحَاقِ الصَّابِيَةِ فِي الْاِحْتِجَاجِ لِمِلَّةِ الصَّابِيَةِ وَكِتَابُهُ الْكَبِيرُ فِي تَوَامِيهِمْ وَجُزْئِيَّاتِ دِينِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ وَقَرَابَتِهِمْ وَصُلُوبَتِهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَمَا لَمْ يَخْرُجْ إِلَى الْبَشَرِ الْعَرَبِيِّ مِنْ كُتُبِهِمْ أَضْعَافُ مَا أُخْرِجَ مِنْهَا.

وَقَدْ عَلَّلَ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ وَالْأَحْبَابِ أَكْثَرَ تِلْكَ الْفَرَائِضِ بِمَا تَنَبَّهَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ، كَمَا ذُكِرَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَهُوَ ذَا أَذْكَرُ خُلَاصَةٍ كَلَامِهِ الْجُمْلِيِّ دُونَ التَّفْصِيلِيِّ لِقَرِيبَةِ قَرِيبَةٍ. وَهُوَ وَإِنْ كَانَ شَدِيدَ الْمَطَابَقَةِ وَالْمُنَاسَبَةِ، لَكِنِّي لَا أَجْزُمُ بِهِ وَلَا أَقْطَعُ بِأَنَّ هَذِهِ الْفَرَائِضَ مُعَلَّلَةٌ بِهِ، بَلْ جَازَ أَنْ يَكُونَ تَوَلَّى فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ مَا هُوَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ وَأَعْلَى مِمَّا قَدْ ذُكِرَ هَذَا الْفَاضِلُ، وَذَلِكَ هُوَ الْأَتْبَعُ وَالْأَظْهَرُ.

قَالَ مَا مَنَاهُ أَنَّهُ كَمَا تَلَطَّفَ الْإِلَهِ، جَلَّتْ عَظَمَتُهُ، فِي خَلْقِ الْحَيَوَانَ وَتَدْرِيجِ حَرَكَاتِ الْأَعْضَاءِ وَمُجَاوَزَةِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ فِي تَدْرِيجِ حَالَاتِ جُمْلَةِ الشَّخْصِ، حَالَةً بَعْدَ حَالَةٍ، كَمَا لَيْزَ مُقَدِّمَ

(١) التحول

(٢) الصابية

الدماغ. وجعل مؤخره أصلب، والنخاع أصلب منه، وكلما امتد صلب، والعصب هو آلة الحس والحركة، فالعصب الذي احتيج إليه في إدراك الخواص فقط أو في حركة يسيرة المؤونة، كحركة الجفن والحذر، هو مني من الدماغ، والذي احتيج إليه في تحريك الأغشاء أخرج من النخاع. ولما لم يكن في العصب الدماغية، لئلا يلو الخواصة، أن يحركه مفصلاً، تلتفت في ذلك بأن يفت من طرف العصلة وهي قد صلبت، وقد خالطها شظايا من الرباط وتصر وترا يتصل بالعظم. يلتفت بالعظم، فيقدر أن يحرك العضو على هذا التدريج، فكما تلتفت في الرضيع من الحيوان، ليكون عند ولادته في غاية اللين، لا يلائمه الغذاء اليابس، فأعد له الثديين لتوليد اللبن ليغتذي بهذا رطب، قريب من مزاج أغضائه، حتى تجف وتصلب أولاً.

فهكذا دبّر، جلّ وعلا، في إزاله هذه الشريعة المقدسة، فإنها أثقلت والسيره المشهورة المألوفة هي تقرب أنواع الحيوان في هياكل الصور والسجود لها والتبشير بين يديها. فلم تقتض الحكمة أن تشرع يرفض ذلك أجمع وتتركه. وقد لا يقبل ذلك التشريع لما في طبيعة الإنسان من الأنس بالملأوفات والنفرة بما يخالفها، وكأنها تصير كالأمر الطبيعي للإنسان. وذلك كما لو جاء نبي في هذا الزمان يدعو إلى عبادة الله وكلنا يتلك الصلوات والصيام وأن لا ندعو الله عند ملئ بل تعبده بالفكر المحضة فقط فإننا كنا نستطيع ذلك ولا نتقبله. فافتضت حكمته تع وتلفظه أن أبغى تلك الأنواع من العبادات وما يشبهها من الأفعال القريبة التي يدعى فيها الخواص النافعة، كما يفعل أرباب الطلسمات، ونقلها من كونها للأجسام أو للكر اكبر أولي في من الروحانيات إلى كونها لاسية - عزّ وعلا -

وأمر بفعلها له تع. فأمر ببناء هيكل له، وأن يكون المذبح والقربان والبحور له. ونهى أن يفعل شيء من هذه الأئمة الهارونيين والذين من سبط لوي لخدمة ذلك الهيكل. وأفرد لهم حقوقاً تكفيهم لاشتغالهم بالبيت وقربانهم. فسبقت العقيدة الحقّة، وهي وجود الإله ووحدانيته. ولم تنفّر الأنفس ولم تستوحش بتعطيل السالف. ولما كان التقبّل بالقربان وما يجري مجراها على جهة القصد الثاني، والدعاء والصلوة ونحوها أقرب إلى القصد الأول وضروريّة في حصوله، جعل بين النوعين تفرقة كبيرة، وهي أنه لم تفرص القربان، وإن كانت تفرق، كما كانت أولاً، أعني أنها تقرب في كل مكان وكل زمان، ولا يُقام هيكلها حيث اتفق، ولا يقربها من اتفق، بل جعلها هيكلًا واحدًا وحرم التقرب في غيره. ولا يكون المَقَرَب إلا من نسل هارون عم. كل هذه لتقليل هذا النوع من العبادة. وأما الصلاة والدعاء وما أشبهها، ففي كل مكان وكل من اتفق.

حاشية ٤٥

لِقَالَ أَنْ يَقُولَ لِلْمَصْنُفِ لَوْ كَانَ بَاقِيًا أَوْ لِمَنْ يَتَابِعُهُ عَلَى قَوْلِهِ وَيَتَعَصَّبُ لَهُ: هَبْ أَنْ الَّذِي تَقُلْتَ عَنْهُ هَذَا الْكَلَامَ بَعْدَ شَهَادَتِكَ لَهُ بِأَنَّهُ فَاضِلٌ، هُوَ شَخْصٌ صَفِيْقُ الْوَجْهِ عَدِيمُ الْاسْتِحْبَاحِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَفَوْهُ بِذِكْرِ الصَّلَاةِ الَّتِي لَا ذِكْرَ لَهَا فِي تَوْرَاةِ الْيَهُودِ، أَفَلَا تَسْتَحْيِي أَنْتَ مِنْ تَقُلْ ذِكْرَهُ لِلصَّلَاةِ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنْتَ وَكُلٌّ مِنْ وَقَفَ عَلَى التَّوْرَةِ مِنْ أُولَئِكَ إِلَى آخِرِهَا أَنَّهَا خَالِيَةٌ عَنْ ذِكْرِ الصَّلَاةِ أَصْلًا وَرَأْسًا، فَلَا تَسْتَحْيِيكَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي مَا تَقُولُونَ؟

وكما أبقت الشريعة الحقّة هذا النوع من العبادة التي كان يُعبد

بها غير الله تعالى ، كذلك قصدت المخالفة لأكثر جزئيات ذلك النوع
بحيث تقع المباشرة لهم في ضمن الموافقة الضرورية ، بحسب
المصلحة والتلطف .

حاشية ٤٦

هنا خالفت الشريعة هذا التعمد الحسي القادر المدّول على لسان
داود النبي عليه السلام ، القائل : لست بأكل لحم العاجل ولا
أشرب دماء الجداء ، إذبحوا لله ذبائح الشكر . وقوله : إذبحوا له ذبائح
التسبيح . ولأي سبب ما اقتضت على الموافقة في الجزئيات المذكورة
دون هذا ، وحينئذ كان لمخالفتها بهذا بمخالفتها لساير الجزئيات التي
خالفتها . على أني أقول : إن الذي يقدر على تغيير البعض لا يتعدّر عليه
تغيير الكل ، إذا كان من أبواب المعجز ، لأنه لا يستطيع الغير قهره ولا
مخالفة أمره ونهيه .

وما ذاك إلا لأن أصل هذه الشريعة وقيلها الذي عليه تدور هو محو
تلك الآراء من الأذهان وإزالة تلك التعبدات الباطلة . وبهذا يظهر
تعليل كثير مما شرع به مما لا تمكّن فائدته إلا لمن عرف دين الصابئة
وساير عبّاد الأوثان وتعبداتهم وأعمالهم المخصصة بهم .

وأيضاً فمن جملة أغراض الشريعة الكليّة إخراج الشّهوات
والتهاون بها والافتيار منها على الضرورة . وبهذا يظهر تلطف الله ،
عز وجل ، في التشريع بترافع تعقيل هذه العناية وتصرف الفكر
عنها لكل وجه وتمتع من كل ما يؤدي إلى شره وإلى مجرد لذّة في
المأكولات والشكرجات .

(١) حاله .

(٢) الصابئة .

حاشية ٤٧

أ- إنا قد وجدنا في الشريعة الموسوية عكس هذا ، فإن فيها الرغيب في
الشّهوات . كيف لا وقد جاء فيها إلزام الرجل التزويج بعداء استحسانها
وانصجع معها قبل أن تملك ، حتى أنه لو أراد أن يطلقها بعد ذلك لما
مكنه الشريعة من الطلاق مع أن الطلاق مباح فيها . وأي شهوة أبلغ من أن
يحظى الرجل بحبيبته دائماً ؟

ب - ثم إن الشريعة حرصت على أطيب الطيبات وأشهى الشّهوات ،
أعني قتل الأعداء واستباحة أموالهم ونسائهم وأولادهم وأملأهم . وهل
من لذّة أبلغ من هذه ؟

ج - ومعلوم عند كل عاقل أن أبلغ الأشياء في كسر الشهوة وردعها هو
الصيام . والشريعة الموسوية ما أمرت به أصلاً ورأساً ، حتى لو جاء الأمر
بالصيام في كل كتاب لليهود لما كفى في ردّ هذه الدعوى ، لأن التوراة ما
أمرت به . ومعلوم أن الشهوة تميل إلى بغض الشائئ ، والتوراة أمرتهم
بذلك حيث قالت : أبغض شائئك واشق على أعدائك . فعلى هذا يلزم أن لا
تكون الشريعة الموسوية كاملة وهذا ظاهر .

حاشية ٤٨

ومن مقاصد الشريعة أيضاً البين والتأني وأن لا يكون الإنسان ذا
فطاطة وقساوة وغلظة ، بل يكون متبياً مطيعاً متأنياً ، كثير
الرحمة والشفقة . وكثير ما شرع به ، إذا تولى وجد مؤدياً إلى هذا
المقصد .

معلوم أن الشريعة الموسوية قصدت صيد ذلك ، حيث أمرت اليهود

(١) فضاضة

(٢) متأناً

قَائِلَةً عَنِ السَّبْتِ الْأَمَمِ : اضْرِبُوهُمْ وَلَا تَرْحَمُوهُمْ . وَقَوْلُهُ : «وَكَثِيرٌ مِمَّا شَرَعَ بِهِ إِذَا تَوَلَّى» وَجَدَ مُؤَيِّدًا إِلَى هَذَا الْمَقْصِدِ غَيْرُ مُسَلِّمٍ بِهِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ . وَبَعْدَ الْمُسَامَحَةِ ، لَوْ كَانَ قَوْلُهُ السَّابِقَ صَادِقًا لَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ هَهُنَا : «وَجَمِيعٌ مَا شَرَعَ بِهِ» . لَكِنَّهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ كَاذِبٌ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ ، بَلْ قَالَ : «وَكَثِيرٌ مِمَّا شَرَعَ بِهِ» .

وَتَنْظِيفُ الظَّاهِرِ مِنَ الْأَوَاسِخِ وَالتَّجَاسُاتِ ، بَعْدَ تَنْظِيفِ الْبَاطِنِ مِنَ الرِّذَالِ الْخَلْقِيَّةِ وَتَطْهِيرِهِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ فَمِنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ أَيْضًا ، وَلَا يَخْفَى فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ مِنَ الْمَرْغُوضَاتِ فِي هَذَا الْمَعْنَى . هَذَا تَعْلِيلُ الْجُمْلَةِ . وَأَمَّا تَعْلِيلُ التَّفَاصِيلِ فَطَوِيلٌ . وَكُلُّهَا قَدْ ظَهَرَ لَهَا فَوَائِدُ كَيْسَتْ بِالْقِلَّةِ . فَبَطَلَ زَعْمُ مَنْ اسْتَنْكَرَ وُرُودَ أَمْثَالِ هَذِهِ التَّشْرِيعَاتِ مِنْ اللَّهِ تَع .

حاشية ٤٩

قَدْ مَرَّ فِي الْحَوَاشِي الَّتِي كُتِبَتْ عَلَى هَذَا التَّعْلِيلِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعْلِيلٌ فَاسِدٌ مُرَدُّودٌ مِنْ وَجْهِ كَثِيرٍ . وَأَمَّا قَوْلُهُ هَهُنَا : «وَكُلُّهَا قَدْ ظَهَرَ لَهَا فَوَائِدُ كَيْسَتْ بِالْقِلَّةِ» فَهُوَ غَيْرُ مُسَلِّمٍ لِأَنَّهُ دَعَا مُجَرَّدَةً عَنِ الدَّلِيلِ ، وَعَلَى هَذَا يَبْطُلُ قَوْلُهُ حَيْثُ قَالَ : «فَبَطَلَ زَعْمُ مَنْ اسْتَنْكَرَ وُرُودَ أَمْثَالِ هَذِهِ التَّشْرِيعَاتِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى» .

وَأَمَّا اسْتِنْكَارُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَى مُوسَى حِكَايَةُ مَوْتِهِ وَدَفْنِهِ فَقَدْ قِيلَ إِنَّ يَشُوعَ بْنَ نُونٍ عَمَّ أَمْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ يَكْتَسِبَ ذَلِكَ فِي آخِرِ التَّوْرَةِ وَيَجْعَلَهُ مِنْهَا ، عَلَى أَنَّ تَنْزِيلَهُ عَلَى مُوسَى كَيْسٌ بِمُتَمَيِّعٍ وَلَا بِمُسْتَبْعَدٍ كُلِّ

ذَلِكَ الْاسْتِنْعَادَ . فَإِنَّ التَّعْبِيرَ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي قَدْ جَاءَ مِثْلُهُ كَثِيرًا عَلَى وَجْهِ التَّجَوُّزِ عَلَى مَعْنَى أَنَّ الْمُتَقَبِّلَ وَقُوعُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ .

حاشية ٥٠

لِلْمُطَالِبِ أَنْ يَطَالِبَ وَيَقُولَ : مَنْ هُوَ الْقَائِلُ حَتَّى نَعْرِفَ هَلْ هُوَ صَادِقٌ أَمْ لَا . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ صَادِقُ الْكَلَامِ لَكَانَ الْمُصَنِّفُ قَدْ ذَكَرَ اسْمَهُ وَأَسَدَ الْقَوْلِ إِلَيْهِ . وَلَوْ سَلَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْقَائِلَ صَادِقٌ فُلْنَا : إِنَّ هَذَا لَا يَدْأُنُ بِصَبْرٍ حُجَّةً قَاطِعَةً لِمَنْ يَتَقَبَّلُ أَنَّ التَّوْرَةَ كَيْسَتْ بِمَأْخُودَةٍ عَنْ مُوسَى وَخَلْدَهُ ، لَكِنْ قَدْ زَادَ غَيْرُهُ فِيهَا بَعْدَ مَوْتِهِ هَذِهِ الزِّيَادَةُ . وَحَيْثُ قَدْ صَحَّ بِالْإِجْمَاعِ ذَلِكَ ، فَمَا الْمَانِعُ عَنْ وَقُوعِ أَمْثَالِهِ فِيهَا لِأَغْرَاضٍ لَا إِطْلَاعَ لَنَا عَلَيْهَا .

الاعتراض الخامس

إِنَّ هَذِهِ التَّوْرَةَ لَمْ تَجِدْ فِيهَا تَصْرِيحًا بِالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ الْآخِرِيِّينَ ، وَذَلِكَ مِنْ أَمَمٍ مَا يُذَكَّرُ ، وَهُوَ الْأَصْلُ الْأَعْظَمُ فِي التَّشْرِيعِ . فَلَوْ كَانَتْ التَّوْرَةُ الَّتِي يَأْتِيهَا الْيَهُودُ مُنْزَلَةً مِنَ اللَّهِ تَع ، لَمَا جَازَ خُلُوقُهَا مِنَ التَّصْرِيحِ بِذَلِكَ الْعُدُولِ عَنْهُ إِلَى الدُّنْيَوِيِّينَ الَّذِينَ قَدْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِمَا فِي التَّوْرَةِ . فَإِنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ وَلَا اِعْتِدَادَ بِتَعْيِينِهَا وَلَا شِقَائِهَا . وَلَوْ سَلَّمْنَا الْاِعْتِدَادَ بِهَا فَالتَّجَرُّبَةُ أَقْتَضَتْ أَنَّ النِّعَمَ فِي الدُّنْيَا غَيْرُ مُخْتَصٍ بِالصَّالِحِينَ وَأَنَّ الشَّقَاءَ فِيهَا لَا يَخْتَصُّ بِالْعَاصِيَةِ الطَّالِحِينَ ، بَلْ كَمِ مِنْ صَالِحٍ مُطْعِمٍ شَيْءٍ وَكَمِ مِنْ فَاسِقٍ وَكَافِرٍ سَعِيدٍ . وَاللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْحُلْفَةِ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَأَنْ يُخَيَّرَ بِوُقُوعِ مَا لَا يَقَعُ أَوْ يَقَعُ الْأَمْرُ بِحِلَالِهِ .

وَجَوَابُهُ

إِنْ خَلُّوا التَّوْرَةَ مِنْ التَّصْرِيحِ بِذَلِكَ لَا يُصَرِّحُونَ إِذَا كَانَ قَدْ أُتِيَ عَلَى
مُوسَى عَمَّ وَخَاطَبَ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاسْتِغْاضَ مِنْهُمْ.

فَإِنْ قِيلَ: قَلِمَ لَمْ يَكْتُبْهُ فِي التَّوْرَةِ مُصَرِّحًا؟ قِيلَ: إِنَّ الْأُمُورَ
الْإِلَهِيَّةَ لَا يَجُوزُ الْمَعَارَضَةُ فِيهَا، ثُمَّ وَلَا السُّؤَالُ عَنْهَا، بَلْ مُرَبِّمَا يَكُونُ
ذَلِكَ حِكْمَةً لَا نَعْرِفُهَا.

ثُمَّ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَطْلَقُوا النَّفْسَ بِإِشْرَادِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهَا. وَكَمَا أَنَّ طَبِيبَ
الْأَيْدِي إِذَا يُعَالِجُ الْمَرَضَ الْحَاضِرَ فِي الْبَدَنِ، لَا غَيْرَهُ، فَكَذَلِكَ
طَبِيبُ النَّفْسِ الَّذِي هُوَ الْبَنِي إِذَا يُدَاوِي مَرَضَ نَفْسِ النَّاسِ، عَلَى
حَسَبِ مَا يَجِدُهُ فِي زَمَانِهِ. وَأَهْلُ زَمَانِ مُوسَى عَمَّ لَمْ يَكُونُوا مِنْ
الْمُنْكَرِينَ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ وَعِقَابِهَا، بَلْ كَانَ مَرَضُهُمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ
وَالْكُفْرَ بِغَيْرِهَا، وَبِالْجُمْلَةِ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

حاشية ٥١

أ- إِنِّي تَصَفَّحْتُ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ اسْقَطَ مِنْ هَذَا
الْكَلَامِ وَلَا أَبْعَدَ مِنْهُ عَنِ الصَّوَابِ. وَعَلَى تَقْدِيرِ صِدْقِهِ أَقُولُ: لَوْ لَمْ يَكُنْ
الشِّرْكُ مُسْتَوِيلًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَا أَمَرَهُمُ التَّوْرَةُ بِالتَّوْحِيدِ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا
مُشْبِهِينَ لِمَا نَهَتْهُمْ عَنْ الشُّبُهَةِ، وَلَوْ لَمْ يُغَيِّضُوا اللَّهَ لِمَا أَمَرَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ،
وَعَلَى هَذَا يُقَاسُ مَا عَدَاهُ.

ب- ثُمَّ كَيْفَ يَجُوزُ عِنْدَ عَاقِلٍ تَصْدِيقُ كَلَامِ الْمُصَنِّفِ مَعَ عَلَيْهِ بِأَنَّ
أَهْلَ زَمَانِ مُوسَى لَا يَدَّوْنَ أَنْ يُرَادَ بِهِمْ أَحَدُ ثَلَاثَةِ مَفْهُومَاتٍ: أَوَّلُهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ
وَالثَّانِي مَا سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ. وَالثَّلَاثُ هَؤُلَاءِ وَأَوَّلِيكَ تَعَالَى. وَالْكُلُّ مُحَالٌ.

(١) ثلاث.

فَكَلَامُ الْمُصَنِّفِ أَيْضًا مُحَالٌ وَسَائِرُ مَا يُتْبَعُ عَلَيْهِ فِيَا بَعْدَهُ مُحَالٌ. أَمَّا
الْمَفْهُومُ الْأَوَّلُ فَلَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَا عَبَدُوا هَذِهِ الْمَعْبُودَاتِ.
وَأَمَّا الْمَفْهُومُ الثَّانِي فَلَأَنَّهُ لَوْ سَلَّمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ لَكُنَّا لَا نُسَلِّمُ
أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَعِقَابِهَا، لِأَنَّ الَّذِي يُقِرُّ بِأَنَّ الْمُنِيبَ
وَالْمُعَاقِبَ فِي الْآخِرَةِ هُوَ اللَّهُ الْغَزِيرُ لَا غَيْرَ. فَمَنْ يَعْبُدُ غَيْرَهُ لَا يُقِرُّ بِالثَّوَابِ
وَالْعِقَابِ الْآخَرَوِيِّينَ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، لِامْتِحَالَةِ اجْتِمَاعِ الْإِفْرَادِ بِهَا مَعَ عِبَادَةِ
غَيْرِ اللَّهِ، فَظَهَرَ فَسَادُ الْمَفْهُومِ الثَّانِي أَيْضًا. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّا لَوْ قَرَضْنَا أَنَّ هَذَا
الْمَفْهُومَ هُوَ مُرَادُ الْمُصَنِّفِ لَزِمَهُ مُنَاقَضَةُ كِتَابِهِ وَمُنَاقَضَةُ نَفْسِهِ أَيْضًا. أَمَّا
مُنَاقَضَتُهُ كِتَابَهُ فَلَأَنَّ التَّشْرِيعَ فِيهِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ خَاصَّةً كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ
مِنْ كَلَامِ التَّوْرَةِ. وَأَمَّا مُنَاقَضَتُهُ نَفْسَهُ فَلَأَنَّهُ قَالَ فِي أَثْنَاءِ حِكَايَةِ عَقِيدَةِ
اليَهُودِ: وَأَتَاهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، أَغْنَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،
بِالشَّرِيعَةِ الْمُقَدَّسَةِ. وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّلَاثُ فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُدْرَجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَسَائِرُ الْأُمَمِ تَحْتَ حُكْمِ وَاحِدٍ مِنَ الرُّجُوعِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ
يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَأَوَّلِيكَ الْأُمَمِ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ. وَإِذَا قَدْ تَبَيَّنَ فَسَادُ الْأَقْسَامِ
الثَّلَاثَةِ، تَبَيَّنَ فَسَادُ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ مُنْصِفٍ.

ج - وَاسْتَأْنِفْتُ وَأَقُولُ: لَقَدْ صَدَّقَ الْمُعْتَرِضُ الْقَائِلُ: إِنَّ التَّصْرِيحَ
بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ الْآخَرَوِيِّينَ هُوَ مِنْ أَهَمِّ مَا يُدْكَرُ وَهُوَ الْأَصْلُ الْأَعْظَمُ
فِي التَّشْرِيعِ. وَقَدْ وَافَقَهُ الْمُصَنِّفُ عَلَى ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ فِي الْعِلَّةِ
الْغَايَةِ فِي وُجُودِ النَّبِيِّ:

(١) يو.

(٢) يو.

«وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ فِي مَا بَسَّهُ النَّبِيُّ الْحَقِيقِيُّ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ أَنَّ لَهُمْ صَانِعًا وَاحِدًا غَيْبًا قَادِرًا لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ وَلَا شَبِيهَ وَلَا نَظِيرَ، عَالِمًا بِالسِّرِّ وَالْعَالِيَةِ، لَا يُغْرِبُ عَنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ. وَأَنَّ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُطَاعَ، وَأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ السَّعَادَةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَالشَّقَاوَةَ لِمَنْ عَصَاهُ، وَأَنْ يُقَرَّرَ لَهُمْ أَمْرُ الْمَعَادِ الْآخِرِيِّ وَأَنَّ هُنَاكَ مِنَ اللَّذَّةِ الْأَبَدِيَّةِ مَا هُوَ مِلْكٌ عَظِيمٌ وَمِنْ الْأَلَمِ مَا هُوَ عَذَابٌ مُقِيمٌ».

د - هَذَا كَلَامُ الْمُصَنِّفِ. وَأَزِيدُ قَائِلًا: إِنَّا لَوْ سَلَّمْنَا صِدْقَ كَلَامِ الْمُصَنِّفِ مُسَامَحَةً لَهُ، فَأَيُّ مَحْذُورٍ كَانَ يَلْزَمُ مِنْ ذِكْرِهِ فِي التَّوَرَةِ مَرَارًا لِعِظَمِ فَائِدَتِهِ، أَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذُكِرَ فِيهَا الْقِصَصُ الْحَالِيَّةُ عَنْ الْفَوَائِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ مَا نَقَلْنَا مِنْهُ لَمَعَةً فِي الْحَوَاشِي السَّالِفَةِ، حَتَّى إِنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ بَعْضِهَا، أَمَا كَانَ لِلْمُجَازَاةِ الْآخِرَوِيَّةِ أَسْوَةٌ بِوَاحِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْقِصَصِ الْحَالِيَّةِ عَنِ الْفَوَائِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ.

واعتقادهم أن عبادتها وتقريرها القرابين لها تعمم الأرض وتخصب البلاد وتصح ثمار الأشجار. وكان عبادتهم وسألتهم وأهل التقوى منهم يعطون الناس ويعلمونهم أن الفلاحه التي بها قوام وجود الإنسان إنما تنبع ونجيها على الاختيار بأن - تعبدوا الشمس والكواكب، وإن أسخطتموها بعصيانكم أظفرت البلاد وخربت. وقالوا في كتبهم التي ذكرناها إن المشتري سخط على البراري والصحاري ولذلك صارت عاصمة الماء، عاصمة الأشجار، بأبوابها الغيلان، وكانوا يعطون الفلاحين والأكارين جدًا لاشتغالهم بعمارة الأرض التي هي من

إرادة الكواكب وهو رضاها. وفي كتاب الفلاحه التبعية على الكرم كلام للصائفة هو أن الحكماء القدماء كلهم والأنبياء قد أمروا وقرضوا أن يفسر بالآلات في الأعياد وتبين أيدي الأصنام، وأن الآلهة تبعيها ذلك وأنها تكافى فاعليه أحسن مكافاة، وأكثروا في هذا الفعل من الوعد والوعيد على ذلك من تطويل الأعمار ودفع الآفات وضرر العاهات وخضيب الزروع وركاؤ النصار. فلما شهرت هذه الأمور حتى فلتت يقينا، وأراد الله، رحمه الله، مخو هذا العطل من الأذهان ورفع هذا التعب عن الأجساد، بتعطيل تلك الأعمال الشاقة الغير المفيدة، أخبر على لسان رسوله موسى عم أنه إن عبدت هذه الكواكب والأصنام انقطع المطر وخربت الأرض فلم تثبت شيئا وسقطت ثمار الأشجار وحلت الآفات والعاهات بالأجسام وقصرت الأعمار.

حاشية ٥٢

أ - فَإِذَاذْ لِمَ لَا انْقَطَعَ فِي زَمَانِ أَحَابَ الْمَلِكِ طُولُ تِلْكَ الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ يُعْبَدُ الصَّمَمَ فِيهَا قَلِيلَ تَقَارُهِهِ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ لِإِلَهِ النَّبِيِّ، مُعْتَرِضًا عَلَى التَّوَرَةِ بِاسْتِثْنَاءِ مَجِيءِ الْأَطْطَارِ وَنَبَاتِ الْفَلَاتِ مَعَ عِبَادَتِهِ لِذَلِكَ الصَّمَمِ. ب - وَأَزِيدُ قَائِلًا: إِنَّا إِذَا سَامَحْنَا الْمُصَنِّفَ وَسَلَّمْنَا جَمِيعَ مَا ذَكَرَ فِي هَذَا الْجَوَابِ مِنَ التَّخْلِيطِ فِي الْكَلَامِ وَالتَّمْوِيهِ، وَذَكَرَ مَا لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْجَوَابِ، فَأَيُّ مَحْذُورٍ كَانَ يَلْزَمُ لَوْ زِيدَ عَلَى ذِكْرِ هَذَا الْوَعِيدِ الَّذِي نَقَلَهُ الْمُصَنِّفُ ذِكْرَ الْوَعِيدِ الْآخِرِيِّ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَا شَكَّ فِي شِدَّةِ إِيلَابِهِ وَدَوَامِ أَتَائِهِ. وَأَزِيدُ قَائِلًا: إِنَّ مُوسَى النَّبِيَّ عَلَيْهِ

السلام إِنَّ كَانَ أَخْبَرَ بِهَذَا الْوَعِيدِ لَنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ قَالِيُ فَائِدَةٌ حَصَلَتْ لَهُمْ بِهَذَا الْحَبَرِ مَعَهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى. فَإِنْ قِيلَ: الْفَائِدَةُ مِنْ ذَلِكَ هِيَ التَّحذِيرُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ فِي وَقْتٍ آخَرَ مُسْتَقْبَلٍ، فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا مُرَدُّدٌ يَقُولُ الْمُصَيِّفُ: إِنَّ النَّبِيَّ الَّذِي هُوَ طَبِيبُ النَّفُوسِ إِنَّمَا يَدَاوِي مَرَضَ نَفُوسِ النَّاسِ عَلَى حَسَبِ مَا يَجِدُهُ فِي رَمَائِهِ. وَإِنْ كَانَ مُوسَى أَخْبَرَ بِهَذَا الْوَعِيدِ لَغَيْرِ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ فَلَا فَائِدَةَ مِنْهُ أَيْضًا لِأَنَّهُمْ لَا يَصْدُقُونَ نَبُوَّةَهُ بَلْ وَلَا رُبُوبِيَّةَ رَبِّهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْإِخْبَارِ لَأَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَيَكُونُ ضَائِعًا.

وبالإقبال على عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى تَنْزِيلُ الْأَمْطَارِ وَتُخْصِبُ الْأَرْضُ وَتُصْلِحُ الْأَحْوَالُ وَيَصْبِحُ الْجِسْمُ وَتَطُولُ الْأَعْمَارُ. وَكَرَّرَ هَذَا الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ فِي عِدَّةٍ مِنْ مَوَاضِعَ مِنَ التَّوْرَةِ، لِيُزِيلَ ذَلِكَ الرَّأْيَ وَيَسْمَحِيَ أَثَرَهُ مِنَ النَّفُوسِ، فَتَبْرَأَ مِنْ مَرَضِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ وَمَا يَنْشَبُ مِنْهَا مِنَ الْفَسَادِ. وَلَوْ كَانَ مَرَضُهُمْ إِنْكَارُ الْبَقَاءِ الْأَبَدِيِّ لِلنَّفُوسِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِيهِ، لَكَانَ قَدْ كَرَّرَ ذِكْرَهُ فِي التَّوْرَةِ لِلتَّأْكِيدِ وَالتَّفْهِيمِ.

حاشية ٥٣ أ - فَإِذَا نَزَلَ مِنْ كَلَامِ الْمُصَيِّفِ هَهُنَا أَنَّ الْجَهْلَ يَعْدِدُ أَوْلَادَ نُوحٍ وَأَسْمَائِهِمْ هُوَ مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ النَّفُوسِ وَإِلَّا لَمَا كَانَ قَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي التَّوْرَةِ. لَكِنَّا لَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ مَرَضٌ لِأَنَّ الْجَهْلَ بِهِ لَا يَقْصُرُ النَّفُوسَ وَالْعِلْمُ بِهِ لَا يَنْفَعُهَا. وَجَمِيعُ مَا يَكُونُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَلَيْسَ مِنْ أَمْرَاضِ النَّفُوسِ.

ب - وَيَلْزَمُ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ الْأَعْمَالُ الصَّنَاعِيَّةُ مَرَضًا مِنْ أَمْرَاضِ

النَّفُوسِ وَإِلَّا لَمَا كَانَ تَكَرَّرَ التَّهْيُّ عَنْهَا فِي التَّوْرَةِ نَفْسَهَا. لَكِنَّا لَا نُسَلِّمُ أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّنَاعِيَّةَ مِنْ أَمْرَاضِ النَّفُوسِ. وَلَوْ سَلَّمْنَا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَمْرَاضِ النَّفُوسِ فَلَيْسَ يَقْصُرُ بِالنَّفُوسِ عَشْرُ مِئَاتٍ مَا يَقْصُرُهَا الْجَهْلُ بِبَقَاءِ النَّفْسِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ الْآخِرِيِّينَ فَكَانَ يَجِبُ تَكَرُّرُ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَلَا أَقَلَّ مِنْ مِثْلِ تَكَرُّرِ ذِكْرِ التَّهْيُّ عَنِ الْأَعْمَالِ فِي السَّبْتِ. بَلْ وَلَا أَقَلَّ مِنْ تَكَرُّرِ ذِكْرِ عَدَدِ أَوْلَادِ نُوحٍ وَأَسْمَائِهِمْ...

وَلَمَّا لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَا أَفْتَحَ بِاسْتِيفَاضَةِ بَيْنِ الْأُمَّةِ وَالتَّغْرِيبِ بِهِ.

حاشية ٥٤

أ - لَوْ كَانَتْ الْاسْتِيفَاضَةُ بَيْنَ الْأُمَّةِ مُوجِبَةً لِتَرْكِ ذِكْرِ هَذَا الْأَمْرِ الْمُهْمِّ النَّافِعِ لِلنَّاسِ، الْحَقِيقِيِّ عَنِ الْحَوَاسِ، لَكَانَ الْأَوَّلِيُّ تَرْكُ ذِكْرِ عَدَدِ الْعِظَمَاءِ وَالتَّوَابِ وَالتَّحْذِيرِ الَّتِي أَهْدَاهَا يَتَقَوَّبُ بِعِيسَى لِكُونِهَا مُسْتَفَاضَةً وَمَحْسُوسَةً وَغَيْرَ نَافِعَةٍ لِلنَّاسِ فِي الدِّينِ أَيْضًا. وَكُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ يَخْلَافُ حَالَهُ الْبَعْثِ وَالشُّورِ وَالْمُحَازَاةَ الْآخِرِيَّةَ. وَكَانَ أَيْضًا قَدْ أَفْتَحَ بِاسْتِيفَاضَةِ مَا جَرَى فِي مِصْرَ وَفِي الْبَحْرَيْنِ الْفَقْرَ وَمَا إِلَى ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهَا فِي التَّوْرَةِ. فَكَيْفَ ذَكَرَ هَذِهِ الْأُمُورَ الظَّاهِرَةَ لِلْجَسَدِ وَلَمْ يَذْكُرِ الْحَقِيقِيَّ عَنِ الْحَوَاسِ، مَعَ كَوْنِ هَذَا الْحَقِيقِيِّ أَهَمَّ مُهِمَّاتِ الشَّرَائِعِ الْحَقَّةِ.

ب - وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ مَا اسْتَكْنَى بِذِكْرِ عَدَدِ أَوْلَادِ نُوحٍ وَأَسْمَائِهِمْ مَرَّةً وَاحِدَةً، لَكِنَ كَرَّرَ ذَلِكَ مَرَّةً ثَانِيَةً. وَأَمَّا قَوْلُهُ «التَّغْرِيبُ بِهِ» فَكَذِبُهُ ظَاهِرٌ، لِأَنَّ التَّوْرَةَ مَا عَرَّجَتْ عَلَى التَّغْرِيبِ بِهِ أَبَدًا. فَظَهَرَ مِمَّا قَرَرْنَا فُسَادَ قَوْلِ الْمُصَيِّفِ وَتَعْصِبُهُ لِلْبَاطِلِ بِقُنُوقِ الْمَغَالطاتِ وَالتَّهْوِيَّاتِ.

ولهذا كانت اليهود معتقدة ومفجرة بالبشر والشور للأموال
وبقاء النفس بعد موت الأجساد. وتناقلوا بذلك خلفاً عن سلف.
وترحموا على موتاهم، وأدعوا بالتوبة عند ظنهم حلول الأجل،
ولتقوا من أوجبوا قتله، حداً أو قصاصاً، عندما يريدون قتله، أن
يسأل الله تعالى أن يجعل قتله كفارة عن ذنبه، بحيث يتخلص من
عقاب الذنب في الآخرة. وأوجبوا ذكر الإيمان بإحياء الموتى في
الصلاة وغير الصلاة، وعند اختيارهم بمقابر أميهم، كما ذكرت ذلك
عند حكاية متقدميهم، وقد أكرح أحبارهم وعلماءهم من ذكر جزئيات
أحوال الجنة والنار ورثبوها وكرروا ذلك.

حاشية ٥٥

أ - جميع ما ذكره المصنف ههنا هو حجة على اليهود لا لهم. وذلك
لأن هذه الأقاويل ليست بمدكور في كتبهم، لكنها من جملة اختراعاتهم
فيقال لهم: إن الذي اخترع هذه الأقاويل قد خالف توراتكم التي نهت
عن الزيادة في الشريعة والتقصير منها ولعنتم من يفعل ذلك.

ب - والعجب من جمهور اليهود كيف لم ينكروا على الأخبار في هذه
البلع كتبهم انقادوا لهم انقياد الصرير للصرير، ولم يحطروا ببالهم قول
أشعيا النبي القائل عن الله تعالى: يا شعبي رؤساؤكم هم الذين أضلوكم
وزعموا أنهم ينجون إليكم.

ج - فإن عارضي معارض وقال: إذا كان ذكر جزئيات الجنة والنار
إضلالاً فيترك أن تحكم بصلال من يقر بذلك من ميلك، فجوابه أن هذا
لا يلزم غير اليهود لأنهم ابتدعوه وليس هو في كتابهم، ولا شك في صلال
كل من يخالف كتابه.

فإن قيل - فكيف لم يطرد حصول ما وعد الطائعون به في الدنيا
وما توعدهم به العاصون فيها حتى يتحقق تكذيب عبدة الأصنام
والكواكب، قيل - قد كان ذلك مطرداً لما كانت السكينة الإلهية
بنيهم، بحيث يعلمون أن أمرهم يجري على قانون إرادتي من الله تعالى
المعطي بهم، لا على قانون طبيعي مثل غيرهم، كما سبق.

حاشية ٥٦

هذا الكلام مردود، أما أولاً فلا أنه دعوى مجردة عن الدليل. فلما قيل
أن يقول عليه: متى كان هذا الطراد ومن الذي نقله وفي أي كتاب جاء؟
وأما ثانياً فيقتضه آحاب الملك، وقد مر ذكرها. وأقول من طريق آخر:
إن هذا الوعد والوعيد لا يمكن وقوعه أبداً فضلاً عن أن يكون مطرداً أو غير
مطرد. والدليل على عدم وقوعه ما سندكره في الحاشية التابعة لهذه.

وهذا الوعد والوعيد الدنيا وآيات، هو لا مطلقاً، إنما هو لجملة
تلك الأمة، من حيث هي جملة ومجموع، وفي الأرض التي وعدوا
بها، عند حلول السكينة ببيهم، لا في غيرها ولا لشخص شخص
على الانفراد.

حاشية ٥٧

أ - هذه شروط زائدة على ما في التوراة، وهي غير مسلمة عند
الخصم. ويتقدير تسليمها بقول: إن الوعد والوعيد على هذا التقدير
المذكور مشروط بالمحال. وكل مشروط بالمحال فوقعه محال فيكون
الوعد والوعيد الذنوبيان محالاً أيضاً. والدليل على صدق دعواي أنه قد
جعل لوقوعه ثلاثة شروط: أولها كونه لجملة تلك الأمة من حيث هي

جُمْلَةً وَمَجْمُوعٌ. وَثَانِيًا تَحْصِيصُهُ بِرِمَانٍ سَكَنَتْهُمْ أَرْضَ المِيعَادِ. وَثَالِثًا حُلُولُ السَّكِينَةِ بَيْنَهُمْ. وَسَبْعِينَ الْآنَ [أَنَّ] هَذِهِ الشُّرُوطَ الثَّلَاثَةَ مُحَالٌ.

ب - وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَلَا سِتْحَالَهَ إِتْفَاقٌ جَمَعَ أَشْخَاصَهَا عَلَى الطَّاعَةِ أَوْ عَلَى الْعِصْيَانِ إِذْ لَا بَدَأَ وَأَنْ يَتَخَلَّفَ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْكَثِيرَةِ مَنْ لَا يُوَافِقُ عَلَى الطَّاعَةِ وَكَذَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ. وَحَيْثُ يَمْتَنِعُ وَقُوعُ الْوَعْدِ أَوْ الْوَعِيدِ، لِأَنَّ عَدَالَةَ اللَّهِ لَا تَقْتَضِي الْمَسَاوَاةَ فِي الْمَجَازَاةِ بَيْنَ الطَّائِعِ وَالْعَاصِي. وَلَوْ فَرضْنَا أَنَّهُ تَعَالَى سَاوَى بَيْنَهُمَا فِي الْمَجَازَاةِ، لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ كَذِبُ قَوْلِ التَّوْرَةِ الْقَائِلَةِ بِأَنَّ الْوَعْدَ هُوَ لِلطَّائِعِينَ وَالْوَعِيدَ لِلْعَاصِينَ. وَأَيْضًا فَإِنَّ تَحْصِيصَهُ بِالْجُمْلَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ جُمْلَةٌ مَتَّفُوضٌ بِخَطَا زَمْرِي وَحْدَهُ وَقُوعِ الْوَعِيدِ بِسَبِيهِ.

ج - وَأَمَّا الشَّرْطُ الثَّانِي فَهُوَ أَيْضًا مُحَالٌ لِإِتْفَاقِهِ بِخَطِيئَةِ زَمْرِي، فَإِنَّمَا اسْتَبَقَتْ وَقُوعُ الْوَعِيدِ قَبْلَ الدُّخُولِ إِلَى أَرْضِ المِيعَادِ، وَبِخَطِيئَةِ أَوْلَادِ هَارُونَ أَيْضًا، وَيَقُولُ التَّوْرَةُ الْقَائِلَةُ فِي السِّفْرِ الْخَامِسِ: فَإِنْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْقَضَاءَ وَحَفِظْتُمُوهُ وَعَمِلْتُمْ بِهِ فَسَيَحْفَظُ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْبَرَكَاتِ وَالْمِثَاقَ الَّذِي حَلَفَ لآبَائِكُمْ، وَيُحْيِيكُمْ وَيُبَارِكُ عَلَيْكُمْ وَيُكَثِّرُكُمْ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ بِكَلَامٍ كَثِيرٍ: وَتَدْخُلُونَ الْأَرْضَ الَّتِي حَلَفَ اللَّهُ لآبَائِكُمْ وَتَرْتَوْنَهَا.

د - وَأَمَّا الشَّرْطُ الثَّلَاثُ وَهُوَ حُلُولُ السَّكِينَةِ بَيْنَهُمْ، فَهُوَ مَتَّفُوضٌ بِمَا حَلَّ بِالْقَوْمِ مِنْ بَحْتَصَرٍّ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ اخْتِفَا السَّكِينَةِ، وَهُوَ مَتَّفُوضٌ أَيْضًا بِمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ طَبْطُوسِ الْمَلِكِ. وَأَمَّا قَوْلُ الْمُصَنِّفِ: «وَلَا لِشَخْصٍ شَخْصٌ عَلَى الْإِنْفِرَادِ» فَيُقَدَّرُ عَلَى بَطْلَانِهِ خَطِيئَةُ أَوْلَادِ هَارُونَ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ

إِذَا وَقَفَ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ لَا يَسْتَمِيلُهُ هَوَاهُ، عَلِمَ أَنَّ الْمُصَنِّفَ قَدْ أَخْطَأَ فِي دَعْوَاهُ.

بَلْ وَعَدَ كُلَّ شَخْصٍ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَعِيدَهُ عَلَى عِصْيَانِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْآخِرَةِ وَبَعْدَ الْمَوْتِ، لَا بَدَأَ.

حاشية ٥٨

نَعَمْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ. لَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مُوجِدٍ فِي تَوْرَاتِهِمْ. وَمِنْ هَهُنَا يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مَسْرُوقٌ مِنْ شَرِيعَةِ أُخْرَى هِيَ الشَّرِيعَةُ الْحَقَّةُ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ.

وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَلَيْسَ هُوَ عَلَى وَجْهِ الْأَفْرَادِ، بَلْ قَدْ يَظْهَرُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِالشَّخْصِ الصَّالِحِ الْحَبِيرِ مَا يَشَارُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيَظْهَرُ مِنَ التَّكَاثُرِ فِيهَا بِالطَّالِبِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِغَيْرِهِمْ مَا لَا يَشْكُ الْعَاقِلُ الْمَعْتَبِرُ أَنَّهُ عِقَابُ لَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ. وَلَكِنْ لَمْ يَطَّرِدْ ذَلِكَ لِوُجُودِنَا فِي الدُّنْيَا السَّعِيدِ الْعَاصِي وَالشَّقِي الطَّاعِ، وَبِالْعَكْسِ، كَمَا قَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ عُلَمَاؤُهُمْ وَنَقَلَهُ شَرِيعَتُهُمْ. وَقَدْ جَرَّبَ حُصُولَ ذَلِكَ الْوَعْدَ لِلْجُمْلَةِ عِنْدَ طَاعَتِهِمْ، وَحُصُولَ ذَلِكَ الْوَعِيدِ لَهُمْ عِنْدَ عِصْيَانِهِمْ وَعُكُوفِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَوْتَانِ وَالسَّائِيَّاتِ طَلِبًا لِإِنْفِاقِهَا الدُّنْيَوِيَّةِ.

حاشية ٥٩

أ - مَنْ هُوَ الَّذِي جَرَّبَ ذَلِكَ فِي أَيِّ زَمَانٍ جَرَّبَهُ، وَمَنْ هُوَ الْبَقَّةُ الَّذِي نَقَلَهُ، وَكَيْفَ نَهَى طَاعَةَ الْجُمْلَةِ أَوْ عِصْيَانَهَا مِنْ غَيْرِ عِصْيَانِ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ حَالَ طَاعَةِ الْأَكْثَرِ أَوْ مِنْ غَيْرِ طَاعَةِ نَفَرٍ قَلِيلٍ مِنْهُمْ حَالَ عِصْيَانِ الْأَكْثَرِ. وَقَدْ عَرَفْتُ امْتِنَاعَ وَقُوعِ ذَلِكَ عَنْ قَرِيبٍ. فَإِنْ كَانَتْ فِي مُكَابَرَةٍ مِنَ الْمُتَعَصِّبِينَ لِلْمُصَنِّفِ وَقَالَ: إِنَّهُ أَرَادَ بِالطَّاعَةِ طَاعَةَ الْأَكْثَرِ وَالْعِصْيَانِ عِصْيَانِ الْأَكْثَرِ، فَجَوَابُهُ أَنْ يُقَالَ: لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَزِمَ أَنْ لَا يَنْفَكَّ عَنْ

الْقَوْمِ الْوَعْدُ وَالْوَعْدُ مَعًا، ذَلِكَ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ وَهَذَا لِأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ. لَكِنْ هَذَا مِمَّا لَا سَبِيلَ لَهُ فِي وُجُودِهِ أَصْلًا وَرَأْسًا، كَيْفَ وَالْوَعْدُ يَقْتَضِي الْخُصْبَ وَالْأَمْنُ وَالسَّلَامَةُ، وَالْوَعْدُ يَقْتَضِي الْجَدْبَ وَالْخَوْفَ وَالْعَطَبَ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ. وَهَذَا ذَكِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى فَسَادِ التَّجَرُّبَةِ الَّتِي نَقَلَهَا الْمُصَنِّفُ هَهُنَا، وَقِسَادٌ عَقُولِ الَّذِينَ جَرَّبُوها وَالَّذِينَ نَقَلُوها وَالَّذِينَ صَدَّقُوا النَّاقِلِينَ.

ب - وَأَيْضًا فَلَا نَسْلِمُ أَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْتَانِ كَانَ طَلَبَ الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِأَنَّ الْمَنَافِعَ الدُّنْيَوِيَّةَ قَدْ ضَمِنَتِ التَّوَرَاةُ حُصُولَهَا لِلطَّائِعِينَ. فَمَنْ يَطْلُبُ هَذِهِ الْمَنَافِعَ تَحْصُلُ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، لَوْ كَانَتْ تَوَرَّاتُهُمْ صَادِقَةً عِنْدَهُمْ. وَأَقُولُ: مِنْ رَأْيِي أَنَّ هَؤُلَاءِ عِبَدَةَ الْأَوْتَانِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونُوا قَدْ كَفَرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى أَوْلًا ثُمَّ عَبَدُوها بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ يَكُونُوا قَدْ عَبَدُوها مَعَ عِبَادَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى. فَإِذَا هُمْ عَلَى التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ كَفَرُوا. وَعَلَى التَّقْدِيرِ الثَّانِي مُشْرِكُونَ، وَعَلَى التَّقْدِيرِ الثَّالثِ هُمْ لِتَوَرَّاتِهِمْ مُخَالِفُونَ. وَمِنْ هَذَا يَظْهَرُ نِفَاقُ الْمُصَنِّفِ وَمِرَاءَاتُهُ لِلْمُلُوكِ الْوَتَنِيِّينَ حَيْثُ أَقَامَ عُدْرَتَهُمْ قَائِلًا: إِنَّ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ عَنْ كُفْرِ بِاللَّهِ وَلَا بِالتَّوَرَاةِ.

وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ لِمَنْ نَظَرَ فِي تَوَارِيخِ مُلُوكِهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ وَمَشَافِخِ أُمَمِهِمْ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي أَوْرَثُوهَا وَكَانَتْ السَّكْنَةَ حَالَةً مَعَهُمْ فِيهَا. وَقَدْ شَبَّهَ بَعْضُهُمْ مِلَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْمِلَّةِ الْحَيَّةِ وَسَائِرِ الْجَلَلِ بِالْمَوَاتِ.

أ - أَمَّا التَّوَارِيخُ فَلَيْسَتْ بِحُجَّةٍ عَلَى الْغَيْرِ. وَأَمَّا الَّذِي أَلْزَمَنَا الْيَهُودُ بِهِ فَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا كَلَامُ الْمُشْبِهِ فَهُوَ كَتَقْبِيعِ الْغُرَابِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِمَّا يُجْزَمُ بِصِدْقِهِ لَكَانَ الْمُصَنِّفُ قَدْ ذَكَرَ اسْمَ هَذَا الْمُشْبِهِ وَأَسْتَدَ الْكَلَامِ إِلَيْهِ. لَكِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُشْبِهَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُرَكَّبَ كَلَامُهُ أَلْفَى ذِكْرَ اسْمِهِ.

ب - وَالْخُصْمُ لَهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ مِلَّةَ الْيَهُودِ كَانَتْ أَوْلًا قَرِيبَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِفَضْلِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ غَضِبَ عَلَيْهَا فَأَبْعَدَهَا بِعَذْلِهِ، وَكَانَتْ سَائِرَ الْجَلَلِ بَعِيدَةً مِنْهُ فَأَنَعَمَ عَلَيْهَا وَقَرَّبَهَا إِلَيْهِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ هَذِهِ الدَّعْوَى مَا أَسْلَفْنَا نَقَلَهُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْحَوَاشِي، وَمَا هُوَذَا نَكَّرَ نَقْلَهُ لِلتَّذْكَارِ.

ج - فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ هُوشَعَ النَّبِيِّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: سَيَأْتِي زَمَانٌ يَطْلُبُونَ اللَّهَ فَلَا يَجِدُونَهُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ لِغَدْرِهِمْ، وَأَوَلَدُوا أَوْلَادَ الْخَطِيئَةِ وَالْفُجُورِ، وَلَا يَسْمَعُ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ إِذَا دَعَوْهُ وَلَا تَصْعَدُ إِلَيْهِ صَلَاتُهُمْ، وَيَبْقُونَ فِي الْخِزْيِ وَالْهَلَاكِ إِلَى أَبَدِ الْآبِيدِينَ. وَقَالَ أَيْضًا: لِأَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ حَلَّتْ فِيهِمْ وَاللَّهُ كَرِهَهُمْ وَمِنْ بَنِيهِ أَخْرَجَهُمْ وَلَا يَعُودُ يَرْحَمُهُمْ أَبَدًا وَلَا يَقْبَلُهُمْ.

د - وَقَالَ أَشْعِيَا: وَبَنُو إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْأَصْنَامَ عَلَيَّ وَعَمِلُوا الْحَبْثَ بَيْنَ يَدَيَّ، أَعْمَلُ خِزْيَهُمْ وَأَكْفِي الشَّعْبَ الرَّدِيَّ بِسُوءِ عَمَلِهِ الْفَاجِسِ وَتَجِي الشُّعُوبُ كُلُّهَا وَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيَّ، وَيَنْتَظِرُونَ إِلَى الشَّعْبِ الْحَبِيثِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَا يَسْتَلِي خِزْيَهُمْ وَلَا يَنْقُطِعُ إِلَى الدَّمْرِ. وَقَالَ أَيْضًا: يَقُولُ الشُّعُوبُ هَلُمُوا نَسْطَلِقْ إِلَى طَرِيقِ الرَّبِّ لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَرَكُوا طَرِيقَ اللَّهِ تَعَالَى وَصَارُوا مَطْرُودِينَ. تَعَالَوْا نَسْلِكْ طَرِيقَ الرَّبِّ وَنُؤْمِنْ بِهِ، إِلَهَنَا الْإِلَٰهَ الْحَقُّ.

هـ - هَذِهِ لُحْمَةٌ مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَفِيهَا كُفَايَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَذِبِ هَذَا الْمُشْبِهِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ.

فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِتِلْكَ اللَّحْمَةِ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَكْثَرِ مِنَ التَّشْبِيهِ الظَّاهِرِ، فَإِنَّهُمْ أَقَامُوا بَيُوتًا لِلَّهِ قَلَمٌ يَظْهَرُ فِيهَا أَثَرُ.

حاشية ٦١

أ - مَنْ هُوَ الَّذِي يَرْضَى لِنَفْسِهِ التَّشْبِيهَ بِهَذِهِ اللَّحْمَةِ. وَهَلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا يَقُولُ لَهُ عَلَى سَبِيلِ الْجِدِّ أَوْ الْهَزْلِ: «يَا يَهُودِي!» إِلَّا وَيَغْضَبُ عَلَى هَذَا الْقَائِلِ غَضَبًا يُوَقِّعُ بِهِ الْقَتْلَ كَوَاقَعُهُ ذَلِكَ. وَأَمَّا أَقَامَةُ بُيُوتِ الْعِبَادَاتِ فَكَانَ الْقَصْدُ مِنْ أَقَامَتِهَا التَّشْبِيهَ بِمِلَّةِ الْيَهُودِ وَلَا يَرْضَى أَحَدٌ مِنَ الَّذِينَ أَقَامُوهَا لِنَفْسِهِ ذَلِكَ. وَأَيْضًا فَإِنَّ كَلَامَ هَذَا الْمُشْبِهِ يَتَقَلَّبُ عَلَى مِلَّةٍ لِأَنَّهُ مَا ظَهَرَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ كُنَائِسِ الْيَهُودِ آثَارًا وَإِلَّا لَكَانَتْ قَدْ اسْتَشْهَرَتْ.

ب - وَأَمَّا الْبُيُوتُ الَّتِي أَقَامَهَا غَيْرُ الْيَهُودِ فَقَدْ اسْتَشْهَرَتْ مِنَ الْآثَارِ عَنْهَا مَا لَا يُطْبِقُ الْمَعَانِدَ إِنِّكَارَهُ وَلَا يَسَعُهُ جَحْدُهُ. وَأَنَا أَقْصِرُ هُنَا عَلَى ذِكْرِ بَيْتٍ وَاحِدٍ مِنْهَا لِيَكُونَ أَمُودَجًا لِدَعْوَايَ، فَأَقُولُ:

ج - إِنَّ الدِّيْرَ الَّذِي بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ تَفْلِسَ فِي قَرْيَةٍ اسْمُهَا كَارْنِي، أَيْ شَخْصٌ زَارَهُ اسْتِفَادَ مِنَ الْأَثَرِ الَّذِي يَظْهَرُ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ الدِّيْرِ، مَا لَا يَزَالُ يَصْدُرُّ عَنْ ذَلِكَ الزَّائِرِ مَا دَامَ حَيًّا وَحَيْثُ كَانَ مِنَ الْبِلَادِ، وَهُوَ نَجَاةٌ مَعْضُوضُ الْكَلْبِ الْكَلْبِ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الْمَاءِ.

د - وَقَدْ ذَكَرَهُ وَذَكَرَ مَعْجَزَتَهُ مُهَلِّبُ الدِّينِ الطَّبِيبُ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْهَيْلِ وَهُوَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ لَا يُتَّهَمُ بِالتَّعَصُّبِ لِلنَّصَارَى. فَإِنَّهُ قَالَ فِي الْمَجْلَدِ

الرَّابِعِ مِنْ كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ بِالْمُخْتَارِ، فِي أَثْنَاءِ الْفَصْلِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ عِلَاجَ مَنْ عَصَى الْكَلْبَ الْكَلْبَ مَا جَكَائَتْهُ:

هـ - وَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَائِبِ كَنِسَةُ كَارْنِي الَّتِي مِنْ زَارِهَا وَدَخَلَ الْمَعْضُوضُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ لَمْ يَفْرَعْ مِنَ الْمَاءِ.

و - وَهَذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ مُسْتَمِرٌّ الْأَثَرِ كَافٍ فِي الْحُكْمِ بِأَنَّهُ ظَهَرَ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْآثَارِ النَّافِعَةِ الْعَجَبِيَّةِ فِي بَيْتٍ مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي أَقَامَهَا غَيْرُ الْيَهُودِ، مَا بَلَغَ مِنْ شِدَّتِهِ مَبْلَغًا صَارَ يَقْصِدُ عَنْ زَائِرِ ذَلِكَ الْبَيْتِ أَيْضًا. وَمَنْ شَكَّ فِي هَذَا الْحَبْرِ فَعَلَيْهِ بِزِيَارَةِ الْمَكَانِ الْمَذْكُورِ حَتَّى يَصِيرَ عِنْدَهُ الْحَبْرُ عِيَانًا، وَيَتَيَقَّنَ كَذِبَ الْمُشْبِهِ الْقَائِلِ: أَقَامُوا بَيُوتًا لِلَّهِ قَلَمٌ يَظْهَرُ فِيهَا أَثَرُ.

فَزِهِدُوا وَتَسَكُّمُوا لِيُظْهَرَ عَلَيْهِمُ الْوَحْيُ، قَلَمٌ يَظْهَرُ.

حاشية ٦٢

أ - إِنَّ الَّذِي تَزَهَّدَ وَتَسَكَّمَ مَا كَانَ غَرَضُهُ الْوَحْيُ. وَدِدُّ عَلَى ذَلِكَ عُمُومُ الْاعْتِرَافِ بِهِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْيَهُودَ لَا يُمْكِنُ لَهُمْ أَقَامَةُ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى أَنَّ الزُّهْدَ يُوجِبُ ظُهُورَ الْوَحْيِ عَلَى الزَّاهِدِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَحْيَ ظَهَرَ عَلَى مَنْ لَيْسَ يَذَرِي الزُّهْدَ أَبَدًا وَلَا تَزَهَّدُ أَضْلاً مِثْلَ شُمُوئِيلَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَإِنَّهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي سِنِّ الصَّبَا!

ب - فَإِنَّ كَارْنِي مِنَ الْيَهُودِ مُكَابِرٌ وَادَّعَى أَنَّ الزُّهْدَ هُوَ مِنْ شُرُوطِ ظُهُورِ الْوَحْيِ، فَجَوَابُهُ أَنْ يَقَالَ لَهُ: فَمَا بِالْكَلْبِ إِذَنْ لَا تَزْهَدُونَ الْآنَ وَتَسْتَعِيدُونَ الْوَحْيَ لَوْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنَّ اعْتِدَارَ يَكُونُهُمْ فِي غَيْرِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فَجَوَابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْوَحْيَ انْقَطَعَ عَنْكُمْ مُدَّةً

مديدة وَأَنْتُمْ طُولَ تِلْكَ الْمُدَّةِ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَهَلَا تَزْهَدْتُمْ فِيهَا وَاسْتَعْدَتْموه؟ وَالْوَجْهَ الْآخَرَ أَنَّ الْوَحْيَ ظَهَرَ فِي غَيْرِ تِلْكَ الْأَرْضِ، فَتَارَةً عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ دُخُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَتَارَةً عَلَى دَانِيَالٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْهَا، فَظَهَرَ فَسَادُ الْاِعْتِدَادِ وَبَطَلَتْ مُكَابَرَةُ الْمَكَايِرِ.

فَسَقُوا وَعَصَوْا وَطَفُوا، فَلَمْ يَنْتَرْكُوا بِهِمْ عِقَابَ مِنَ اللَّهِ.

حاشية ٦٣

مِنْ جُمْلَةٍ مَا يَدُلُّ عَلَى كَذِبِ هَذَا الْمُصَنِّعِ مَا نَزَلَ بِسُوءٍ وَعَامُورًا وَيَنْتَوَى. وَهَكَذَا قَوْلُ التَّوْرَةِ الْقَائِلُ: «إِعْلَمْ أَنَّهُ يَخْطِئُهُ هَؤُلَاءِ الشُّعُوبُ يُهْلِكُهُمُ اللَّهُ مِنْ قَدَامِكَ»

لِيَتَحَقَّقَ أَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْعِصْيَانِ أُصِيبَ قَلْبُهُمْ، أَعْنَى الْبَيْتِ الَّذِي يَنْتَقِلُونَهُ فِي صَلَاتِهِمْ، فَلَمْ يَنْتَقِرْ حَالُهُمْ بِحَسَبِ كَثَرَتِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ، وَقُوَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ وَاتِّفَاقِهِمْ، عَنْ طَرِيقِ الطَّبِيعَةِ وَالِاتِّفَاقِ. وَالْبَيْتُ الْإِسْرَائِيلِيُّ، مَتَى أُصِيبَ قَلْبُهَا الَّذِي هُوَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ، انْكَسَرَا. وَإِذَا انْجَبَرَ انْجَبَرُوا. كَانُوا فِي كَثَرَةٍ أَوْ فِي قَلَّةٍ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ اتَّفَقَ.

حاشية ٦٤

أَمَّا قَوْلُهُ: «مَتَى أُصِيبَ قَلْبُهَا الَّذِي هُوَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ انْكَسَرُوا» وَبَنَى انْجَبَرَ انْجَبَرُوا. فَهُوَ يَعْكُسُ الْوَاقِعَ لِأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَنْتَكِرُوا أَوَّلًا لَمَا أُصِيبَ الْبَيْتُ، وَلَوْ لَمْ يَنْجَبِرُوا أَوَّلًا لَمَا انْجَبَرَ الْبَيْتُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ مَا بَنَوْا الْبَيْتَ الثَّانِيَّ إِلَّا بَعْدَ مَا انْجَبَرُوا لَا أَنَّهُمْ بَنَوْهُ ثُمَّ انْجَبَرُوا.

وَمَالِكُهُمْ وَمَا يَكُونُ فِي حَالِ تَقَرُّفِهِمْ وَتَشَتُّبِهِمْ هُوَ الْإِلَهِ الْحَيُّ،

عَزَّ وَجَلَّ. فَإِنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ مِثْلُ هَذَا التَّفَرُّقِ الَّذِي عَرَّضَ لَهُمْ عَلَى أُمَّةٍ غَيْرِهِمْ إِلَّا وَتَسْجِيلٌ إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى.

حاشية ٦٥

أ - لَوْلَا أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَتَظَاهَرُوا فِي الْمَوَاطِنِ الْمَخُوفَةِ بِتَغْيِيرِ الْيَهُودِيَّةِ، وَاسْتَحْلَوْا إِذَا ذَلِكَ تَحْلِيلَ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَيْهِمْ مِثْلَ السَّبْتِ وَغَيْرِهِ، وَاسْتَجَازُوا الْارْتِدَادَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ، لَكَانَتْ قَدْ قَبِلَتْ مِنْهُمْ عَنْ آخِرِهَا إِمَّا بِالِاسْتِحَالَةِ إِلَى مِلَّةٍ أُخْرَى وَإِمَّا بِتَغْيِيرِ ذَلِكَ.

ب - وَكَفَاهُمْ أَنَّهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ اسْتَحْلَوْا الْمُحَرَّمَاتِ، خَالَفُوا تَوَرَّاتِهِمْ وَتَرَكَوا الْقِصَاصَ الْمَذْكُورَ فِيهَا، فَمَا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ فِي زَمَانِنَا هَذَا مِنْ الْيَهُودِ لَا يَجِبُ قَتْلُهُ بِحُكْمِ التَّوْرَةِ إِلَّا الْقَلِيلُ الَّذِينَ مَا وَقَعُوا فِي شِدَّةٍ أَوْجَبَتْ تَظَاهَرَهُمْ بِتَغْيِيرِ الْيَهُودِيَّةِ، أَوْ إِنَّهُمْ مَا سَافَرُوا فَمَا دَعَتْهُمْ ضَرُورَةُ السَّفَرِ إِلَى حُلِّ السَّبْتِ.

ج - وَأَمَّا الْمِلَّةُ النَّصْرَانِيَّةُ الْمُتَفَرِّقَةُ بَيْنَ الطَّوَائِفِ فَمَعْلُومٌ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا مَا اسْتَحَالَتْ إِلَى مِلَّةٍ أُخْرَى مَعَ أَنَّهَا لَا يَجُوزُ عِنْدَهَا، فِي مَوَاطِنِ الشَّدَائِدِ، إِطْلَانُ النَّصْرَانِيَّةِ وَظَاهَرُ غَيْرِهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ، وَلَوْ قَاسَتْ مَهْمَا قَاسَتْ مِنَ الْأَهْوَالِ. بَلْ لَا يَجُوزُ عِنْدَهَا الْارْتِدَادُ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ بَعْدَ التَّلَفُّظِ بِالْدُخُولِ فِي غَيْرِهَا حَتَّى وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ التَّلَفُّظُ عَلَى سَبِيلِ الْهَزْلِ دُونَ الْجِدِّ.

لَا سِيَّامًا مَعَ طُولِ هَذِهِ الْمُدَّةِ. وَكَمْ أُمَّةٌ تَلَقَّتْ كَانَتْ بِدَعْوَتِهِمْ وَكَمْ يَنْتَقِلُ مَا ذَكَرَ.

حاشية ٦٦

هَذِهِ الدَّعْوَى، مَعَ أَنَّهَا مُجَرَّدَةٌ عَنْ الدَّلِيلِ، هِيَ ظَاهِرَةُ الْكَذِبِ، وَإِلَّا فَأَيُّ أُمَّةٍ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَهُودِ غَيْرُ النَّصَارَى، وَمَنْ هُوَ الْيَقِينُ الَّذِي نَقَلَ ذَلِكَ، وَفِي أَيِّ الْبُلْدَانِ ظَهَرَتْ وَفِي أَيِّ زَمَانٍ؟

هَذَا خُلاصَةُ كَلَامِهِمْ فِي الْمَوْضُوعِ.

الاعتراض السادس

إِنْ زَرَدَانَتْ وَكَثِيرًا مِمَّنْ ادَّعَى فِي سَائِرِ الْأُمَمِ الشُّبُوهَ قَدْ نُقِلَ عَنْهُمْ مُعْجَزَاتٌ كَثِيرَةٌ بِالنُّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْهُمْ، مَعَ أَنَّ الْيَهُودَ جَاهِلُونَ لِشُبُوهِهِمْ، لَا سَبِيحًا لِنُبُوَّةِ عِبَادِ الْأَصْنَامِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَقَالَ لِلْيَهُودِ إِنَّهُ لَا يَجُوزُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ نَقْلُ هَؤُلَاءِ صَحِيحًا أَوْ لَا يَكُونَ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَمَا يُؤْمِنُكُمْ أَنْ يَكُونَ نَقْلُكُمْ لِمُعْجَزَاتِ مُوسَى وَأُمُورِ دِينِكُمْ كَذَلِكَ؟ إِذْ لَيْسَ تَوَاتُرُكُمْ أَقْوَى مِنْ تَوَاتُرِهِمْ وَأَصَحُّ. وَإِنْ كَانَ نَقْلُهُمْ صَحِيحًا لَمْ تَكُنِ الْمُعْجِزَةُ دَالَّةً عَلَى الصِّدْقِ، فَلَا تَثْبُتْ لَكُمْ نُبُوَّةُ مُوسَى وَلَا غَيْرِهِ مِنْ أَنْبِيَائِكُمْ.

وَجَوَابُهُ

إِنَّ الَّذِي يُنْقَلُ مِنَ الْخَوَارِقِ عَلَى يَدِ الْمُتَحَدِّثِ بِهَا، إِنْ لَمْ يُعْلَمْ تَوَاتُرُهُ فَلَا عِزَّةَ بِهِ، وَالَّذِي يُحْكَى أَنَّهُ أَتَى بِهِ مِنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ الْبَنَاتِ وَالْكُوكَبِ وَالْأَصْنَامِ، بَعْضُهُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. وَلَيْسَ كُلُّ مَا اشتهَرَ نَقْلُهُ عِنْدَ أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ، فَهَرِ مُتَوَاتِرًا، فَإِنَّ الشُّهْرَةَ غَيْرُ التَّوَاتُرِ. كَمَا قَدْ تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي كُتُبِ الْمُتَطَلِّقِ. وَشُهْرَةُ كَوْنِ الْحَبَرِ مُتَوَاتِرًا غَيْرُ كَوْنِهِ مُتَوَاتِرًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ. وَعَدَمُ الْفَرْقِ مَرَّةً قَدْ مَقَامٌ قَدْ يُوجِبُ خَطَأً عَظِيمًا فِي الْأَسَانِدَاتِ. وَالَّذِي يُعْلَمُ تَوَاتُرُ نَقْلِهِ، إِنْ جَوَّزَ الْعَقْلُ فِيهِ وَجْهَ حِيلَةٍ، فَلَا عِزَّةَ بِهِ أَيْضًا. وَبَعْضُ مَا أَتَى بِهِ مِنْ دَعَا إِلَى مَا ذَكَرْنَا وَاقْبَعَهُ الْجَهْلُ الْغَلِيظُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَيْضًا. وَإِنْ لَمْ يَجُوزِ الْعَقْلُ وَفُوعُهُ بِحِيلَةٍ، فَلَيْمَّا أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ دَعْوَى مَا يَتَحَقَّقُ اسْتِنَاعًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ عَلَى غَيْرِهِ، عَقْلًا أَوْ نَفْلًا نَابِئًا مِنْ شَرِيعَةٍ نَابِئَةٍ، أَوْ لَا يَقْتَرِنَ بِهِ.

فَاقْتَرَنَ ذَلِكَ بِهِ إِمَّا غَيْرَ جَائِزٍ، لِأَنَّهُ إِضْلَالٌ لِلْعِبَادِ. وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِيهِ فِي الْمُعْجَزَاتِ، أَوْ، إِنْ جَوَّزْنَا ذَلِكَ، فَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى مَكَّنَ ذَلِكَ الْآتِي بِهَذَا الْخَارِقِ مِنْ قِبَلِهِ لِيُجِيبَهُ بَعْدَ سُبْحَانِ الْعُقُلَاءِ لَهُ، وَإِلَّا لَقَدْ حُوجِيَ فِي عُقُولِ أَنْفُسِهِمْ أَوْ جَعَلُوا مَا رَسَخَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ السَّابِقِ الْمُطَائِفِ لِتَشْرِيعِ هَذَا الْآتِي بِهَذِهِ الْخَارِقَةِ. فَلَا يَقَعُ الْإِضْلَالُ وَلَا يَتَطَرَّقُ الْفُتْحُ فِي مُعْجِزَةٍ مَنْ لَمْ يَقْتَرِنَ بِدَعْوَاهُ ذَلِكَ. وَإِنْ لَمْ يَقْتَرِنَ بِالْخَوَارِقِ الْمُتَوَاتِرَةِ الَّتِي لَا وَجْهَ لَوْفُوعِهَا بِحِيلَةٍ مَا يَسْتَتِجُ عَقْلًا وَلَا نَفْلًا.

فَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَمْ يُوجِبْ دَلَالَتَهَا عَلَى تَصَادُقِ مُدَّعِي الشُّبُوهِ بِهَا، لِشُكُوكِ السَّابِقِ ذِكْرُهَا. وَدَعْوَى هَؤُلَاءِ الْعَجَزُ عَنِ التَّقْصِي عَنْهَا وَانْتِهَايَةُ قَدْ عَرَفَتْ وَجْهَ الْكَلَامِ فِيهَا. وَهَذَا الْفَرْقُ مِنَ النَّاسِ مِنْهُمْ مَنْ سَدَّ بَابَ الشُّبُوهَاتِ مُطْلَقًا، كَمَا يَحْكِي عَنْ الرَّاهِمَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ دَانَ بِاعْتِقَادِ الشُّبُوهِ لَا بِمُجَرَّدِ الْمُعْجِزَاتِ بَلْ يَقْرَأِينَ تَنْصَبُ إِلَيْهَا، فَيُوجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا. وَبَعْضُ الْيَهُودِ أَقْرَأُوا بِنُبُوَّةِ مُوسَى عَمَّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، فَأَيُّهُمْ ادَّعَا أَنَّ مُعْجِزَاتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَظِيمَةً كَثِيرَةً، لَمْ يَكُنْ إِيْمَانُ أُمَّةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمُجَرَّدِهَا، بَلْ بِسِمَاعِهِمُ الْخُطَابَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى فِي جَبَلِ صِينَا.

حاشية ٦٧

هَذَا الْإِقْرَارُ مَرْدُودٌ بِكَلَامِ التَّوْرَةِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّ كَافَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَقْرَأُوا بِنُبُوَّةِ مُوسَى قَبْلَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ، وَلَا شَكَّ أَنْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ الزَّمَانُ عَلَى زَمَانِ الْخُطَابِ فِي طُورِ سِينَا. وَأَنَا لَا أَدْرِي كَيْفَ اسْتَجَارَ الْمُصَنِّفُ التَّلَوَّنَ فِي الْكَلَامِ إِلَى حَدٍّ يَجْعَلُ الْخُطَابَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تَارَةً، وَتَارَةً أُخْرَى يَجْعَلُهُ مِنْ الصُّورَةِ الْمَحْلُوقَةِ لَهُمْ. وَهَذَا عَجِيبٌ مِنْ مِثْلِهِ وَغَيْرِ لَاتِقٍ بِفَضْلِهِ.

فَعَلِمُوا نُبُوءَتَهُ بِالْوُجْدَانِ كَمَا يَعْلَمُ النَّبِيُّ نُبُوءَةَ نَفْسِهِ عَلَمًا ضَرُورِيًّا.

حاشية ٦٨

أ - أَمَا [أَنْ] النَّبِيِّ يَعْلَمُ نُبُوءَةَ نَفْسِهِ بِالْوُجْدَانِ فَلَا شَكَّ فِيهِ . وَأَمَّا عَلَمُ الْقَوْمِ الْمَذْكُورِينَ فَيَسْتَبَعُ أَنْ يَكُونَ بِالْوُجْدَانِ لِقَوْلِ الْمُصَنِّفِ قَبْلَ هَذَا الْكَلَامِ عَنِ الْبَعْضِ الْمَذْكُورِ مَا حَكَاهُ : لَمْ يَكُنْ إِيْمَانُ أُمَّةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمُعْجَزَاتِهَا بَلْ وَبِسَامِعِهِمُ الْخِطَابَ . وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا بِهِ بِسَبَبِ الْمُعْجَزَاتِ . مَعَ اقْتِرَانِهَا بِالْخِطَابِ .

ب - وَظَاهِرٌ أَنَّ الْمُعْجَزَاتِ شَاهِدُهَا بِالْحِسِّ الظَّاهِرِ ، وَالْخِطَابِ سَمِعُهُوَ بِالْحِسِّ الظَّاهِرِ أَيْضًا . وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ عَلِمُوا نُبُوءَتَهُ بِغَيْرِ الْوُجْدَانِ . لِأَنَّ الْوُجْدَانَ لَا طَرِيقَ إِلَيْهِ مِنَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ الْمُتَطَلِّقِ .

ثُمَّ نَقَلُوا ذَلِكَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ فَقَلَّ مُتَوَاتِرًا . وَرَعَوْا أَنَّ بِذَلِكَ حَصَلَ لَهُمُ الْإِيْمَانُ الْقَائِمُ ، لَا بِطَرِيقِ الْاسْتِدْلَالِ بِمَا ظَهَرَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ . فَإِنَّ مُعْجَزَاتِ مُوسَى ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا لَا يَسَعُ عَاقِلًا تَجَوُّيزَ الْحِيلَةِ فِيهَا ، كَأَنْثِقَاقِ الشَّجَرِ ، وَاقْتِلَابِ مَائِهِ دَمًا ، وَإِهْلَالِ كُلِّ يَكْرٍ فِي بَلَدٍ يَصْرِمَنَّ النَّاسُ وَالْخِيَارُونَ ، إِلَّا مَا كَانَ مُخَصَّصًا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَالتَّظَلُّلِ بِالْقَمَامِ ، وَإِزْوَاجِ الْمَنِّ مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً عَلَى أُمَّةٍ عَظِيمٍ عِنْدَهَا ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ عَمَّ ، لَا تُغْبِذُ إِلَّا الظَّنَّ الْعَالِيَّ عِنْدَهُمْ . وَهَذَا الْخِطَابُ لِلْأُمَّةِ فَأَمَرُ لَمْ يَحْضُرْ ، فِيمَا بَلَّغْنَا ، فِي غَيْرِ هَذِهِ النُّبُوءَةِ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ أَوْجَبَ تَصْدِيقَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُحَدِّثِ بِالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي

بِالصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ . وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَكْثَرُ النَّاسِ . وَأَهْلُ هَذَا الرَّأْيِ مِنَ الْيَهُودِ لَا يُسَلِّمُونَ تَوَاتُرَ مُعْجَزَاتِ مُسْتَجِمَّةٍ لِلشَّرَاطِطِ الْمُوجِبَةِ لِلتَّصْدِيقِ لِغَيْرِ مُوسَى وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ التَّابِعِينَ لَهُ الَّذِينَ يَقْرَفُونَ بِنُبُوءَتِهِمْ ، وَنَعْنُو قَوْلَ الْمُخَالِفِ إِنْ تَوَاتَرَتْهُمْ لَيْسَ أَصَحُّ مِنْ تَوَاتُرِهِمْ . وَقَدْ عَرَفَتْ مَا قِيلَ فِي تَوَاتُرِ الْيَهُودِ .

حاشية ٦٩

السَّعُّ مِنْ غَيْرِ مُسْتَنَدٍ هُوَ مِنَ التَّحَكُّمَاتِ وَالِدَعَاوِي الْمُجَرَّدَاتِ . وَبِمَاذَا تَرَاهُمْ يُجِيبُونَ لَوْ مَنَعَ مَعَهُمْ أَيْضًا بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا مُسْتَنَدٍ ، هَلْ يَلْتَزِمُونَ مَنَعَهُ أَمْ لَا ؟ فَإِنَّ التَّرَمُّوَةَ بَنَسَتْ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ يَلْتَزِمُوهُ فَوَلَا الْمُخَالِفُ يَلْتَزِمُ مَعَهُمْ .

الاعراض السابع

لَا نَسْلِكُ امْتِنَاعَ نَسْخِ شَرْعِ الْيَهُودِ ، بَلْ هُوَ وَاقِعٌ وَلَا رَيْبَ لَهُمْ . وَإِذَا كَانَ وَاقِعًا ، وَقَدْ نَطَقَتْ التَّوْرَةُ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعٍ بِأَنَّهُ لَا يَتَعَدَّى يَتَدَخَّلُ فِي صِحَّتِهَا ، عَلَى رَأْيِهِمْ . أَمَّا بَيَانُ أَنَّهُ وَاقِعٌ فَلِقَوْلِهِ خَمْسَةَ أَحَدُهَا أَنَّ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ أَنَّ مَنْ يَحْضُرُ مِيتًا عِنْدَ مَوْتِهِ أَوْ مَسَّ عَقْمًا مِنْهُ أَوْ وَطِئَ قَبْرًا فَإِنَّهُ يَسْتَحْسِنُ وَلَا يَسْتَطْهَرُ إِلَّا بِرَمَادِ الْبَقَرَةِ الَّتِي كَانَ الْإِمَامُ الْهَارُونِيُّ يُحْرِقُهَا . فَإِنْ اسْتَقْبَلَ الْيَهُودَ الْآنَ فِي الظَّهَارِ عَنْ ذَلِكَ الرِّمَادِ مَعَ عَزْزِهِمْ عَنْهُ فَقَدْ أَقْرَأُوا بِالنَّسْخِ لِحَالِهِمْ اقْتِضَائِهَا هَذَا الزَّمَانِ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْنَوْا عَنْ ذَلِكَ كَانُوا أَنْجَاسًا وَهُوَ بِخِلَافِ مُعْتَقَدِهِمْ لِأَنَّهُمْ يَصَلُّونَ وَيَحْمِلُونَ الْمَصَاحِفَ وَيَعْتَرِلُونَ الْخَائِضَ حَتَّى لَا يَسْتَجْنُوا بِهَا .

وَنَائِبِيهَا أَنَّ الْيَهُودَ يَدْعُونَ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي كُتُبِ فِيهِمْ نَقْلُهُ فَقَهَاهُ

عَنِ الثَّقَاتِ عَنْ مُوسَى عَمِّهِ فَاخْتَلَفْتُهُمْ فِي الْمَسَائِلِ الْفِيهِيَّةِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِأَجْلِ الطُّعْنِ فِي الثَّقَلَةِ، وَهُوَ خِلَافُ مَذْهَبِهِمْ، أَوْ لِأَنَّ أَحَدَ الثَّقَلَيْنِ نَسَخَ الْآخَرَ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَالثَّلَاثُ أَنْ فِي صَلَاتِهِمْ فَصُولًا تَنْتَضِعُ أَذْيَعِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَقَّعُوهَا بَعْدَ زَوَالِ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ. وَلَهُمْ أَصْوَاءُ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا، مِثْلُ صَوْمِ إِخْرَاقِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَصَوْمِ حِصَارِهِ. وَصَوْمِ كَذَلِيلَا، وَصَوْمِ صَلْبِ هَامَانَ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ جَعَلُوهَا فَرْضًا عَلَيْهِمْ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ نَهَوْا فِي الصَّوَرَةِ عَنِ الزِّيَادَةِ عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْفَرَائِضِ. وَهَذَا نَسَخٌ لَهَا الْبَاقِي.

وَرَأَيْتُهَا أَنْ عِنْدَهُمْ فِي الصَّوَرَةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمَلِكِ الَّذِي يَمْلِكُهُ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَكْبِرَ مِنَ النِّسْوَانِ. لِأَنَّهُ لَا يَطْعَى، وَلَا مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ جَدًّا، مَعَ أَنَّ دَاوُودَ عَمِّهِ اسْتَكْبَرَ مِنَ النِّسْوَانِ، وَوُلِدَتْهُ سُلَيْمَانَ اسْتَكْبَرَ مِنْهُنَّ أَيْضًا، وَمِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ اسْتَكْبَرَ عَظِيمًا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى النِّسَخِ. وَفِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ عِدَّةُ مَوَاضِعَ تَدُلُّ عَلَى مُحَافَظَةِ الْمَشْرُوعِ فِي الصَّوَرَةِ، لَا حَاجَةَ إِلَى اسْتِفْصَالِهَا.

وَخَامِسُهَا أَنَّ الصَّوَرَةَ تَطْلُقُ بِإِتِّعَابِ الْخِتَانِ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ مِنَ الْوِلَادَةِ وَبِشَرِّهِمِ الصَّنَاعِ الْعَمَلِيَّةِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ. وَأَخَذَ الْفَرُضِيُّينَ يَنْسَخُ الْآخَرَ إِذَا تَقَيَّأَ تَابِعَ الْوِلَادَةِ هُوَ السَّبْتِ. وَفِيهَا غَيْرُ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى النِّسَخِ يَعْرِفُهُ مَنْ يُسَمِّنُ فِي تَأْمِيلِهَا.

وَجَوَابُهُ

إِنَّ اللَّفْظَةَ الَّتِي يُعْبَرُ بِهَا فِي اللَّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ عَنِ النِّجَاسَةِ تَسْمَعُ لثَلَاثَةِ مَعَانٍ. فَتَقَالُ عَلَى الْعِصْيَانِ وَخِلَافِ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ رَأْيٍ.

وَتَقَالُ عَلَى الْقَدَارَاتِ كَالْعَانِطِ وَالْبُولِ، وَتَقَالُ عَلَى الْمَعَانِي الْمُنَوَّمَةِ، أَعْنِي لَمْ يَسْ كَذَا أَوْ حَمَلَ كَذَا أَوْ مَسَاقَقَهُ كَذَا. وَمُلَامِسُ الْمَيْتِ إِنَّمَا تَطْلُقُ عَلَيْهِ هَذِهِ اللَّفْظَةُ بِهَذَا الْمَعْنَى الثَّالِثِ.

حاشية ٧٠

أ - قَدْ ظَهَرَ مِنْ بَعْضِ الْحَوَاشِي السَّالِفَةِ شِدَّةَ حِرْصِ الْمُصَنِّفِ عَلَى التَّعَصُّبِ لِلْيَهُودِ بِالتَّمَوُّيَّاتِ وَالْمُعَالِطَاتِ، فَلَا يُؤْمِنُ أَنَّ يَكُونَ قَوْلُهُ هَهُنَا فِي مَعَانِي لَفْظَةِ النِّجَاسَةِ مِنْ هَذَا الْبَابِ، لَا سِيَّمَا وَهُوَ يَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ جَمِيعَ الْمُخَالِفِينَ لِلْيَهُودِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالتَّصَارِي، كَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ لَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ.

ب - حَتَّى وَلَوْ سَلَّمْنَا أَنَّهَا تَطْلُقُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي، فَمَا الَّذِي يُؤْمِنُ أَنَّ قَوْلَهُ بِأَنَّهَا تَطْلُقُ بِالْمَعْنَى الثَّالِثِ هُوَ مِنْ بَابِ الْمُعَالِطَةِ وَالذَّبِّ عَنِ الْيَهُودِ؟ سَلَّمْنَا كُلَّ ذَلِكَ، كَيْفًا نَقُولُ بَعْدَ التَّسْلِيمِ: إِنَّ حُجَّةَ الْمُعْتَرِضِ بِاقِيَّةٍ عَلَى حَالِهَا. أَلَا تَرَى أَنَّ حُضُورَ الْمَيْتِ لَا بُدَّ مِنْهُ وَمِنْ التَّنَجُّسِ بِهِ. فَإِنْ اسْتَعْنَى هَذَا الْمُتَنَجِّسُ عَنْ زَمَادِ الْبَقَرَةِ نَسَخَ. وَإِنْ افْتَضَرَ إِلَيْهِ لِمَتُّهُ النِّجَاسَةُ مَا دَامَ حَيًّا، فَيُزَمُّ أَنَّ يَكُونَ فِي الْيَهُودِ مِنَ الْأَنْجَاسِ مَا لَا يُحْصَى عِنْدَهُمْ، وَهَذَا مِمَّا لَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ. وَتَمَوُّيَةُ الْمُصَنِّفِ هَهُنَا لَا يَكُنِي فِي رَدِّ الْأَعْرَاضِ، وَذَلِكَ مَعْلُومٌ لِلْعُلَمَاءِ.

وَحُكْمُهُ أَنْ لَا يُدَانِي شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْقُدْسِ إِلَّا تَعَدَّ التَّطْهِيرُ بِرِمَادِ الْبَقَرَةِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى وَجْهِ التَّعَدُّ.

حاشية ٧١

لَوْ كَانَ كَلَامُ الْمُصَنِّفِ هَهُنَا صَحِيحًا لَكَانَ حُكْمُ الصَّوَرَةِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُحْتَصًا بِالْهَارُونَئِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُدَانُونَ أُمُورَ الْقُدْسِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: مَنْ حَضَرَ مَيْتًا عِنْدَ مَوْتِهِ أَوْ

مَسَّ عِظَامُهُ أَوْ وَطِئَ قَبْرًا، يَتَنَجَّسُ. وَهَذَا الْحُكْمُ بِعَمِّ جَمِيعِ الْيَهُودِ، قَبْطَلْ جَوَابُ الْمُصَنِّفِ.

وَلَا يُتَمَنَّ مِنَ الصَّلَاةِ وَحَمْلِ الْمُصْحَفِ كُلِّ تَطْهِيرِ

حاشية ٧٢ هَذَا الْكَلَامُ دَعْوَى مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ فَلَا يَلْزِمُهُ الْحَصْمُ إِلَّا إِذَا شَهِدَتْ التَّوْرَةُ بِهِ دُونَ كُتُبِ يَهُودِ الْيَهُودِ الَّتِي قَدْ أَشْجَحْتُ بِالتَّحْكُمَاتِ.

بِذَلِكَ، يَخْلَافُ الْمُتَنَجِّسُ بِالنَّجَاسَةِ الَّتِي بِمَعْنَى مُبَاشَرَةٍ السُّتْقَدْرَاتِ. فَإِنَّ الْمُتَنَجِّسَ بِهَا مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّلَاةِ وَمِنْ حَمْلِ الْمَصَاحِفِ وَيَكْفِي فِي التَّطْهِيرِ مِثْلُ الْمَاءِ فَقَطْ.

حاشية ٧٣ وَهَذَا الْكَلَامُ أَيْضًا تَحْكُمٌ وَدَعْوَى مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ. وَلِلْحَصْمِ أَنْ يَقُولَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ أَغْنَى التَّطْهِيرُ بِالمَاءِ عَنْ رَمَادِ الْبَقَرَةِ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ لَكَانَ عَمَلُ رَمَادِ الْبَقَرَةِ عَيْنًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ بِاعْتِرَافِ الْمُصَنِّفِ، إِلَّا لِلْهَارُونِيِّينَ. لَكِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ يُدَلُّ عَلَى عُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، فَتَبَتَ كَلَامُ الْمُعْتَرِضِ وَلَزِمَ الشُّخْ.

فَقَسَّمَا هَذَا التَّشْكِيكَ الْجَهْلُ بِاخْتِلَافِ مَعَانِي اللَّفْظَةِ الْمَدْلُولِ بِهَا عَلَى النَّجَاسَةِ فِي لَفْظِ الْعِبْرَانِيِّينَ.

وَأَمَّا مَسَائِلُ فَهَيْهَاتُ فَلَيْسَتْ كُلُّهَا مَأْخُودَةً مِنَ التَّقْلِ، بَلْ مِنْهَا مَا هُوَ مَأْخُودٌ مِنَ النَّصْرِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مَأْخُودٌ مِنَ التَّقْلِ، وَمِنْهَا مَا عُرِفَ بِطَرِيقِ النَّظَرِ وَالْقِيَاسِ، وَمُقَدِّمَاتُهُ مَأْخُودَةٌ مِنَ النَّصْرِ وَالتَّقْلِ. وَالْخِلَافُ غَيْرُ وَاقِعٍ فِي التَّقْلِ الصَّحِيحِ وَلَكِنَّهُ يَقَعُ فِيمَا كَانَ عَلَى وَجْهِ النَّظَرِ وَالْاجْتِهَادِ. وَدَعْوَى أَنَّ تَقْلَهُمْ كُلَّهُ مَأْخُودٌ عَنِ الْيَقَاطِ فَهَذَا مَا لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَضْلًا عَنْ جَمِيعِهِمْ.

إِنَّ الْمُصَنِّفَ قَدْ اسْتَكْتَفَرَ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ التَّحْكُمَاتِ الَّتِي لَا يَلْزِمُهَا الْحَصْمُ، وَالْاعْتِدَارُ بِالْبَارِدَةِ الَّتِي لَا يَقْبَلُهَا عَقْلُ الْعَاقِلِ. وَيَكْفِي فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ الْمُطَالَعَةُ بِالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى دَعَاوِهِ.

وَأَمَّا مُتَابِعَتُهُمْ لِأَيُّمَتِهِمْ وَحُكَايَتِهِمْ فِيمَا أَوْجِبُوا عَلَيْهِمْ، مَعَ أَنَّ التَّوْرَةَ قَدْ نُهِيَ فِيهَا عَنِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهَا وَالتَّفْصِيلِ فِيهَا، فَاعْلَمْ أَنَّ التَّوْرَةَ قَدْ أَمَرَتْ بِطَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَّبِعِينَ لِشَرِيعَةِ مُوسَى. وَقَالَ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ إِنَّهُ يَمْتَنِعُ فِي حَقِّهِمْ أَنْ يَأْمُرُوا بِمَا يُبْطِلُ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيعِ الْمُؤَيَّدِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُونُوا مِنْ مُتَّبِعِي تِلْكَ الشَّرِيعَةِ، بَلْ قَدْ يَأْمُرُونَ بِذَلِكَ عَلَى مُقْتَضَى مَصْلَحَةٍ أَوْحَيْتْهَا تِلْكَ الْحَالِ، عَلَى شَرِيعَةٍ أَنْ لَا يَسْتَمِيرَ ذَلِكَ الْإِطْلَاقُ. كَمَا قَرَّبَ إِلَيَّ النَّبِيُّ فِي غَيْرِ الْمَوْضِعِ الْمُنْتَهِي عَنْ التَّقْرِيبِ فِيمَا سِوَاهُ، وَلَا يَجُوزُ اسْتِمْرَارُ ذَلِكَ.

أ - سِيَاقُ كَلَامِ أَوَامِرِ التَّوْرَةِ وَتَوَاهِيهَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يُبْطِلُ أَيْ شَيْءًا كَانَ مِنْهَا أَوْ يَأْمُرُ بِإِطْلَاقِهِ، وَهُوَ لَا يَتَّبِعُهُ نَفْسُهُ إِذْ ذَاكَ بِأَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ، فَهُوَ غَيْرُ مُتَّبِعٍ لِتِلْكَ الشَّرِيعَةِ، سِوَاكَانَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيعِ الْمُؤَيَّدِ أَوْ لَمْ يَكُنْ، لِأَنَّ التَّوْرَةَ لَا تُجْبِرُ ذَلِكَ بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَلَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَإِلَّا لَجَازَ الْأَمْرُ بِحَلِّ السَّبَبِ مَرَّةً وَاحِدَةً لِمَصْلَحَةٍ مِنَ الْمَصَالِحِ. وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ لَكَانَ نَسْخًا لِلتَّوْرَةِ الَّتِي قَدْ كَرَّرَتْ الْأَمْرَ بِالسَّبَبِ وَأَوْجَبَتْ قَتْلَ مَنْ يَفْعَلُ عَمَلًا فِي السَّبَبِ.

ب - وَأَيْضًا فَلِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ الْمَذْكُورِينَ يَلْزِمُهُمْ عَلَى قَوْلِهِمْ هَذَا أَنْ يَكُونُوا غَيْرَ مُتَّبِعِينَ لِشَرِيعَةِ مُوسَى، لِأَنَّهُمْ أَبْطَلُوا حُكْمًا

النصرايين، لكنني التزم رضى النصرايين مطلقاً لا غير، وبالله التوفيق.

فهل جعلتم صفة القدرة اقنوما رابعا؟ وكذا سائر ما يوصف به الله
تعالى اقامه؟

ليس الجعل ولا تركه إلينا، لكننا تقلدناه تقليداً، حتى إننا لو لم نقتله،
لكنه كان مجموعاً مينا، لكان لنا أن نقول في الجواب: إن السبب الذي أوجب
الذي أثبتناه، ومنع الذي نفينا، هو استغناء الميثوب عن الغير، وإفقار
المتنفي إلى الغير. وكيف يجوز لعقل أن يساوي بين صفات الله الذاتية الغريبة
عن التعلق بغيره، وهي الصفات التي تصدق عليه تعالى أولاً وأبداً، سواء
وجدت المخلوقات أم لا، وسواء علمت بعد وجودها أم لا، وبين
الصفات الفعلية الفقيرة إلى التعلق بشيء من المخلوقات. ألا ترى أن قولنا:
«الله حي!» يصدق أولاً وأبداً، من غير إضافة إلى شيء من المخلوقات، ولا
كذلك: «الله قادر» لافقار صفة القدرة إلى وجود المقدور عليه، وقس
على ذلك غيره.

فان قالوا - قدرته هي علمه -، قلنا - وحياته ايضاً هي علمه، فلم
أفردتموها اقنوماً؟

فأما الاتحاد فهو غير معقول، لان الشئين، إذا اتحد، فلما أن
يكونا موجودين أو معدومين أو أحدهما موجوداً والآخر معدوماً. فان كانا
موجودين فلم يتحدا لأنها اثنان، لا واحد. وان كانا معدومين فلا
يصيران واحداً، بل عُلما. وحدث ثالث، وإن علم أحدهما وبني
الآخر، فظاهر أن ذلك ليس باتحاد.

حاشية ٩٣

إذا نحن سلمنا صحة هذا الكلام مسامحة لمن يعتقده صحته، فلا
يضرنا، لأننا نقول: إن هذا إنما يتبع الاتحاد الذي يكون من جميع الوجوه،
دون ما سواه. والحق أن هذا الكلام، مع أنه مذكور في كتب كثيرة، فهو غير
صحيح، والذي تنبأ لفساد هو الإمام العلامة شمس الدين السمرقندي
برأ الله مضجعه؛ وقد ذكر وجه فساد في كتابه الموسوم بشرح الصحائف
الإلهية.

فان فسر الاتحاد بمعنى المازجة والمخالطة والتركيب،

حاشية ٩٤

ليس ذلك ممّا يجوز في دين النصارى؛ فجميع ما يلزمه أو يبني عليه
مردود.

فان كان الآب والابن ذاتين غيرين بحيث يتحد الابن وحده
بالمسيح دون الآب بالمعنى المذكور، فهو يخالف اعتقاد التوحيد. وان
كان الابن صفة، فلا يعقل في الذات العالمية أن تصير - كونها عالمية
- مازجة لجسم من الأجسام دون الذات. كما لا يعقل أن يكون زيد
يتقداً وكونه عالمياً بخرسان. ثم علم كل شيء هو قائم به فليزّم أن
يكون علم الله مع موجوداً فيه وفي المسيح دفعة واحدة، فله صفة الواحدة
في الحالة الواحدة موصوفان، وهو محال. فإن لم يكن عالمياً حال
الاتحاد كان كونه عالمياً حكماً جائزاً فيفتقر إلى مخصص يخصه،
وذلك يخرج عن الإلهية.

والقول بالامتزاج باطل لأنه لا يعقل إلا في الأجسام، والكلمة
عندهم ليست بجسم. فان قالوا - المازجة بالتركيب الارتباطي كالإنسان

وَالْقِصَّةُ مُطْلَقًا أَعْمَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْإِسْتِكْنَارِ مِنْهُ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ مِنْ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالنَّهْيُ عَنِ الْعَامِّ يَسْتَلْزِمُ النَّهْيَ عَنِ الْخَاصِّ لِإِتِّفَاعِ الْخَاصِّ بِإِتِّفَاعِ الْعَامِّ دُونَ الْعَكْسِ، وَالْمُصَنِّفُ خَبِيرٌ بِذَلِكَ وَلَكِنَّهُ يَتَغافلُ عَنِ الْحَقِّ وَيَتَقَوَّمُ بِغَيْرِ الصِّدْقِ تَقَرُّبًا إِلَى قُلُوبِ أَهْلِ مِلَّتِهِ، وَمِمَّا مَعَ هَؤُلَاءِ أَنْفُسِهِمْ.

وَكُونُهُ اسْتَكْنَرَ مِنَ الْبُشُونِ فَقِي نَصْرَ سِفْرِهُ أَنَّهُ أَخْطَأَ بِسَبَبِ تَجَاوُزِهِ عَلَى هَلَاكِ الْفَرِيضَةِ. وَمَنْ وَقَفَ عَلَى مَا قُلْنَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ حُلُّ الْإِسْكَالِ فِي مَا جَاءَ مِنْ أَشْأَلِ ذَلِكَ فِي كُتُبِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَأَمَّا فَرِيضَةُ الْخَنَانِ وَالسَّبْتِ فَالْخَنَانُ إِجَابَةُ اسْتِئْثَانٍ فِي إِجَابِ السَّبْتِ قَلْبُومٍ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ حَيْثُ حُرِّمَتِ الْأَعْمَالُ الصَّنَاعِيَّةُ فِي السَّبْتِ كَانَ الْخَنَانُ مُسْتَثْنًى، فَلَا نَسْخَ.

أَيُّ مَعْنَى لِلنَّسْخِ غَيْرُ ذَلِكَ؟ أَلَيْسَ أَنَّ الْأَعْمَالَ فِي السَّبْتِ مُحَرَّمَةٌ مُطْلَقًا، وَأَنْتُمْ قَدْ جَعَلْتُمْ بَعْضَهَا، وَهِيَ الْخَنَانَةُ فِي السَّبْتِ، وَاجِبَةٌ لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُهَا إِلَى أَمْسِهَا وَلَا تَأْخِيرُهَا إِلَى غَدَا. وَمِنْ هُنَا لَزِمَكُمْ نَسْخُ السَّبْتِ لَزُومًا لَا مَهْرَبَ مِنْهُ.

وَالِاسْتِثْنَاءُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ غَيْرُ مُسْلِمٍ لِأَنَّ التَّوْرَةَ مَا جَاءَتْ بِهِ، فَلَا اعْتِرَاضَ بَاقٍ عَلَى حَالِهِ، وَحُجَّةُ الْمُعْتَرِضِ قَائِمَةٌ لَمْ تَشْدُقْ بِالتَّوْبَةِ الَّذِي أَتَى بِهِ الْمُصَنِّفُ هُنَا.

وَحُلُّ أَشْأَلِهِ لَا يَخْفَى عَلَى ذِي بَصِيرَةٍ.

وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْتِرَاضَاتِ لَا يَتَأَنَّى أَنْ يُورِدَ جَمِيعُهَا إِلَّا مَنْ كَانَ خَارِجًا عَنِ الْمِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَعَنِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لِيَكُونَ

عَقِيدَتِي الْمَلْتَنِي تَتَأَيَّدَانِ إِيرَادَ جَمِيعِ ذَلِكَ، لَكِنْ تَقْتَضِيَانِ إِيرَادَ بَعْضِهِ.

حاشية ٨٢

إِنَّ الْمُصَنِّفَ قَدْ عَوَّدَ لِسَانَهُ التَّحْكُمَاتِ فِي هَذَا الْكِتَابِ حَتَّى قَدْ صَارَتْ مَلَكَةً لَهُ. وَإِلَّا فَكَيْفَ لَمْ يَحْطُرْ بِبَالِهِ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْتِرَاضَاتِ يَتَأَنَّى إِيرَادُ جَمِيعِهَا بَلَى وَإِيرَادُ مَا يَزِيدُ عَلَيْهَا لِلْمُسْلِمِ وَالنَّصْرَانِيِّ وَالْيَهُودِيِّ. أَمَّا الْمُسْلِمُ وَالنَّصْرَانِيُّ فَلَا ظَهَارَ نَسْخِ الشَّرِيعَةِ الْمَوْسُوَّةِ. وَأَمَّا الْيَهُودِيُّ فَلِلتَّقْيِيضِ عَنْ خَفِيَّاتِ شَرِيعَتِهِ، حَتَّى إِذَا تَبَيَّنَ صِحَّتُهَا اسْتَمَرَّ عَلَى التَّعَبُّدِ بِهَا، وَإِذَا تَبَيَّنَ فَسَادُهَا انْتَقَلَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا طَلَبًا لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ.

فَإِنَّ النَّصَارَى يُعْتَرَفُونَ بِسُوءِ مُوسَى وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ عَلَى مِلَّتِهِ عَمَّ، وَبِجَمِيعِ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَهُمْ، وَبِصِحَّةِ التَّوْرَةِ وَكُتُبِ الشُّبُوتِ. وَلَا يُكْبَهُمْ جُحُودُ أَنَّ الْيَهُودَ يُعْرِوْنَ بِالْقِيَامَةِ وَالْمَعَادِ بَعْدَ الْمَوْتِ،

حاشية ٨٣

نَعَمْ النَّصَارَى لَا يَجْحَدُونَ إِقْرَارَ الْيَهُودِ بِالْقِيَامَةِ وَالْمَعَادِ بَعْدَ الْمَوْتِ، لَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ إِنَّ الْيَهُودَ سَفَّوْا هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ غَيْرِ مِلَّتِهِمْ وَلَا وَجُودَ لَهَا فِي تَوْرَاتِهِمْ. وَمَعَ ذَلِكَ لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا الْيَهُودَ قَائِلِينَ: هَلْ الْإِقْرَارُ بِالْقِيَامَةِ وَالْمَعَادِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَرْكَانِ الشَّرَائِعِ الْحَقَّةِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ اعْتَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ أَرْكَانِهَا يُقَالُ لَهُمْ: فَإِذَنْ كَيْفَ خَلَّتْ تَوْرَاتُكُمْ عَنْ ذِكْرِهِ وَأَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ شَرِيعَتَكُمْ حَقَّةٌ. وَإِنْ أَنْكَرُوا أَنَّهُ مِنْ أَرْكَانِهَا فَيُقَالُ لَهُمْ: فَأَنْتُمْ لِمَاذَا دَنَمْتُمْ عَلَى شَرِيعَتِكُمْ مَعَ زَعْمِكُمْ أَنَّهَا شَرِيعَةٌ نَامَةٌ. وَلَا شَكَّ أَنَّ زِيَادَتَكُمْ عَلَيْهَا هَلَاكِ الزِّيَادَةِ وَغَيْرِهَا تُخَالِفُ زَعْمَكُمْ الَّذِي تَزْعُمُونَ.

فَإِنَّ فِي السَّكِينِ أَنَّ قَوْلَ الَّذِي كَانَ اسْمُهُ شَاوُولَ كَانَ يَقُولُ أَنَّهُ مِنَ الْفَرِيشَانِيِّينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالزَّجَاءِ وَالْقِيَامَةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ،

يَخْلَفُ الصَّدُوقَيْنِ الْمُتَزَنِّدَيْنِ فِي الْيَهُودِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ صَدُوقٌ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِذَلِكَ كَلِمَةً . وَالْقَرِيصَانِيُّونَ هُمْ جُمْهُورُ الْيَهُودِ مِنْ قَبْلُ ، وَالآنَ يُسَمَّوْنَ بِالرَّيَابِيِّينَ . وَأَمَّا أَتْبَاعُ صَدُوقٍ فَكَانُوا قَلِيلًا وَانْقَرَضُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَاضْطَحَلَ مَذْهَبُهُمْ .

وَفِي الْإِنْجِيلِ عِدَّةُ مَوَاضِعٍ تُدَلُّ عَلَى قَوْلِ الْيَهُودِ بِالْمَجَازَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، تَظْهَرُ لِمَنْ يَتَأَمَّلُهَا . لَكِنَّهُمْ يَدْعُونَ أَنَّ شَرِيعَةَ التَّوْرَةِ نَسَخَهَا السَّيِّدُ الْمَسِيحُ - هَذَا مَعَ أَنَّ فِي الْإِنْجِيلِ مَا مَعْنَاهُ - إِنِّي لَمْ أَجِءْ لَأَنْقُضَ تَوْرَةَ مُوسَى وَلَكِنْ جِئْتُ أَتِمِّمَهَا بِعَمَلِ الْحَقِّ . آمِينَ آمِينَ ، أَقُولُ لَكُمْ تَتَغَيَّرُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَلَا يَتَغَيَّرُ مِنْ تَوْرَةِ مُوسَى حَرْفٌ وَاحِدٌ وَلَا يَبْطُلُ مِنْ تَوْرَاتِهِ شَيْءٌ وَمَنْ يَنْقُصُ مِنْ تَوْرَةِ مُوسَى صَغِيرَةً أَوْ كَبِيرَةً نَاقِصًا يُسَمَّى فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ .

حاشية ٨٤

مَا نَقَلَهُ الْمُصَنِّفُ هَهُنَا عَنِ الْإِنْجِيلِ لَيْسَ كَمَا هُوَ مُسَطَّوْرٌ فِيهِ . وَأُظِّلُ أَنَّهُ حَرَفُ الْكَلَامِ مُتَابِعَةً لِلْمُعَالِطِينَ ، فَإِنَّ بِالْتَّحْرِيفِ يَتَغَيَّرُ لَهُمْ تَغْلِيظُ الْحَصَمِ وَإِقَامَةُ دَعَاوِيهِمُ الْفَاسِدَةِ .

وَحَيْثُ أَتَكَرَّرَ الْيَهُودُ عَلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ كَوْنُ بَعْضِ أَصْحَابِهِ قَرَلَهُ السُّبُّلُ يَوْمَ السَّبْتِ وَأَكَلَ ، لَمْ يُجِيبْهُمْ بِأَنَّ السَّبْتَ قَدْ نُسِخَ ، بَلْ بَيَّنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْتِجْ مِنْهُ الْمُضْطَرُّ إِلَى الْأَكْلِ كَمَا لَمْ يَنْتِجْ دَاوُدُ حَيْثُ اضْطُرَّ مِنْ أَنَّ أَكَلَ مِنْ مَائِدَةِ الرَّبِّ الَّتِي لَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنْهَا ، وَإِنَّهُ تَمَسَّكَ بِفَرَائِضِ التَّوْرَةِ إِلَى آخِرِ وَقْتِهِ .

حاشية ٨٥

أ - لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ السَّيِّدَ الْمَسِيحَ إِنَّمَا أَجَابَ هَذَا الْجَوَابَ تَنْبِيْهُاً لِلْيَهُودِ عَلَى أَنَّ شَرِيعَتَهُمْ قَدْ نَسَخَهَا دَاوُدُ بِمَا جَرَى مِنْهُ يَوْمَئِذٍ ، وَعَلَى هَذَا فَلَا يَكُونُ قَرَلُهُ السُّبُّلِ فِي السَّبْتِ مِمَّا يَجِبُ إِنْكَارُهُ ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ

نَسَخًا زَائِدًا عَلَى النَّسَخِ الَّذِي كَانَ مِنْ دَاوُدَ ، وَإِلَّا لَكَانَ تَحْصِيلًا لِلْحَاصِلِ . إِذِ الْمَقْهُومُ مِنَ النَّسَخِ هُوَ مَقْهُومٌ وَاحِدٌ .

ب - وَأَيْضًا فَإِنَّ السَّيِّدَ الْمَسِيحَ لَوُ تَمَسَّكَ بِفَرَائِضِ التَّوْرَةِ كَمَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ ، لَمَا كَانَ لِلْيَهُودِ إِلَى قَتْلِهِ مِنْ سَبِيلٍ . فَإِنَّ أَعْظَمَ مَا شَعُوا عَلَيْهِ بِهِ كَانَ حَلَّ السَّبْتِ ، لِأَنَّهُ فِي سُبُوتٍ مُتَّفَقَةٍ فَتَحَ عَيْنِي الْأَكْمَهَ وَأَبْرَأَ يَدَ الْأَسْأَلِ ، وَأَقَامَ الْمُحَلَّلَ الَّذِي كَانَ مُلْقًى مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَأَمَرَهُ بِحَمْلِ سَرِيرِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نَقَلَ عَنْهُ .

وَكَذَلِكَ أَصْحَابُهُ بَعْدَ رَفْعِهِ ، إِلَّا أَنَّ فُلُوسَ مَتَّعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ ، عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى مُخَالَفَةِ سَائِرِ الْأُمَمِ .

حاشية ٨٦

أ - النَّصَارَى لَا يُسَلِّمُونَ ذَلِكَ لِأَنَّ أَصْحَابَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ إِنَّمَا مَكَّنُوا فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ بَعْدَ صُعُودِهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، لِأَنَّهُ كَانَ أَمْرُهُمْ أَنْ يَمْكُنُوا إِلَى حِينَ يَبْعَثَ إِلَيْهِمُ الرُّوحَ الْقُدْسَ . فَلَمَّا أُنْجِزَ وَعْدُهُ هَذَا فِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ مِنْ صُعُودِهِ أَفَادَهُمُ الرُّوحُ الْقُدْسُ أَشْيَاءَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ قَبْلَ حُلُولِهِ عَلَيْهِمْ ، مِنْ جُمْلَتِهَا تَعْلِيمُهُمْ لُغَاتِ الْأُمَمِ . وَحِينَئِذٍ تَقَرَّفُوا فِي الْبِلَادِ وَدَعَاوِ النَّاسِ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ دُخُولِ فُلُوسَ فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ بِسَوَاتٍ كَثِيرَةٍ .

ب - وَإِنَّمَا تَخَلَّفَ فِي الْبِقَاعِ الْقَرِيْبَةِ مِنَ الْقُدْسِ أَتْبَاعُ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ ، وَكَانَ بَحْثُ فِي طَلَبِهِمُ الْيَهُودَ وَطَلَبِهِ مِنْ مُجِيبٍ إِلَى دَعْوَاهُمْ ، وَكَانُوا يُوقِعُونَ الْفِعْلَ بِسَنَ يَطْفُرُونَ بِهِ ، حَتَّى فُلُوسُ نَفْسَهُ كَانَ شَدِيدَ الْحَرَصِ عَلَى دُخْضِ هَذِهِ الدَّعْوَى وَعَلَى هَلَاقِ مَنْ يُصَلِّفُهَا إِلَى حِينَ اخْتَارَ اللَّهُ إِدْخَالَهَا فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ بِالْآيَةِ الَّتِي أَظْهَرَهَا لَهُ ، فَانْقَلَبَ بَعْدَ ذَلِكَ

إِلَى التَّصَبُّرِ لِلنَّصْرَانِيَّةِ غَيْرِ مُبَالٍ بِالشَّدَائِدِ الَّتِي قَاسَاهَا بِسَبَبِ ذَلِكَ، مِنْ
الْجَلْدِ وَالْحَبْسِ وَالْهَوَانِ، إِلَى حِينَ يَذَلَّ نَفْسُهُ بِالْكَلْبَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

وَالْمُسْلِمُونَ أَيْضًا اعْتَرَفُوا بِثُبُوتِ مُوسَى وَمُعْجَزَاتِهِ وَبِثُبُوتِ أَنْبَاءِ قَبْلِهِ
وَبَعْدَهُ وَمُعْجَزَاتِهِمْ، وَيُؤَافِقُونَ عَلَى اغْتِرَابِ الْيَهُودِ بِتَوَابِرِ الْجَنَّةِ
وَعِقَابِ النَّارِ. أَمَّا الْجَنَّةُ فَكَيْفَ مَآ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَقَالَ - لَنْ
يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى -، بِمَعْنَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنَ
الطَّائِفَتَيْنِ حَكَمَتْ بِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ طَائِفَتِهَا. وَأَمَّا
النَّارُ فَكَمَا جَاءَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَقَالُوا - لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ
إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً. وَهُوَ حِكَايَةُ قَوْلِ الْيَهُودِ بِإِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ. وَوَرَدَ
فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا أَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ذِكْرُ الْآخِرَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ
الصَّحْفِ - بَلْ تُؤْمِنُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَنِي
الصَّحْفِ. الْأَوَّلُ صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

حاشية ٨٧

قَدْ نَقَلَ الْمُصَنِّفُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ حُجَّةٌ لَهُ فَإِذَا بِهِ وَهُوَ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَيْهِ
مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِيهِ إِشْعَارًا بِأَنَّ التَّوْرَةَ الَّتِي بِأَيْدِي الْيَهُودِ لَيْسَتْ مِنْ صُحُفِ
مُوسَى لِخُلُوقِهَا عَنْ ذِكْرِ الْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ،
ذَلِكَ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ وَهَذَا لِأَهْلِ الْمُنَافِقَةِ. وَإِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْ صُحُفِ مُوسَى
يَلْزَمُ أَنَّ تَكُونَ مِنْ صُحُفِ غَيْرِهِ. وَعَلَى هَذَا يَلْزَمُ صِدْقُ الْمُعْتَرِضِ حَيْثُ
قَالَ فِي السَّالِفِ إِنَّهَا كِتَابُ عَزْرَا، وَهُوَ الَّذِي لَفَّقَهَا بَعْدَ ذَهَابِهَا.

لِكَيْتُمْ يَقُولُونَ إِنَّ التَّوْرَةَ مُبَدَّلَةٌ، وَيُنْكِرُونَ صِحَّةَ تَوَاتُرِ الْيَهُودِ فِي
تَقْلِيلِهَا. وَقَالُوا ذَلِكَ مَعَ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ فِي الْأَخْيَارِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوْرَةَ
كَانَتْ فِي زَمَانٍ مُقَدَّمَ صِلَاحِ عَيْدِ الْيَهُودِ، يَتْلُو - وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ
الْمُؤَافَقَةِ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ - وَلَمْ يَقُلْ إِنَّ عَيْدَهُمْ بَعْضُ التَّوْرَةِ،

وَلَا إِنَّهَا مُحَرَّفَةٌ. وَأَيَّاتُ كَثِيرَةٌ تُشْعِرُ بِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ - مِنَ الَّذِينَ هَادُوا
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ - وَكَذَا قَوْلُهُ - قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ
الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا - لَا
يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِشَارَةَ فِيهِ إِلَى التَّوْرَةِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي الْيَهُودِ مَنْ يَرَوِي
الْأَحَادِيثَ الْكَافِيَّةَ، كَمَا فِي الْمُسْلِمِينَ.

وَتَحْرِيفُ التَّوْرَةِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ، قَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ عَاقِلٌ.
وَلَا تَتِمُّ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ إِلَّا مَعَ الْقَوْلِ بِأَنَّ شَرِيعَةَ مُوسَى مُنْسُوخَةٌ.
ولهذا افْتَقَرُوا إِلَى رَفْعِ تَوَاتُرِ الْيَهُودِ، وَالْقَوْلِ بِتَحْرِيفِ التَّوْرَةِ، حَتَّى
لَا يَبْقَ لِلزَّامِئِهِمْ بَيِّنَةٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَأْيِيدِهَا وَعَدَمِ نَسْخِهَا.

وَوَهْمُهُمْ مِنْ حَمَلِ الْفَاطِ الْتَأْيِيدِ الَّتِي فِي التَّوْرَةِ عَلَى أَنَّهَا اسْتَعْيِلَتْ فِي
مَا يَبْقَى مُدَّةً طَوِيلَةً، كَمَا جَاءَ فِيهَا فِي الْعَبْلِ الْيَبْرِ أَنَّهُ يُسْتَحْدَمُ سِتًّا
سِتِينَ، ثُمَّ يُعْتَقُ فِي السَّابِغَةِ، فَإِنَّ أَبِي الْعَبْقُ فَلْتَلْقُبُ أَذُنُهُ وَيُسْتَحْدَمُ
أَيْدَاهُ. وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ يُسْتَحْدَمُ إِلَى خَمْسِينَ سِتًّا، كَمَا صَرَحَ بِهِ فِي
مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَقَالَ الْيَهُودُ إِنَّا لَا نقُولُ عَلَى مُجَرَّدِ الْفَاطِ التَّأْيِيدِ، وَلَا نُكْبِرُ أَنَّهَا
قَدْ شَتَمَتْ مُجَازًا فِي غَيْرِهِ، بَلْ نقُولُ إِنَّا نَحْنُ نَعْلَمُ بِاضْطِرَارٍ مِنَ الْفَاطِ
التَّأْيِيدِ، وَمِنْ قُرَائِنِ غَيْرِهَا مِنَ التَّوْرَةِ، وَكُتِبَ الْأَنْبِيَاءُ وَكَلَامُ حَمَلَةِ
الشَّرِيعَةِ، أَنَّ مُوسَى كَانَ يَتَنَبَّأُ بِدَوَامِ شَرِيعَتِهِ، كَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ
أَنَّ شَرِيعَتَكُمْ لَا تُنْسَخُ - لَا مِنْ مُجَرَّدِ الْأَوَّلَةِ الْفَلْطِيَّةِ عِنْدَكُمْ،
لِكُونِهَا لَا تُقْبَلُ الْيَقِينَ.

أَجَابَهُمُ الْمُسْلِمُونَ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَا زَعَمْتُمْ لَعَلِمَ ذَلِكَ كُلُّ مَنْ
خَالَطَكُمْ، مَعَ أَنَّ النَّصَارَى، عَلَى كَثَرَتِهِمْ وَقَرَاءَتِهِمْ لِكِتَابِكُمْ، لَا
يَعْلَمُونَ ذَلِكَ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ، لَمَّا عَلِمَ مِنْ ذِينِ مُحَمَّدٍ أَنَّ شَرِيعَتَهُ لَا

نُسَخَ، عَلِمَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُ، وَغَيْرُ الْمُسْلِمِ مِنْ يُخَالِطُ الْمُسْلِمِينَ.
وَالْيَهُودُ أَنْ يَقُولُوا - لَوْ خَالَطْنَا غَيْرَنَا عَلَى نَحْوِ مُخَالَطَتِنَا لِلْمُسْلِمِينَ
لَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْ دِينِنَا بِالضَّرُورَةِ، وَلَيْسَتْ مُخَالَطَةُ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ وَمَا
يَقْتَضِي تَحَقُّقُ كُلِّ مَا يَتَحَقَّقُونَهُ، لَا سِيَّمَا مَعَ مَتَّبِعِهِ مِنَ الْإِعْلَانِ
بِمَعْتَقِدِهِمْ، وَكَوْنِ كُتُبِهِمْ بِلُغَةٍ لَا يَعْرِفُهَا الْمُسْلِمُونَ، وَكَوْنِ مُخَالَطَةِ
الْأَقْلَرِ لِلْأَكْثَرِ لَيْسَ كَمُخَالَطَةِ الْأَكْثَرِ لِلْأَقْلَرِ. أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَقْلَرِ مِنْ أَهْلِ
لُغَةٍ، إِذَا خَالَطَ الْأَكْثَرِ مِنْ أَهْلِ لُغَةٍ أُخْرَى، تَعَلَّمَ الْأَقْلَرُ لُغَةَ الْأَكْثَرِ، مِنْ
غَيْرِ تَعَلُّمِ الْأَكْثَرِ لُغَةَ الْأَقْلَرِ أَوْ قَبْلَ تَعَلُّمِهِ. هَذَا مَعَ أَنَّ مُعْظَمَ الْيَهُودِ، مَعَ
كَثَرَةِ مُخَالَطَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ، قَدْ وَجَدَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْهَلُ مِنَ الْأَصُولِ
الْإِسْلَامِيَّةِ مَا لَا يَجْهَلُهُ الْعَوَامُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَضْلًا عَنِ الْخَوَاصِّ
مِنْهُمْ. فَوَقُوعُ مِثْلِ ذَلِكَ فِي جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ أَوَّلَى، وَلَا أَقْلَرُ مِنَ
الْمُسَاوَةِ.

ثُمَّ كَيْفَ يُتَكَبَّرُ مِثْلَ هَذَا مَنْ يَجِدُ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَتَكَرَّ مَا ادَّعَى
فِيهِ الْبَعْضُ الْآخَرُ التَّوَاتُرَ، وَهُوَ النَّصُّ الْجَلِيُّ فِي الْإِمَامَةِ، مَعَ شِدَّةِ
الْمُخَالَطَةِ الَّتِي لَا تُجْحَدُ. وَكَذَا أَتَكَرَّرَ الْبَعْضُ الْآخَرُ مَا ادَّعَاهُ ذَلِكَ
الْبَعْضُ مِنْ تَوَاتُرِ تَعْظِيمِ النَّبِيِّ سَائِرِ الصَّحَابَةِ، وَبِشَارِكِهِ لِبَعْضِهِمْ
بِالْجَنَّةِ، وَتَنَائِيهِ عَلَيْهِمْ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ يُتَكَبَّرُ مَا يَدَّعِي فِيهِ
الْقَرِيبُ الْآخَرُ التَّوَاتُرَ.

الفصل الثالث

حَوَاشِي أَبْنِ الْحَرَمَةِ
عَلَى لِبَابِ الثَّالِثِ مِنْ كِتَابِ
«نَتِيقِجِ الْأَبْحَاثِ لِلِمِلَلِ الثَّلَاثِ»
(فِي الْمَسِيحِيَّةِ)

حَواشي آبنِ المحرّمة
على البابِ الثالثِ من كتاب
« تنقيح الأبحاث للميل الثالث »
(في المسيحية)

في ذكر معتقّد النصارى في السيّد يسوع المسيح ، وهو عيسى ابنُ مريمَ عَمَ ، وما جاء به ، وكيفيّة كونه نبياً وإلهاً عندَهُم ، وما يتعلّق بذلك من الإبرادات وأجوبيّتها .

قالوا : - نحنُ مؤمنون بكل ما جاء في التوراة وفي آثار بني إسرائيل التي لا مدّفع في صدقها لشهرتها وعلاقتها في الجاهير العظام . ونؤمنُ بأنه في أخريات أمرهم وعقائهم تجسّمت اللاهوتيّة وصارتُ جَنِيَّةً في بطنِ عَذْراء من أشرف نساء بني إسرائيل من نسلِ داود ، أولدته ناسوتيّ الظاهر لاهوتيّ الباطن ، نبياً مرسلّاً في ظاهره وإلهاً مرسلّاً في باطنه . فهو إنسانٌ تامٌّ وإلهٌ تامٌّ . وذلك هو المسيحُ المُسمّى عندَهُم بامر الله . والله هو الآبُ وهو الابنُ وهو روحُ القدس .

قالوا : - نحنُ مُوجِّدون بالحقيقة وإنّ ظَهَرَ على ألسِنَتنا التثليث . ونؤمنُ به وبحلوله في بني إسرائيل إجلالاً لهم على ما لم يزل الأمر الإلهي يُصِلُّ بهم حتى عصى جمهورهم هذا المسيحَ وصلّوه وصار السخطُ مُستعيراً على جمهورهم والرضا على الأفراد التابعين للمسيح الذين اختصّ منهم التي عَشَرَ شُخصاً كعِدَّة الأسباط من بني إسرائيل ثم على الأمم التابعين لأولادك

الأفراد. ونحن من بني إسرائيل، وإن لم تكن من ذُرِّيَّتِهِمْ. فالأولى أن نكون نحن الذين نَسَمَّى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لِاتِّبَاعِنَا الْمَسِيحَ وَأَصْحَابَهُ. وَتَبَعَ أَوْلَائِكَ الْأَفْرَادَ جَاعَةً صَارُوا كَالْخَمِيرَةِ لِأَمَّةِ النَّصَارَى. وَاسْتَحَقُّوا دَرَجَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَصَارَ لَهُمُ الْفَقْرُ وَالِاتِّشَارُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَمَمِ دَاعِينَ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، مُكَلِّفِينَ الْعَمَلَ بِهِ مِنْ تَعْظِيمِ الْمَسِيحِ، وَتَعْظِيمِ صُلَيْبِهِ، وَتَشْيِخِ أَحْكَامِهِ وَوَصَايَا الْجَوَارِينَ أَصْحَابِهِ، وَقَوَائِنِ مَأْخُوذَةٍ مِنَ التَّوْرَةِ الَّتِي تَقْرَأُهَا، وَلَا مَدْفَعٍ فِي حَقِيقَتِهَا، وَإِنَّمَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِذِهِ الدَّعْوَةِ أَتَبَعُوهَا طَوْعًا، عَنْ اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ وَرَضَى، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقُوا إِلَيْهَا يَسِيفٍ وَلَا قَهْرٍ.

والتحق النصارى على هذه الأمانة بعد اجتماع ثلاثمائة وثمانية عشر نفسا عليها في زمن قسطنطين الملك، ومعناها هو هذا:

تؤمنُ بالإِلَهِ الْوَاحِدِ، الْآبِ، مَاسِكِ الْكُلِّ، صَانِعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكُلِّ مَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى؛ وَبِالْوَحِيدِ الرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، ابْنِ اللَّهِ الْوَحِيدِ، بِكَرْ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ الَّذِي وُلِدَ مِنْ أَبِيهِ قَبْلَ كُلِّ الْعَالَمِ وَلَيْسَ بِمَصْنُوعٍ، نَوْرٍ مِنْ نَوْرٍ، إِلَهٌ حَقِيقٍ مِنَ إِلَهٍ حَقِيقٍ، مِنْ جَوْهَرِ أَبِيهِ الَّذِي بِهِ أُنْفِثَتْ الْعَالَمُ وَخُلِقَ كُلُّ شَيْءٍ، الَّذِي لِأَجْلِنَا، مَعِشَرِ الْبَشَرِيِّينَ، وَلِأَجْلِ نَجَاتِنَا هَبِطَ مِنَ السَّمَاءِ وَتَجَسَّمَ مِنْ رُوحِ الْقُدُسِ وَصَارَ إِنْسَانًا وَخُيِّلَ بِهِ وَوُلِدَ مِنْ مَرْيَمَ الْبَتُولِ وَتَأَلَّمَ وَصُلِبَ فِي أَيَّامِ فُلْطِيئُوسَ فِيلَاطُوسَ وَدُفِنَ وَاتَّيَتْ لثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، كَمَا كُتِبَ، وَصُعِدَ إِلَى السَّمَاءِ وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ أَبِيهِ. وَهُوَ مَزْمَعٌ لِأَنَّا يَأْتِي لِيُدِينَ الْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءَ، وَبِالْوَحِيدِ رُوحِ الْقُدُسِ رُوحَ الْحَقِّ الْمُنْتَشِ مِنْ الْآبِ، الرُّوحِ الْمُحْيِي، وَبِبِعَّةِ وَاحِدَةٍ مُقَدَّسَةٍ سَلْبِيَّةٍ جَالِيلِيَّةَةٍ.

وَتُؤْمَنُ بِمَعْمُودِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لِقُرَّانِ الْخَطَايَا وَبَاتِعَاثِ أَجْسَادِنَا وَبِالْحَيَاةِ الْآبَدِيَّةِ.

هذا آخر أمانتهم.

ولم أجد بينَ البَغُوتِيَّةِ مِنْهُمْ وَالنَّسُطُورِيَّةِ فِيهَا خِلَافًا فِي الْمَعْنَى إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ فِي الشُّحَّةِ الَّتِي أَخَذْتُهَا مِنَ الْبَغُوتِيَّةِ «الَّذِي بِهِ أُنْفِثَتْ الْعَالَمُ وَخُلِقَ كُلُّ شَيْءٍ»، وَوُجِدْتُ عَوَضَ «كَمَا كُتِبَ» - «كَمَا أَرَادَ»، وَفِيهَا زِيَادَاتٌ لَا تُنَافِي هَذِهِ الْعَقِيدَةَ. وَالتَّقْوَا عَلَى أَنَّ أَقْوَمَ الْآبِ هُوَ الْذَاتُ وَأَقْوَمُ الْإِبْنِ هُوَ الْكَلِمَةُ وَهِيَ الْعِلْمُ، وَأَنَّمَا لَمْ تَزَلْ مُتَوَلِّدَةً مِنَ الْآبِ لَا عَلَى سَبِيلِ التَّنَاسُلِ بَلْ كَتَوَلُّوْضِ الشَّمْسِ مِنَ الشَّمْسِ. وَأَقْوَمُ رُوحُ الْقُدُسِ هُوَ الْحَيَاةُ، وَأَنَّمَا لَمْ تَزَلْ فَائِضَةً مِنَ الْآبِ.

والتفقوا أيضًا على اتحاد الكلمة بالسيد المسيح عيسى عَم. واختلقوا في الاتحاد.

فظاهر قول البَغُوتِيَّةِ أَنَّهُ يَمَعْنِي الْمُمَارَجَةِ وَالْمَخَالَطَةَ حَتَّى صَارَ مِنْهَا شَيْءٌ ثَالِثٌ، كَمَا تَفَرِّجُ النَّارُ بِالْفَحْمَةِ فَيَصِيرُ مِنْهَا جِجْرَةً، وَالجِجْرَةُ كَيْسَتْ نَارًا خَالِصَةً وَلَا فَحْمَةً خَالِصَةً. وَجَعَلُوا ذَلِكَ بِمَعْنَى التَّرَكِيبِ الْإِتْرَاطِي، وَإِنْ كَانَ مِنْ جِسْمَانِي وَرُوحَانِي كَحَالِ النَّفْسِ الْمُجَرَّدَةِ وَالْجَدَنَ، فَإِنَّ أَحَدَهُمَا

ارتبط بالآخر حتى صاروا شخصاً واحداً. فقالوا إن المسيح جَوْهَرٌ من جَوْهَرَيْنِ وَأَقْنُومٌ من أَقْنُومَيْنِ.

وظاهر قول السبطونية أن الاتحاد هو على معنى أن الكلمة جَعَلَتْهُ هيكلاً ومَحَلًّا وأدْرَعَتْهُ إِدْرَاعًا. وَلِذَلِكَ قالوا إن المسيح جَوْهَرَانِ أَقْنُومان. وقال بعضهم إن الاتحاد وَقَعَ بِهِ كما اتَّحَدَ نَفْسُ الْفَصِّ بِالشَّمْعِ، وصورة الوجه بالمرآة، من غير أن يكون قد انتَقَلَ النَفْسُ من الْفَصِّ إلى الشَّمْعِ أو الوجه إلى المرآة.

وبعضهم يقول - اتَّحَدَ الكلمة به هو أن ظَهَرَتْ وَدَبَّرَتْ على يديه. فَأَمَّا الِهْلِكَايَةُ فَإنَّهَا قالت إن المسيح جَوْهَرَانِ، أَقْنُومٌ واحد، لَأَنَّ الاتحادَ وَقَعَ بِالْإِنْسَانِ الْكَلْبِيِّ لَا الْجَزْفِيِّ. والمراد بالأقنوم هو الشخص. وكلُّ النَّصَارَى يُؤْمِنُونَ بِعَثِّ الْأَجْسَادِ وبِالْتَوَابِ في الْجَنَّةِ، وَيُعَيِّرُونَ عَنِهَا بِالْمُرْدُوسِ، وبِالْعُقَابِ فِي جَهَنَّمَ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ إِلَّا بِالتَّوَابِ وَالْعُقَابِ الرُّوحَانِيِّينَ دُونَ الْجِسْمَانِيِّينَ. وقالوا إن الصَّالِحِينَ يَصِيرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ كَالْمَلَائِكَةِ، أَوْ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ. وَيَعْتَقِدُونَ بقاءَ الْأَنْفُسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بعدَ خَرَابِ الْأَجْسَادِ بِالْمَوْتِ.

وَأَجْمَعُوا عن آخرهم أَنَّ شَرِيعَتَهُمُ الَّتِي شَرَعَ بِهَا السَّيِّدُ الْمَسِيحُ وَأَصْحَابُهُ لَا تُنْسَخُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَعَلَّمُوا ذَلِكَ نَقْلًا عن الْجَوَارِيَيْنِ كَوْنَهُمْ عَلِمُوهُ مِنْ رَأْيِهِمْ عَلَمًا ضَرُورِيًّا، لَا ارْتِيَابَ فِيهِ.

وقلوا عن المسيح في الأنجيل الأربعة، أعني انجيل متى وإنجيل

مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا معجزات كثيرة. فإنها تَقْصُصُ أَنَّهُ أَحْيَا ثَلَاثَةَ مَوْتَى: واحداً قبل أن يُجْعَلَ في التابوت، وآخر وهو في التابوت قبل أن يُدْفَن. وآخر بعد أن دُفِنَ بأربعة أيام.

ويوحنا هو الذي ذَكَرَ في إنجيله إحياء الثالث. وفي بعض الأناجيل ذُكِرَ واحدٌ منهم فقط، وفي بعضها اثنان ولم يذكرُوا، فبما عدا انجيل يوحنا، إحياء المدفونين منهم. واتفقوا فيما عداه على إحياء الذي لم يُجْعَلْ في التابوت، وأبْرَأَ الزَّيْنِ والأَبْرَصَ، وَحَوَّلَ الماءَ خَمراً. وَأَشْبَعَ خَمْسَةَ آلَافٍ رَجُلًا، عدا النِّسْوانَ والأطفال، من سَمَكَيْنِ وخمسة أرغفة؛ وأخرج الشياطينَ من النَّاسِ، وَكَشَفَ أَسْقَامًا كثيرةً، ومشى على الماء. وغير ذلك من معجزاته عَمَّ.

وفي الأناجيل الأربعة اختلاف كثير، قد تَقَسَّفَ علماؤهم للتوفيق بينها. وفيها أمثال كثيرة وموايعظ. وفيها الأُمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، مثلُ قولِهِ ما معناه - إن أنتم كَافِمَتِ السَّيِّئَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ فلا أُجْرَ لَكُمْ عند أبيكم الذي في السماء ولا حَسَنَةً - ومثل - إن أنتم غَفَرْتُمْ لِنَبِيِّ الْبَشَرِ سَيِّئَاتِهِمْ فإن أبائكم الذي في السماء يَغْفِرُ لَكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وإن لم تَغْفِرُوا فلا يَغْفِرَ لَكُمْ.

وقد كان بين النصاري اختلاف كثير في العقيدة، كما أن منهم من أثبت لابن كوثاً زمانياً وقال إن الله أحدث الابنَ وَوَضَعَ إِلَيْهِ خَلْقَ الْعَالَمِ، والباثون قالوا إنه وُلِدَ من أبهِ قبل كُلِّ الْعَوَالِمِ وليس بمصنوع، كما هو في الأمانة المَشْتَرَكَةُ عليها. وقد كان لهم اجتماعات كثيرة لإزالة الخلاف بينهم

فأحرم فيها بعض المخالفين وأدت إلى سفك دماء كثيرة منهم. يُعرف ذلك من تواريتهم.

وتغير أحكام التوراة، كإباحة لحم الخنزير، وترك الختان والغسل، مروى عن الجوارين، لا عن السيد المسيح، فإنه لم يزل متمسكاً بأحكامها إلى أن قبضت اليهود عليه.

حاشية ٨٨ هذا الكلام مردودٌ بحلِّ السيد المسيح للسبت، وغير ذلك، وقد ذكره المصنّف في السالف وكتبنا عليه حاشية^(١) هناك.

وكان يامر بها وقال - ما جئت لأتقّصها. وحيث أنكروا عليه ما توهّموه بتفريطاً في بعض أحكامها بيّن لهم أنه ليس بتفريط وأوضح لهم ذلك مما يقتضيه فقههم وشرعهم، كما هو مذكور في الإنجيل!

حاشية ٨٩ لم لا يجوز أنه أراد بذلك أن يدلّ على عمى^٢ بصائرهم، وأنهم يعتقدون الباطل حقاً، والحق باطلاً، كما هو المَعهودُ منهم ومن أسلافهم، منذ زمان موسى وإلى الآن. والدليل على تصحيح هذه الدّعوى تفريع الأنبياء لبي إسرائيل بما هو مشهور في كتبهم عليهم السلام.

وبقي أصحابه على التمسك بها مدة طويلة إلى أن أظهروا المخالفة لها والإعلان بتسخيها،

حاشية ٩٠ قد عرفت جواب ذلك حيث ذكره المصنّف قبل هذه المرّة وكتبنا عليه حاشية.

(١) حاشية.

(٢) عا.

وأنها، إنَّما كان يلزم العملُ بها إلى حين ظهور السيد المسيح، لا غير، وأكثر ذلك عن رأي فولوس الرسول.

ومخالفو النصارى هم ان يقولوا

إن هذه الأقسام التي ذكرتموها، إن كان مرادكم بها ذوات ثلاثاً قائمةً بأنفسها، فبرهان الرّجائية يُبطلها، وهو أيضاً على خلاف معتقديكم في التوحيد. وإن كان مقصودكم أنها صفات، أو أحدها ذات والباقيتين صفتان،

حاشية ٩١ أ - نعم هذا هو مقصود النصارى، وأنت قد نقلته عنهم حيث قلت: «وانفقوا على أن أقوم الآبر هو الذات»، واعلم أن العبد الضعيف يقتنع بالأجوبة التي سوف يذكرها المصنّف بعد فراغه من الاعتراضات، إلا في مواضع قليلة أهملها المصنّف أو لم يستوفِ الجواب عنها. وذلك قد يأتي في أثناء الاعتراضات وقد يأتي في أثناء تلك الأجوبة التي تأتي فيما بعد.

ب - وجميع الذي أذكره في هذه الخواشي إنَّما أذكره على شريطة الاقتصاد على القليل، وذلك لأن إشباع الكلام في دين النصارى تضيق عنه هذه الخواشي لوجوه يطول ذكرها، فلهذا أقصر على بعض الذي عندي ليكون ذلك بمنزلة التنبيه للقارئ على حال الطائعتين في هذا الدين هل أنصفوا في الطعن أم لا. على أنني لا أترجم رضى جميع فرق الملة

(١) ثلاثة. (P)

(٢) الهاليتان (P)

(٣) عن

النَّصْرَانِيَّةَ، لَكِنِّي أَلْتَزِمُ رِضَى النَّصْرَانِيَّةِ مُطْلَقًا لَا غَيْرَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.

فهلّا جعلتم صفة القدرة أقنوما رابعا؟ وكذا سائر ما يوصف به الله
نع أنتم؟

حاشية ٩٢

ليس الجعل ولا تركه إلينا، لكنّا نتقلدناه تقليدًا، حتى إنّا لو لم نَتَقَلَّدْهُ،
لَكَيْتَ كَانَ مَجْعُولًا مِنَّا، لَكَانَ لَنَا أَنْ نَقُولَ فِي الْجَوَابِ: إِنَّ السَّبَبَ الَّذِي أَوْجَبَ
الَّذِي أَثْبَتْنَاهُ، وَمَتَّعَ الَّذِي نَقَبْنَاهُ، هُوَ اسْتِغْنَاءُ الثَّبُوتِ عَنِ الْغَيْرِ، وَاتِّقَارُ
الْمَفْعِيِّ إِلَى الْغَيْرِ. وَكَيْفَ يَجُوزُ لِعَاقِلٍ أَنْ يُسَاوِيَ بَيْنَ صِفَاتِ اللَّهِ الذَّاتِيَّةِ الْفَرِيدَةِ
عَنِ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِهِ، وَهِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي تَصُدِّقُ عَلَيْهِ تَعَالَى أَرْلًا وَأَبَدًا، سَوَاءٌ
وُجِدَتْ الْمَخْلُوقَاتُ أَمْ لَا، وَسَوَاءٌ عَلِمَتْ بَعْدَ وُجُودِهَا أَمْ لَا، وَبَيْنَ
الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ الْفَقِيرَةِ إِلَى التَّعَلُّقِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ. أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَنَا:
«اللَّهُ حَيٌّ!» يَصُدِّقُ أَرْلًا وَأَبَدًا، مِنْ غَيْرِ إِضَافَةٍ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا
كَذَلِكَ: «اللَّهُ قَادِرٌ» لَافْتِقَارِ صِفَةِ الْقُدْرَةِ إِلَى وُجُودِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ، وَفَسْ
عَلَى ذَلِكَ غَيْرُهُ.

فان قالوا - قدرته هي علمه -، قلنا - وحياته ايضا هي علمه، فلم
أفردتموها أقنوما؟

فأما الاتحاد فهو غير معقول، لان الشيتين، إذا اتحدا، فلما أن
يكونا موجودين أو معدومين أو أحدهما موجودا والآخر معدوما. فان كانا
موجودين فلم يتحدوا لأنها اثنان، لا واحد. وان كانا معدومين فلا
يعيران واحدا، بل عُلِمَا. وحدث ثالث، وان عُلِمَ أحدهما وبقي
الآخر، فظاهر أن ذلك ليس باتحاد.

حاشية ٩٣

إِذَا نَحْنُ سَلَّمْنَا صِحَّةَ هَذَا الْكَلَامِ مَسَامَحَةً لِمَنْ يَتَقَلَّدُ صِحَّتَهُ، فَلَا
يَضُرُّنَا، لِأَنَّا نَقُولُ: إِنَّ هَذَا إِنَّمَا يَمْتَنِعُ الْإِتِّحَادَ الَّذِي يَكُونُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ،
دُونَ مَا سِوَاهُ. وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ، مَعَ أَنَّهُ مَذْكُورٌ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ، فَهُوَ غَيْرُ
صَحِيحٍ، وَالَّذِي تَنَبَّهَ لِفُسَادِهِ هُوَ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ شَمْسُ الدِّينِ السَّمَرْقَنْدِيُّ
بِرَدِّ اللَّهِ مُضْجَعُهُ، وَقَدْ ذَكَرَ رَجَحَةَ فَسَادِهِ فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ بِشَرْحِ الصَّحَائِفِ
الْإِلَهِيَّةِ.

فان نُسر الاتحاد بمعنى المازجة والمخالطة والتركيب،

حاشية ٩٤

ليس ذلك ممّا يجوز في دين النصارى؛ فجميع ما يلزمه أو يبنى عليه
مردود. (٧)

فان كان الآب والابن ذاتين غيرين بحيث يتحد الابن وحده
بالمسيح دون الآب بالمعنى المذكور، فهو يُخالِفُ اعتقاد التوحيد. وان
كان الابن صفة، فلا يُعْقَلُ في الذات العالمة أن تصير - كونها عالمة
- مأزجة لجسم من الأجسام دون الذات. كما لا يُعْقَلُ أن يكون زَيْدٌ
يَتَنَدَّدُ وَكَوْنُهُ عَالِمًا بِخُرَاسَانَ. ثُمَّ عُلِمَ كُلُّ شَيْءٍ هُوَ قَائِمٌ بِهِ فَلَزِمَ أَنْ
يَكُونَ عُلِمَ الْتَدَعِ موجودًا فيه وفي المسيح دَفْعَةً وَاحِدَةً، فَلِلصِّفَةِ الْوَاحِدَةِ
فِي الْحَالَةِ الْوَاحِدَةِ مَوْضُوفَانِ، وَهُوَ مُحَالٌ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَعِ عَالِمًا حَالًا
الْإِتِّحَادُ كَانَ كَوْنُهُ عَالِمًا حَكَمًا جَائِزًا فَيُفْتَقَرُ إِلَى مُخَوِّصٍ يُخَوِّصُهُ،
وَذَلِكَ يُخْرِجُهُ عَنِ الْإِلَاهِيَّةِ.

والقول بالامتزاج باطل لأنه لا يُعْقَلُ إِلَّا فِي الْأَجْسَامِ، وَالْكَلِمَةُ
عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ بِجِسْمٍ. فان قالوا - المازجة بالتركيب الارتباطي كالإنسان

الواحد من نفس وَبَدَن - فارتباط أحدهما بالآخر لا يُعْقَل إلا باحتياج أحدهما إلى صاحبه، إما مع العكس، كاحتياج النفس إلى البدن باعتبار واحتياج البدن إليها باعتبار آخر، وإما من غير عكس كاحتياج صورة السرير إلى الخشب وعدم احتياج الخشب إليها. لكن، فيما نحن فيه، يمتنع احتياج الجُزء اللاهوتي إلى غيره بوجوه من الوجوه. ولو كان الاتحاد احتياج الجُزء الناسوتي إلى اللاهوتي من غير انعكاس لكان مثل هذا الاتحاد حاصلًا مع كل مخلوقات، لأن كلها محتاجة في وجودها وسائر كالاتها إلى الله تعالى.

حاشية ٩٥

أ - هذا الكلام مبني على القول بالمأزجة التي لا يقول بها النصارى، فيكون ساقطًا؛ ومع سقوطه فإن قوله: «لأن مثل هذا الاتحاد حاصلًا مع كل المخلوقات» مردود، بأن مجرد الاحتياج غير كافٍ في ذلك، بل لا بد له من انضياغ أمر آخر إليه.

(٨)

ب - وبما يصحح هذه الدعوى هو أن الاحتياج وحده لو كفى في ذلك لكانت جميع الكمالات المخلوقات حاصلة لها. وليس الواقع كذلك. ألا ترى أن الفقير محتاج إلى المال، والمريض إلى الصحة والأعمى إلى البصر. وهذه المطالب غير حاصلة لهم، وهذا يدل على أن الاحتياج وحده غير كافٍ، فسقطت دعوى المصنف.

وكون الاتحاد كاتحاد نقش الفص بالشع، إن غيبي به أن ذات المسيح صارت مثلًا للبارئ، فهو محال لاستحالة أن يصير الجسم المحدث متزعمًا قديمًا. وإن غيبي به أنه حصلت له خاصية لأجلها

قدّر على ما لم يقدر عليه غيره فليس يقتضي ذلك كونه إلهًا والأل لكان كل من ظهر على يده معجزات من الأنبياء، إلهًا، لا سيما مثل معجزات موسى فإنها أعظم بكثير مما يحكى عن معجزات المسيح وأبعد من وقوع الخلية فيها وأكثر روعة من روايتها، فإن روعة تلك هي الملل الثلاث ورواة هذه بعضهم.

حاشية ٩٦

معلوم أن بعض علماء فرقة من فرق النصارى يُسَمِّل بهذا المثال، تقريبًا إلى أذهان العوام، وليس من شرط المثال المماثلة من جميع الوجوه، وحينئذ يسقط كلام المصنف. وأما قوله: «معجزات موسى أعظم» فمردود من وجوه، منها أن موسى ما أبرأ أكمة ولا أحيا ميتًا، ولا أقام زمينًا، ولا طهر أبرصًا.

(٩)

وأيضًا فلا يقال في شيء من جواهر غيره إلا وقد اشتركا في أمر جوهري وعندها عموم طبيعة، لا عموم نسبة، فإن لم ينفصل أحدهما عن الآخر يفسل، لم يكن كون الآبر مؤلفًا للابن أولى من العكس.

حاشية ٩٧

كلام المؤلف لا يدل على وحدة الجوهر التي تعتقدها النصارى على اختلاف فرقهم، فلا يلتزمون هذه اللازم. وكيف لا يكون كون الآبر مؤلفًا للابن أولى من العكس. وقد ظهر من كلام النصارى أنهم أرادوا بالآبر الذات وبالابن الكلمة والنطق والعلم، على اختلاف العبارات. وهل يجوز انقلاب الذات صفة والصفة ذاتًا.

(١٠)

ثم هذا ولله الابن أبًا آخر والآخَر آخر هكذا إلى غير النهاية ١

حاشية ٩٨

لَوْ قُلْنَا ذَلِكَ لَكُنَّا قَدْ خَالَفْنَا الثَّقَلَ وَالْعَقْلَ. أَمَّا مَخَالَفَةُ الثَّقَلِ فظاهرة. وَأَمَّا مَخَالَفَةُ الْعَقْلِ فَلأنه، على هذا التقدير، يَلْزَمُ انْقِلَابُ الصِّفَةِ ذَاتًا ثُمَّ صِفَةً الصِّفَةِ ذَاتًا أُخْرَى، ثُمَّ صِفَةً صِفَةٍ الصِّفَةِ ذَاتًا أُخْرَى وَهَلَمْ جَرًا. وَذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ وَاسْتِحَالَتُهُ ظَاهِرَةٌ لِكُلِّ رَشِيدٍ.

وَإِنْ انفصلَ عَنْهُ بِفَضْلِ جَوْهَرِيٍّ لَمْ تَرَكُّبُ الْبَارِيَّ مِنْ الْجِنْسِ وَالْفَضْلِ، أَوْ كَانَتْ ذَاتُ الْإِبْنِ هِيَ مِثْلُ ذَاتِ الْآبِ وَزِيَادَةٌ. وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ.

حاشية ٩٩

هَذَا الْمُحَالُ لَا يَصْرُنَا لِأَنَّهُ لَا يَلْزِمُنَا. وَإِنَّمَا قُلْتُ إِنَّهُ لَا يَلْزِمُنَا لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى الثَّقَلِ الْمُرْدُودِ عَمَّا قَرِيبٌ.

وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِقَوْلِكُمْ - إِنْ الْبَارِيَّ سُبْحَانَهُ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ ثَلَاثَةٌ أَقَانِيمٌ - أَنَّهُ ذَاتٌ عَالِيَةٌ حَيَّةٌ أَوْ ذَاتٌ عَاقِلَةٌ لَنَفْسِهَا وَذَاتُهَا مَعْقُولَةٌ. كَمَا يُحْكِي عَنْ يَحْيَى بْنِ عَدِيٍّ أَنَّهُ فَسَّرَ الْآبَ وَالْإِبْنَ وَرُوحَ الْقُدُّسِ بِأَنَّهُ كَوْنُهُ عَقْلًا مُجَرَّدًا هُوَ الْآبُ، وَكَوْنُهُ عَاقِلًا لِذَاتِهِ هُوَ الْإِبْنُ، وَكَوْنُ ذَاتِهِ مَعْقُولَةٌ لَهُ فَهُوَ رُوحُ الْقُدُّسِ، فَمَا قَلْتُمُوهُ فِي أَمَانِيكُمْ الَّتِي اتَّفَقْتُمْ عَلَيْهَا يُنَافِي ذَلِكَ، فَإِنَّ فِيهَا تَغْيِيقًا أَنَّ الْإِبْنَ ذَاتٌ غَيْرُ ذَاتِ الْآبِ أَوْ ذَاتُ الْإِبْنِ هِيَ الَّتِي تَرَكَّتْ وَصِيدَتْ دُونَ الْآبِ.

حاشية ١٠٠

أ - الْمَحْكِيُّ عَنْ ابْنِ عَدِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ، هُوَ الْمُرَادُ بِبَلا شَيْءٍ؛ وَأَمَّا كَوْنُ الَّذِي قِيلَ فِي الْأَمَانَةِ يُنَافِيهِ فَعَبْرٌ مُسْلَمٌ؛ وَكَذَلِكَ كَوْنُ الْإِبْنِ ذَاتًا غَيْرَ ذَاتِ الْآبِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ لَازِمٍ مِنْ إِطْلَاقِ لَفْظَةِ التَّزْوُلِ وَالصُّعُودِ عَلَيْهِ بِالِاسْتِعَارَةِ

لِضَرُورَةِ الْعِبَارَةِ، مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ التَّجَسُّمِ؛ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ التَّزْوُلَ وَالصُّعُودَ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ خَوَاصِّ الْأَجْسَامِ. فَإِنَّ أَنْكَرَ الْيَهُودِ هَذِهِ الِاسْتِعَارَةَ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْإِبْنِ، فَهَمَّ كَيْفَ أَطْلَقُوا لَفْظَةَ التَّزْوُلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَوَارِيثِهِمُ الْقَائِلَةِ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ: «فَنَزَلَ اللَّهُ لِيَنْظُرَ الْقَرْيَةَ وَالْبُرْجَ».

ب - وَفِي التَّوَارِقِ أَيْضًا، حِكَايَةٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى: «هَلُمَّا بِنَا نَنْزِلْ وَنُقَسِّمِ هُنَاكَ السِّتَنَهِمْ». فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ، وَلَيْسَ فِيهِ مَحْذُورٌ، فَلِلنَّصَارَى أُسُوءَةٌ بِهِمْ. وَإِنْ كَانَ بِطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ فَقَدْ جَسَّمُوا، لِأَنَّ التَّزْوُلَ بِالْحَقِيقَةِ مِنْ خَوَاصِّ الْأَجْسَامِ، وَالتَّجَسُّمُ أَعْظَمُ مَحْذُورًا وَأَبْعَدُ عَنِ الْعَقْلِ وَالذِّينِ مِنْ مُنَافَاةٍ قَوْلِ لَقَوْلِ آخَرَ، لَوْ ثَبَّتَ الْمُنَافَاةَ. فَكَيْفَ وَهِيَ غَيْرُ ثَابِتَةٍ؟

وَيَقَالُ لِلْعَقُوبِيَّةِ فِي قَوْلِهِمْ - إِنْ الْمَسِيحَ جَوْهَرٌ مِنْ جَوْهَرَيْنِ وَاقْتَوْمٌ مِنْ أَقْتَوْمَيْنِ، جَوْهَرٌ لَاهُوتِيٌّ وَجَوْهَرٌ نَاسُوتِيٌّ - إِنَّهُ إِنْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ اللَّاهُوتِيِّ وَالنَّاسُوتِيِّ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَنْفَصِلْ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، فَهَرِ قَوْلُ السُّيُوطِيِّ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَدْ أَبْطَلَ الْآخَرَ، فَقَدْ اقْتَرَا بِإِبْطَالِ الْإِلَهِ، وَلَزِمَهُمْ أَنْ يَكُونَ الْمَسِيحُ لَاقِدِيمًا وَلَا مُخْدَعًا، وَلَا إِلاَهَا وَلَا غَيْرَ إِلاَهَا، إِذْ قَدْ خَرَجَ كُلُّ مِنْهُمَا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْبَيَانَ بِشَهْدِ أَنَّ نَاسُوتَ الْمَسِيحِ مِثْلُ نَاسُوتِ غَيْرِهِ، فَلَا يَكُونُ اللَّاهُوتُ قَدْ أَبْطَلَهُ. وَعَكْسُهُ لَا يُمِيزُ إِذَا الْجُزْءُ اللَّاهُوتِيُّ هُوَ الَّذِي يُؤَيَّرُ فِي غَيْرِهِ، وَغَيْرُهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يُؤَيَّرَ فِيهِ.

ويقال للتسبورية القائلين بجهيرين وأقنومين إنها، إن كانا قديمين، فقد أثبتهم قديماً وائماً، هو ناسوث المسيح. وإن كانا محدثين، كنتم قد قلتم بحدوث الابن الذي ترغمون أنه أزلي، وعبدتم ما ليس بالاله، لأنكم تعبدون المسيح وهو على هذا القول جوهرا ن محدثان. وإن كان احدهما قديماً والآخر محدثاً، كنتم قد عبدتم القديم والمحدث، إذ المسيح الذي تعبدونه مجموعهما ومجموع القديم والمحدث، من حيث هو هذا المجموع، فهو محدث. فيكون قد عبدتم المحدث، من حيث هو محدث، لا يستحق العبادة. فيجب أن تُخصَّص العبادة للقديم، ولا يبقى للمحدث في ذلك مداخل. فلا يكون قد عبدتم المجموع لو أخرجتم المحدث عن أن يكون له مدخل في العبادة، وحينئذ يثبت أن المسيح الذي هو عبارة عن مجموع الامرئين غير مستحق للعبادة. وهو خلاف معتقدكم.

ويقال للملكانية على قولهم - إن المسيح جوهرا ن أقنوم واحد، وإن الاتحاد وقع بالانسان الكلي، لا بالجزئي - إن الانسان الكلي مشترك بين جميع الناس فلو اتحدت الكلمة به لزم أن لا يُخصَّص بهذا الاتحاد بعض الناس دون البعض وأنه باطل. وعلى هذا، فكما لم يكن أقنومين فكذلك لا يكون جوهريين.

فجميع مذهبكم إذن باطلة.

حاشية ١٠١ أ - إن قول المصنِّف في أوائل الكتاب: «ولم أيل في شيء من ذلك مع الهوى» (١٤) قد انتقض ميراً بما ذكرناه في بعض الحواشي السالفة، وبما هوذا أقوله الآن: وهو أن من جملة مثله مع الهوى أنه، عند كلامه عن

اليهود، ما عرج على ذكر فرقههم، وهما قد ذكر فرقة فرقة من النصارى حيدة. ومن مثله مع الهوى أيضاً أنه لما تكلم على اليهود لم يفرِّد الأجوبة عن الردود، لكنه ذكر الاعتراض، ثم أجاب عنه في الحال. وفي مثله النصارى ذكر الاعتراضات على التوالي، ولم يُجب عن شيء منها حتى استوفى الجميع. وأظنه أراد بذلك المبالغة في التشنيع.

ب - ولما كان قصدي، في هذِهِ الحواشي، التنبية على غلط الطاعنين في مطلق الملة لا في مذاهب الفرق المنتمية إليها، أضربت عن الجواب ههنا ولأن ذلك قد أُود له مجلدات بلغة العرب. فمن أحب الوقوف عليها، فليطلبها وينظر فيها.

ج - هذا ولقدّم مقدّمة على ما سيذكره المصنِّف من التشنيع على النصارى. فنقول: إنه نقل عنهم أنهم تمثّلوا على الاتحاد باتحاد النار بالقمح صيرورتها جمرة. فعلى هذا نقول: كما انه لا يجوز، عند العاقل، الحكم على النار بما يجوز به الحكم على القمح المتججرة من أنها تنسحق أو يكون وزنها كذا وكذا، فكذلك لا يجوز عنده الحكم على لاهوت السيد المسيح، بما يُحكم به على ناسوته من الأمور البدنية كالجموع والتعب والتوهم والسهر، وما يشبه ذلك، بل ولا يجوز الحكم على النفس الناطقة بما يصدق على بدنها من الحرّ والقلل والشتق والتفتيح والجلد والحس، إلى غير ذلك. وهذا لا سبيل إلى إنكاره وجحدِهِ ولا إلى دفعه وردّه.

ثم إن الله أكرم من أن يقال إنه سكن الرحمة في دنس الحيضة وضيّق البطن والفتلة، أو نظرت إليه العيون الجسائية،

حاشية ١٠٢ فكيف جاء في التوراة، عن مشايخ بني إسرائيل، أنهم أبصروا الله؟ وكيف جاء فيها أيضا أن الله كلم موسى وجها لوجه، كما يتكلم الرجل مع صاحبه. وكيف جاء فيها أيضا، حكاية عن الله تعالى: «وأري وجهي لمن أريه؟».

او - أصابه سبب أو نوم،

حاشية ١٠٣ فما قولك في قول داوود النبي القائل: «استيقظ الرب كالنائم»، وقوله أيضا: «استيقظ ولا تنم يا رب!».

او أحدث في ثيابه وبأل في فراشه،

حاشية ١٠٤ النصارى لا ينسبون ذلك إلا إلى ناسوت المسيح. وهم، عن آخرهم، ينزهون الله تنزيها. وعلى هذا قياس سائر ما يجيء بعد ذلك من التشنعات. فلا حاجة إلى ذكر الجواب عن واحد واحد منها، اللهم إلا لضرورة تدعو إلى ذلك في بعض المواضع.

او بكى او ضحك او أخذه على ما لم يرد عجز أو سهى أو لجهه خوفا أو قزعا، او رغب إلى ما في أيدي الناس، او سحنا، او هربا، او يقال إنه أكل وشرب أو تشبه بأهل الأرض، أو إنه لم يستطع أن يقضي أمره، وهو في ملكه، حتى نزل على الأرض ليهذبهم وينجيهم من الشيطان، وإنه جاء ليهدي الناس من الضلالة ويظهرهم من الخطايا، فقيمت به اليهود وعذبوه وصلبوه وأهانوه، وأبست ثلاثة أيام في القبر. ثم أي خطيئة كانت قبل المسيح أو بعده أعظم من الخطيئة التي كانت في زمانه عندكم. وتجذ الشيطان لم يزل منذ جاء المسيح، كما قد كان قبل مجيئه في الأذى والإضلال. فإنه فرق دينكم على مذاهب

شئ. فشهد بعضكم على بعض بالفسادة. وقد قيل الجوارئون في عبدة بلاد، وأهانوهم وعذبوهم. ولم يزل الظلم والعذوان والقتل والكفر ساريا في النصارى وغيرهم من الأمم إلى هذو الغاية.

ويقال لهم - إن اتخذ المسيح إلها لكونه، على رأيكم، من غير والد قادم وحواء أعجب منه في ذلك. وكذا أصل كل دابة خلقها الله تعالى. وإن اتخذ إلها من أجل رفعة إلى السماء فقد رفع قبله إيليا النبي بعد ما ظهرت على يده المعجزات الكثيرة ولم يصبه في بشرته سوء. ولو جازت عبادة البشر لكان أحق بذلك من الذي حبس وأهين وعذب وصلب. والملائكة أيضا ما زالوا مرفوعين إلى أن يؤمروا بالنزول. وإن كان ذلك لأنه سمي في الإنجيل ابن الله، فأنتم تقولون أن إسرائيل سماه الله ابني يكرى، وقد سمي السيد المسيح الجوارئين إخوته. وفي الإنجيل أيضا - أيها - من أحبكم - إلى قوله - تكونون مثل أبي وأبيكم الذي في السماء -

حاشية ١٠٥ المحكي ههنا عن الإنجيل ليس بصحيح، وكذب مثل هذا الرجل الفاضل غاية الفصح. (١٨)

وفيه - إن أنتم كافيتم الصناعات بالسيئات فلا أجز لكم عند أبيكم. وفيه - إن أنتم غفرت لبي البشر سيئاتهم فإن أياكم الذي في السماء يغفر لكم. - وإن ادعيت إلهايته من أجل معجزاته فغيره من الأنبياء قد فعل ذلك.

ويقال لهم أيضا - كيف تقولون إنه قد نُس بالخطيئة حتى طهره يحيى بن زكريا، ولا يمكنكم أن تقولوا إنه لم يتدنس بخطيئة وإلا لكان التطهير بالماء عبثا.

المنقول عن النصارى ههنا ليس بصحيح. وذلك لاتفاق طوائفهم على أنَّ السَّيِّدَ الْمَسِيحَ إِنَّمَا سَاوَى النَّاسَ بِنَاسُوتهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، مَا عَدَا الْحَظِيَّةَ. فَإِنَّمَا مَا تَطَرَّقَتْ إِلَيْهِ بَوَجهُ مِنَ الْوُجُوهِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ. وَلَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِي الْأَشْخَاصِ الْبَشَرِيَّةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ وَاللاحِقَةِ بِهِ مِنْ تَنَزُّعٍ عَنِ الْحَظِيَّةِ سِوَاهُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: «لَكَانَ التَّظْهِيرُ بِالْمَاءِ عِبَاةً»، فَجَوَابُهُ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى تَقْدِيرٍ أَنْ تَكُونَ الْغَايَةُ مِنْ تَعْمِيدِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ هِيَ التَّظْهِيرُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَ النَّصَارَى كَذَا.

وكيف شَرِبَ إِلَهُ الْخَمْرَ أَوْ أَكَلَ السَّلَكَ وَالصَّخْنَةَ وَالصِّدَأَ أَوْ تَجَبَّ
حتى كَانَ عَرَفَهُ يَسْبُلُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الضَّعْفِ؛

١٠ لَا زِيَاعَ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ نَاطِقَةٍ مُجَرَّدَةٍ، مُتَزَهِّةٍ عَنِ الْإِحْتِيَاجِ إِلَى جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَدَنُ حَالِ الْبَقَاءِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبَدَنَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَسَائِرِ الضَّرُورِيَّاتِ. وَالنَّصَارَى جَمِيعُهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ بَدَنَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ يُسَاوِي أَبْدَانَ النَّاسِ فِي الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ الَّتِي لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا الْبَدَنُ مَا دَامَ حَيًّا. فَهَذَا الْإِعْتَرَاضُ لَا يُبْطِلُ النَّصَارَى لِأَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِالْبَدَنِ وَحْدَهُ، وَلَا تَعَلَّقُ لَهُ بِالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ، فَكَيْفَ يَتَعَلَّقُ ذَلِكَ وَأَمَثَالُهُ بِالسِّرِّ الْعَزِيزِ؟

أَوْ إِنَّهُ اخْطَطَفَهُ الشَّيْطَانُ فَذَهَبَ بِهِ حَيْثُ لَا يُجِبُ.

١١ هَذَا مِمَّا أَكَاثَهُ أَصْحَابُ الْأَغْرَاضِ عَلَى النَّصَارَى الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تَوَجُّهَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ لِلْإِمْتِحَانِ مِنَ الشَّيْطَانِ، إِنَّمَا كَانَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُّوسِ، عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْإِنْجِيلِ إِجْمَالًا وَفِي تَفَاسِيرِهِ تَفْصِيلًا.

وكيف ذُكِرَ فِي الْإِنْجِيلِ إِنِّي مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ التَّوْرَةَ لَكِنِ جِئْتُ لِأَكْتَمِمَهَا. وَتَقْصُرَ كَثِيرًا مِنْهَا. وَفِي الْإِنْجِيلِ مَتَى أَنَّ خَبْرَيْلَ جَاءَ إِلَى مَرْيَمَ فَبَشَّرَهَا بِوَلَدِهِ، وَلَمْ يَقُلْ لَهَا بَشَرِي إِنَّكَ سَتَوَلِّدِينَ إِلَاهَا. وَكَانَ يُوسُفُ زَوْجَ مَرْيَمَ، كَمَا فِي مَتَّى، أَنَّهُ جَاءَ الْمَلَكُ، أَيُّ خَبْرَيْلَ، وَقَالَ لِيُوسُفَ: اذْهَبْ، خُذْ أَمْرَاتِكَ وَلَا تَخَفْ. وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ مِنَ الْإِنْجِيلِ أَنَّ إِسْحَوْعَ هُوَ ابْنُ يُوسُفَ وَأَقْرَبُ مَرْيَمَ أَنَّ إِسْحَوْعَ ابْنُ يُوسُفَ، فَإِنَّهُ فِي يَوْمِ وُجْدَانِهَا لَهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَالَتْ - أَيْنَ كُنْتَ هُوَ ذَا أَنَا وَابُولُكُ فِي هَمٍّ شَدِيدٍ مِنْ أَجْلِكَ. وَأَهْلُ نَاصِرَةَ قَالُوا - أَلَيْسَ هَذَا ابْنُ النَّجَّارِ وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيَهُوذَا وَأَخَوَاتُهُ مَرْجُوحَاتٍ عِنْدَنَا وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِلَاهَا تَامًا وَهُوَ لَا يَعْلَمُ إِلَّا بَعْضَ الْأَشْيَاءِ، لَا كُلَّهَا. لَا سَيِّمًا، وَقَدْ قُلْتُمْ إِنَّ أَقْنَمَ الْإِبْنِ هُوَ الْكَلْبَةُ وَهِيَ الْعِلْمُ. وَلَدَلِيلٍ عَدَمٍ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأُمُورِ، الدَّالِّ ذَلِكَ عَلَى عَدَمِ الْإِتِّحَادِ الَّذِي تَدْعُوهُ، مَا جَاءَ فِي الْإِنْجِيلِ مَرْفُوسٌ أَنَّهُ، لَمَّا أُخْبِرَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا، قَالَ - إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَتِلْكَ السَّاعَةُ لَا يَعْلَمُهَا إِنْسَانٌ وَلَا مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَلَا الْإِبْنُ إِلَّا الْآبُ وَحْدَهُ.

حاشية ١٠٩ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَهُ مَحَامِلٌ فِي التَّفَاسِيرِ لَا يَلِيْقُ نُقْلُهُ بِهَذِهِ الْحَوَاشِي. غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ: إِنَّهُ مُعَارَضٌ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ مِنْ قَوْلِهَا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى: «إِنَّهُ سَأَلَ آدَمَ قَائِلًا: آدَمُ، آدَمُ، أَيْنَ أَنْتَ؟» فَهَلْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ أَيْنَ هُوَ آدَمُ حَتَّى اسْتَجَبَ عَنْهُ؟ وَهُوَ مُعَارَضٌ بِقَوْلِهَا أَيْضًا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ: «الْآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ تُحْيِي!» فَهَلْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَبْلَ الْآنَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ يُحْيِي؟ وَهُوَ مُعَارَضٌ أَيْضًا بِقَوْلِهَا فِي السِّفْرِ الْخَامِسِ، مَا حَكَايَتُهُ: وَتَدْخُلُونَ الْأَرْضَ الَّتِي حَلَفَ اللَّهُ لِآبَائِكُمْ وَتَرْتَوْنَهَا وَتَذْكُرُونَ الطَّرِيقَ كُلَّهَا الَّتِي سَاسَكُمُ

وسارَ بِكُمْ اللهُ رُبُّكُمْ فيها، أَرَبِينَ سَنَةً فِي الْفَقَارِ لِيَتَلَبَّسَ بِكُمْ وَيَتَبَشَّرَ بِكُمْ وَيَعْلَمَ مَاذَا فِي قُلُوبِكُمْ. فَهَلْ كَانَ اللهُ قَبْلَ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ غَيْرَ عَالِمٍ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ؟ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ وَتَقَدَّسَ!

وفي الإنجيل أنه رَقَدَ فِي السَّفِينَةِ وَلَمْ يَعْلَمْ حَتَّى أَقْبَطَهُ بَعْضُهُمْ. وَدَاوُدُ النَّبِيُّ يَقُولُ - هُوَذَا لَا يَنَامُ وَلَا يَرْقُدُ حَافِظُ إِسْرَائِيلَ وَيَقُولُ - يَا رَبِّ، مَنْ يُشَبِّهُكَ، لَا تَسَمَّ يَا عَلَّ.

حاشية ١١٠ دَاوُدُ أَيْضًا يَقُولُ: «إِسْتَبْقِظَ الرَّبُّ كَالنَّائِمِ»، وَيَقُولُ أَيْضًا: «إِسْتَبْقِظْ وَلَا تَسَمَّ، يَا رَبُّ!». (٢٣)

وفي الإنجيل: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مُتَقَالٌ خَرَدَلَةٌ إِيْمَانًا يَقُولُ لِلْجِبَالِ اتَّبِعِي نَسْتَعِ.

حاشية ١١١ هَذَا الْمَحْكِيُّ عَنْ الْإِنْجِيلِ لَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّهُ مُحَرَّفٌ، وَفِيهِ زِيَادَةٌ عَلَى مَا فِي الْإِنْجِيلِ. (٢٤)

وَنَجِدُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَسِيحِ لَا يَقْدِرُ أَحَدُهُمْ عَلَى تَسْيِيرِ حَجَرٍ أَطْيَفٍ وَلَا شَيْءٍ غَيْرِهِ.

وفيه ما مَعْنَاهُ - الْمُصْفُورُ وَجَدَ وَكَّرًا يَسْكُنُهُ، وَوَجَدَ الثَّلَبُ جُحْرًا يَسْكُنُهُ، وَابْنُ الْبَشَرِ لَمْ يَجِدْ مَكَانًا يَسْكُنُهُ، مَعَ أَنَّ أَشْعِيَا النَّبِيَّ يَقُولُ إِنَّ الْمَسِيحَ يَجْلِسُ عَلَى مِثْرَ دَاوُدَ فَيَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ بِعَدْلٍ وَحَقٍّ.

حاشية ١١٢ أَمَّا هَذَا الْكَلَامُ فَتَأْوِيلُهُ عِنْدَ النَّصَارَى يُخْرِجُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا مَا أَسْلَفْنَا نَقْلَهُ مِنْ كَلَامِ أَشْعِيَا النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَدْ بَيَّنَّا.

عَلَيْهِمْ مِنَ الْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ مَا لَا سَبِيلَ إِلَى التَّقْصِي مِنْهُ بِالتَّأْوِيلِ.

وَقَامَ إِيشُوعُ فَتَسَلَّ أَوَجَلَ الْخَوَارِيزِينَ بِالْمَاءِ وَقَالَ - لَمْ يَجِءْ ابْنُ الْبَشَرِ لِيُخْدَمَ وَلَكِنْ جَاءَ لِيُخْدَمَ - وَلَمْ يَدْخُ نَفْسَهُ إِلَّا مَا نَأَمًا فَقَطَّ.

وَأَمَّا الصَّلِيبُ فَاطَّهَرَهُ هِيلَانِي وَقَسَطَطِينُ بَعْدَ إِيشُوعَ بِحُدُودِ ثَلَاثَةِ سَنَةٍ، وَلَيْسَ هُوَ فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ.

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: طَهَّرْنِي. فَأَجَابَهُ - أَنَا حَرِيسٌ أَنْ أَطَهَّرَكَ، أَذْهَبُ إِلَى الْكَاهِنِ، فَأَرِدُ نَفْسَكَ، وَقَرِيبُ قُرْبَانًا، كَمَا قَالَ اللهُ لِمُوسَى فِي التَّوْرَةِ.

حاشية ١١٣ الْمَحْكِيُّ هُنَا مُحَرَّفٌ عَمَّا هُوَ فِي الْإِنْجِيلِ؛ وَلَمْ يَكُنْ غَرَضُ السَّيْرِ الْمَسِيحِ، عَلَى رَأْيِ النَّصَارَى، مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ هُنَا، لَكِنَّهُ بَعْدَ مَا طَهَّرَهُ مِنْ بَرَصِهِ بِمَجَرَّدِ قَوْلِهِ: «قَدْ اخْتَرْتُ تَطْهِيرَكَ فَاطَّهَرُ»، لَا يَوْضَعُ يَدَهُ عَلَيْهِ إِلَّا لِأَيُّسُوهُمْ أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ مِنَ الْمُدَاوَاةِ، أَمْرُهُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنْ يُرَى نَفْسَهُ لِلْكَاهِنِ الَّذِي حَكَّمَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِ الْأُمَّةِ، وَتَجَنَّبَ مَلَامَتِهِ، لِيَتَبَيَّنَ عِنْدَ الْكَاهِنِ عَظَمَةُ هَذَا الْمُعْجَزِ، وَيُجَيِّزَ عَوْدَةَ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ بِهِ الْبَرَصُ إِلَى بَيْتِهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مُتَفَيِّئًا.

فَكَيْفَ يَتَخَذُ مِنْ لَيْسَ لَهُ سُنَّةٌ بَلْ يُحِيلُ عَلَى سُنَّةٍ غَيْرِهِ إِلَّا هَا؟ هَذَا مَعْنَاهُ قَالَ - مَنْ نَظَرَ إِلَيَّ فَقَدْ نَظَرَ إِلَى أَبِي وَأَنَا وَأَبِي سَوَاءٌ. وَقَالَ تَلَامِيذُهُ - اجْلِسُوا هُنَا حَتَّى أَصَلِّيَ. وَقَالَ - بَلَقْتُ نَفْسِي الْمَوْتَ، وَانْتَظَرُوا هُنَا وَاسْتَقْبَلُوا قَبْلًا حَتَّى أَصَلِّيَ. وَقَالَ فِي صَلَاتِهِ - يَا أَبِي نَجِّنِي إِنْ أَمَكُنْ وَتَجَوَّزْ عَنِّي هَذِهِ السَّاعَةَ. وَقَالَ لِيَسْمَعُونَ - أَلَا تَقَارِئُ تَسْهَرُ مَعِي سَاعَةً وَاحِدَةً؟ فَمِمَّ تَذْهَبُ، فَإِنَّا قَدْ بَلَقْنَا السَّاعَةَ. وَكَانَ قَدْ قَالَ

قَبْلَ ذَلِكَ - وهذا ابنُ البَشَرِ يُسَلِّمُ في أيدي الحَاطِطِينَ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَيَهْزِئُونَ فِي وَجْهِهِ.

وَمِنْ قَبْلِ صَامِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي الْجَبَلِ لِيُمْتَحَنَ مِنَ الشَّيْطَانِ،
يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَرْغَبُ إِلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ أَصَابَهُ الْجُوعُ الشَّدِيدُ، كَمَا
قَالَ فِي الْإِنْجِيلِ - فَلَمْ يَزَلِ الشَّيْطَانُ فِي طَلَبِ إِبْرَاهِيمَ فَوَجَدَهُ فِي الْجَبَلِ
وَقَدْ تَلَفَ جُوعًا وَعَطَشًا. فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ - إِنْ كُنْتَ ابْنُ اللَّهِ، كَمَا تَقُولُ
فَقُلْ لِهَذَا الْحَجَرِ حَتَّى يَكُونَ خُبْزًا تَأْكُلُ. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلشَّيْطَانِ -
مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ لَيْسَ عَلَى الْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا ابْنُ الْبَشَرِ، لَكِنْ يَكَلِّمُ
اللَّهُ يَحْيَا ابْنُ الْبَشَرِ. فَأَخَذَ الشَّيْطَانُ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى أَذْخَلَهُ بَيْتَ الْمَقْلُوسِ
وَأَصْعَدَهُ رَأْسَ الْهَيْكَلِ وَقَالَ لَهُ - إِنْ كُنْتَ ابْنُ اللَّهِ، كَمَا تَقُولُ، فَارْمِ
نَفْسَكَ إِلَى اسْفَلِ وَلَا يُصِيبُكَ شَيْءٌ مِنَ السَّوَاءِ. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلشَّيْطَانِ -
مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ - لَا تُجَرِّبُوا اللَّهَ إِلهَكُمْ. وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِإِبْرَاهِيمَ -
الدُّنْيَا وَمُلْكُهَا وَكُلُّ خَيْرٍ فِيهَا فَهَوِّ لِي، اسْجُدْ لِي وَخَرَّ لِي عَلَى وَجْهِكَ.
فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلشَّيْطَانِ - اذْهَبْ، يَا شَيْطَانُ، مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ - اللَّهُ
رَبُّكَ خَفَّ وَيَأْتِي عَبْدُهُ وَبِهِ اسْتِغْنَى وَبِاسْمِهِ احْتَفَى.

حاشية ١١٤ جميع ما حكاؤه الْمُصَنِّفُ هَهُنَا عَنْ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، لَيْسَ هُوَ كَمَا جَاءَ
فِي الْإِنْجِيلِ، لَكِنْ فِيهِ تَحْرِيفٌ وَزِيَادَةٌ وَنَقْصٌ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلُّ مَنْ يَنْصَحُ
هَذَا الْكَلَامَ مِنَ الْإِنْجِيلِ.

(١) يدِّي (P)

(٢) فأخذه الشيطان لإشوع.

(٣) تحريف

(٤) نقص.

فَرَى لِمَنْ كَانَ يُصَلِّي وَيَصُومُ إِذَا كَانَ إِلَّاهَا؟

حاشية ١١٥ أ - كَانَ يُصَلِّي وَيَصُومُ لِأَبِيهِ إِلَهِ الْآلِهَةِ وَرَبِّ الْأَرْيَابِ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ
فِي الْإِنْجِيلِ، وَثَابِتٌ فِي أَذْهَانِ كَافَّةِ النَّصَارَى. فَإِنَّ السَّيِّدَ الْمَسِيحَ قَالَ:
«أَنَا أَعْظَمُ مِنْي»، وَقَالَ: «إِنِّي صَاعِدٌ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ، وَالْإِلَهِي وَالْهَيْكَلُ»،
وَلَا شَكَّ أَنَّ جَمِيعَ الشُّعْبَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُصَنِّفُ - وَسَيِّدُ كُرْعِيهَا فِيهَا
بَعْدُ - لَهَا عِنْدَ النَّصَارَى، فِي التَّفَاسِيرِ، وَجُوهٌ كَثِيرَةٌ تُزِيلُ الشَّكَّ عَنْهَا، لَوْ
قَصَدَ نَقْلَهَا لاحتِجَّ إِلَى مَجْلَدٍ كَبِيرٍ!

ب - وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُصَنِّفَ سَلَّكَ، فِي هَذَا الْكِتَابِ، طَرِيقَ التَّعَصُّبِ
لِلْيَهُودِ، وَالتَّعَصُّبِ عَلَى النَّصَارَى، حَتَّى إِنَّهُ - لِقَلَّةِ إِنْصَافِهِ - حَرَّفَ كَلَامَ
الْإِنْجِيلِ الَّذِي نَقَلَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَزَادَ عَلَيْهِ تَارَةً، وَنَقَصَ مِنْهُ تَارَةً
أُخْرَى، كُلُّ ذَلِكَ مَبْلَغَةً فِي التَّشْنِيعِ عَلَى النَّصَارَى، وَسَوْفَ كَلَامُهُمْ إِلَى
الْبَاطِلِ، بِالْحَيْكَلِ السُّوْفِيَّاتِيَّةِ.

وَكَيْفَ نَدْعَى الْإِلَهِيَّةَ مَنْ يَتَلَاغَبُ بِهِ الشَّيْطَانُ؟

وَقَدْ نَسَبَهُ لَوْحًا إِلَى آدَمَ، وَنَسَبَهُ مَتَى أَيْضًا بِنَسَبِ مُخَالِفِهِ لِذَلِكَ فِي
بَعْضِ الْآيَاتِ، وَقَالَ فِي أَوَّلِ النَّسَبِ إِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ دَاوُدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ.
وَقَالَ فِي آخِرِهِ إِنَّهُ مَائَانُ أَوْلَدَ يَعْقُوبَ، وَيَعْقُوبُ أَوْلَدَ يُوسُفَ، زَوْجَ
مَرْيَمَ الَّتِي وَلَدَتْ مِنْهَا إِبْرَاهِيمُ الْمَدْعُومُ بِالْمَسِيحِ. وَأَخْبَرَنِي أَنَّ يُوسُفَ لَمْ يَعْرِفْ
مَرْيَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَتْ ابْنَهَا الْبَكْرَ، وَهِيَ ذَا، أَحَدُ أَصْحَابِهِ وَخَوَاصِيهِ الْإِمْنِيِّ
عَشَرَ، هُوَ الَّذِي دَلَّ الْيَهُودَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَهُ إِلَيْهِمْ حَتَّى صَلَّبُوهُ. وَأَخَذَ أَجْرَهُ

عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ دَرَاهِمًا مِنَ الْوَرَقِ. وَلَوْ كَتَبْتَ عَنْهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ،
فَقُلْنَا عَنْ أَنَّهُ إِلَاهٌ، لَمَا اسْتَجَازَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ لِأَجْلِ أَخْذِهِ هَذَا الْقَدَرِ
النَّزَرِ.

حاشية ١١٦ لَوْلَمْ يَكُنْ سَكَرَانَ الْعَقْلِ عِنْدَمَا فَعَلَ ذَلِكَ، لَمَا فَعَلَهُ. لَكِنَّهُ عِنْدَمَا صَحَا
(٢٩) عَقْلُهُ مِنْ سُكَرَتِهِ نَدِمَ نَدَامَةً أَذْنَهُ إِلَى أَنْ أَعَادَ الْمُبْلَغَ إِلَى الْكَهَنَةِ، وَاعْتَرَفَ
لَدَيْهِمْ قَائِلًا: أَخْطَأْتُ لِكُونِي سَلَمْتُ الدَّمِ الزَّكِيِّ^٢. وَمَضَى، بَعْدَ أَنْ أَعَادَ
مَالَهُمْ إِلَيْهِمْ، فَشَقَّ نَفْسَهُ نَدَمًا عَلَى الَّذِي فَعَلَ. وَلَوْ لَمْ يَتَّيَقُنْ أَنَّ اجْتِرَامَ
جَرِيمَةٍ لَا يُمَكِّنُهُ اسْتِدْرَاكُهَا لَمَا سَمَحَ بِنَفْسِهِ. عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ وَغَيْرَهُ مِنْ
وَقَائِعِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ كَانَ قَدْ أُنْذِرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، مِنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ، عَلَى مَا هُوَ
مَذْكُورٌ فِي كُتُبِهِمْ وَمَحْكِيٌّ عَنْهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ.

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ تَعْذِيبِهِمْ لِإِسْخَوْعَ وَشَهْرَتِهِ، لَمَّا أَرَادُوا صَلْبَهُ، أَنْ
غَطُّوا رَأْسَهُ وَوَجْهَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ رَأْسَهُ بِالْقَصَبِ وَيَقُولُونَ لَهُ - تَنَبَّأْ
لَنَا، أَيُّهَا الْمَسِيحُ، مَنْ ضَرَبَكَ؟ وَبَعْضُ عِبِيدِ عَظِيمِ الْكَهَنَةِ لَطَمَ وَجْهَهُ.
وَتَقَلُّوا فِيهِ.

وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لِمُوسَى عَمَّ لَا يَرَانِي أَحَدٌ فَيَعِيشُ.

حاشية ١١٧ فَكَيْفَ قَالَتِ التَّوْرَةُ عَنْ مَشَائِخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: إِنَّهُمْ رَأَوْا اللَّهَ. وَلَا جَاءَ
(٣٠) فِيهَا وَلَا فِي الْحَرِّ أَنَّهُ مَاتَ حَيِّئًا وَلَا فَرَدَ شَخْصًا.

وَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى - كَلِمَتُنَا أَنْتَ، نَسْعَ وَنَطْعُ^١، وَلَا يَكَلِمُنَا الرَّبُّ
فَنَمُوتُ. فَكَيْفَ يَكُونُ، وَالْحَالَةُ هَذِهِ، مِنْ يُلْطَمُ وَجْهَهُ إِلَّا هَذَا!

حاشية ١١٨ مَتَشَأُ الْمُعَالَطَةِ، فِي جَمِيعِ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ، قَصْدًا لِلتَّشْبِيحِ، هُوَ
(٣١) عَدَمُ الْفَرْقِ بَيْنَ أَقْنُومِ الْإِبْنِ الْأَزَلِيِّ الْمُتَجَلِّدِ بِالسَّيِّدِ الْمَسِيحِ، وَبَيْنَ أَقْنُومِ
الْآبِ الْمُسْتَوْدَعِ عَنْ ذَلِكَ. فَهُوَ يُحِيلُ الْكَلَامَ الْمُنْسُوبَ إِلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ،
باعتبارِ نَاسُوتِهِ، عَلَى أَنَّهُ مُنْسُوبٌ إِلَى الْآبِ، باعتباره مُجَرَّدَ لَاهُوتِهِ. وَهَذَا
دَلِيلٌ عَلَى قِلَّةِ إِنْصَافِهِ، وَكَثْرَةِ مِيلِهِ مَعَ هَوَى^٢ نَفْسِهِ، طَلَبًا لِرِضَى^٣ الْيَهُودِ
الَّذِينَ قَالَ فِي حَقِّهِمْ أَنْبِيَائُهُمْ مَا أَسْلَفْنَا نَقْلَ بَعْضِهِ فِي الْحَوَاشِي السَّابِقَةِ، مَعَ
الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ، سَلَامَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، لَا يَتَهَمُونَ بِالتَّعَصُّبِ
عَلَى أَحَدٍ، وَلَا بِالْكَذِبِ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ حَالِ الْمُصَنِّفِ مَعَ النَّصَارَى.

وَطَافَ الْيَهُودُ بِإِسْخَوْعَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، وَعَلَى عُقْبِهِ
خَشِيشَةٌ الَّتِي صُيِّبَ عَلَيْهَا. وَجَاءَ شَمْعُونُ الْقُورِينِيُّ فَحَمَلَهَا عَنْهُ،
بِرَغْبَتِهِمْ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ فَعَصَّبُوهُ عَلَيْهَا وَسَقَوْهُ الْخَلَّ وَطَعُوهُ بِالْحَرَبِ بَعْدَ
مَوْتِهِ. فَقَالَ إِسْخَوْعُ، وَهُوَ عَلَيْهَا - إِلَهِي، إِلَهِي لِمَ تَرَكْتَنِي. وَلَمْ يَزَلْ
مَصْلُوبًا حَتَّى سَأَلَ فِيهِ يَوْسُفُ الَّذِي مِنْ رَامَةَ يَهُوذَا فَوَجِبَ لَهُ جَسَدُهُ،
فَدَفَنَهُ مَيْتًا. وَهَذَا كُلُّهُ يَنْطِقُ بِهِ الْإِنْجِيلُ.

وَيَرْغَبُكُمْ أَنْ جَمِيعَ أَنْفُسِ الْبَشَرِ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ كَانَتْ مُسْجُونَةً
حَتَّى مَاتَ إِسْخَوْعُ، فَاطْلُقَتْ. وَتَدَخَّلَ فِي ذَلِكَ أَنْفُسُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ
وَالصَّالِحِينَ.

(١) طبع (P)

(٢) هوا.

(٣) رضا.

(١) صحي.

(٢) الذكي.

وَلَيْسَ فِي الْأَنْجِيلِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِيشُوَ خَاطَبَهُ اللَّهُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ، كَمَا جَاءَ فِي يُوحَنَّا أَنَّهُ قَالَ الْمَسِيحُ - يَا ابْنَهَا الْآبَ ، مَجْدِدْ اسْمَكَ ، فَجَاءَهُ صَوْتُ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ - مَجْدَتْ وَأَيْضًا أَمَجِدْ - فَكَيْفَ كَلَّمَ عَبْدَهُ مُوسَى مُرَارًا لَا تُحصى ، وَلَمْ يَكَلِّمْ وَلَدَهُ وَحِيدَهُ إِلَّا هَذِهِ الْمَرَّةَ ؟

حاشية ١١٩

لِقَائِلِ النَّصَارَى أَنْ يَقُولَ : إِنَّ الْمُخَاطَبَةَ تَكُونُ لِمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُخَاطَبِ حِجَابٌ يَسْتُرُ عَنْهُ الْأَمْرَ الْمُخَاطَبَ بِهِ . وَنَحْنُ لَا نَعْتَقِدُ أَنَّ بَيْنَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابًا ، وَإِلَّا لَتَكَرَّرَتِ الْمُخَاطَبَةُ مُرَارًا عَدِيدَةً . وَهَذِهِ الْمَرَّةُ إِنَّمَا كَانَتْ دَفْعًا لِدَعْوَى مَنْ عَسَاهُ يَدَّعِي الْمَخْطَاطَ مَرْتَبَةَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ عَنْ اسْتِحْقَاقِ الْمُخَاطَبَةِ .

وَسَتَرَ وَجْهَهُ مُوسَى رَسْمُهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ مِنَ النُّورِ ، وَقَعَلَ مَعَ وَلَدِهِ مَا يُبَيِّنُ فِي ذَلِكَ وَتَرَكَهُ لِلْهَوَانِ بَيْنَ أَعْدَائِهِ ؟

حاشية ١٢٠

إِنْ فِي شَرَفِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ الْبَاطِنِ غَيْثٌ عَنْ كُلِّ شَرَفٍ ظَاهِرٍ . وَأَمَّا الْعَوَارِضُ الْبَدَنِيَّةُ فَلَا اعْتِبَارَ بِهَا . وَأَمَّا أَعْمَالُ اللَّهِ ، فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ فِيهَا ، لِأَنَّهُ يَفْعَلُهَا بِمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ الْحَقِيقَةِ عَنْ عُقُولِ الْعُقَلَاءِ مِنَ الْبَشَرِ ، بَلْ عَنْ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ .

وَقَدْ جَاءَ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ عِلَامَاتِ الْمَسِيحِ وَمَا يَكُونُ فِي زَمَانِهِ مَا لَمْ يَظْهَرْ فِي إِيشُوَ وَلَا فِي زَمَانِهِ مِثْلَ مَا جَاءَ فِي كَلَامِ بَعْضِهِمْ مَا مَعْنَاهُ - إِنَّهُ يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِسُوطٍ فِيهِ ، وَبَرِيحٌ شَفِيقَةٌ يُمِيتُ الْخَاطِطَى ، وَإِنَّهُ

(١) حجاب .

يَجْلِسُ عَلَى مِثْبَرِ دَاوُدَ فَيَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ بِعَدْلٍ وَحَقٍّ ، وَإِنْ الْحُرُوبُ تَرْتَفِعُ وَلَا يَرْفَعُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ سِيفًا ، وَإِنْ الذَّنْبُ وَالْكَبْشُ يَرْبِضَانِ مَعًا وَيَرْغَمَانِ جَمِيعًا ، وَإِنْ الْأَسَدُ يَأْكُلُ التِّينَ كَالْبَقَرِ . وَهَذَا ، إِنْ كَانَ عَلَى ظَاهِرِهِ ، فَلَمْ يَجْرَ وَلَمْ يَلْعَ فِي أَيَّامِ إِيشُوَ وَلَا بَعْدَهُ .

حاشية ١٢١ الذي يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا عَلَى ظَاهِرِهِ ، لَيْسَ لَهُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ نَصِيبٌ وَلَا (٣٤) يَسْتَحِقُّ أَبَدَ الْأَبَدِينَ أَنْ يُخَاطَبَهُ لِيَب .

وَإِنْ كَانَ مَثَلًا ، وَذَلِكَ هُوَ الْأَظْهَرُ ، فَهَوَ مِثْلُ لَارْتِفَاعِ الشُّرُورِ مِنَ الْعَالَمِ وَرَوَالِ الْعُدُونِ مِنْ بَيْنِ الْخَلْقِ . وَلَمْ يَجْرَ فِي زَمَانِهِ إِلَّا خِلَافُ ذَلِكَ مِنْ زِيَادَةِ الْعِدَاوَةِ بَيْنَ النَّاسِ بِسَبَبِ ظُهُورِهِ ، وَارْتِكَابِهِمُ الذُّنُوبَ الْعَظِيمَةَ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ .

حاشية ١٢٢

مَا الدَّلِيلُ أَنَّهُ مِثْلُ لِمَا ذَكَرْتُ ؟ وَمَا الْمَانِعُ عَنْ أَنَّهُ يَكُونُ مِثْلًا لغير ذلك ؟ (٣٥)

وَجَاءَ أَيْضًا أَنَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ يَنْبُتُ الْبَنُونَ وَالْبَنَاتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ يُبْعَثُ إِلَيْهَا النَّبِيُّ فَيَرُدُّ قُلُوبَ الْآبَاءِ عَلَى الْبَنِينَ وَقُلُوبَ الْبَنِينَ عَلَى الْآبَاءِ . وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِنْ عِلَامَاتِ ظُهُورِهِ فِي كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ كَثِيرَةٌ . وَكُلُّهُ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَى الْآنَ . وَالْقَدَرُ الَّذِي أَوْرَدَهُ مِنْهَا إِنَّمَا أَوْرَدَهُ بِمَعْنَاهُ ، لَا بِالْفَاعِلِ ، وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا فِي كُتُبِ النُّبُوَاتِ .

حاشية ١٢٣

أ - إِنْ الْمَصِيفُ قَدْ تَوَهَّجَ أَنَّ عَدَمَ ظُهُورِ هَذِهِ الْعِلَامَاتِ إِلَى الْآنَ إِنَّمَا هُوَ حُجَّةٌ لِلْيَهُودِ عَلَى النَّصَارَى ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ الْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ لِلنَّصَارَى عَلَى الْيَهُودِ . وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ دَانِيَالَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ فِي نُبُوَّتِهِ ، وَهُوَ يَوْمِئِذٍ فِي بَابِلَ ، بَعْدَ وَقْعَةِ بَحْتَنْصَرَّ بِمَدَّةٍ قَلِيلَةٍ ، مَا مَعْنَاهُ : أَنَّ مَنْ

بعلوسبعين سابوعاً سوف يأتي المسيح. ولا شك أن لفظة السابوع في كلامه، لها احتمالات كثيرة. فقد يُراد بالسابوع سبعة أيام، أو سبعة أشهر، أو سبع سنين أو سبعون سنة، أو ما يزيد على ذلك مثل سبع مائة سنة وسبعة آلاف سنة.

ب - أما على تقدير أن يُراد به ما دون سبعين سنة، فلا حاجة للكلام عليه، لأنه بخلاف الواقع. فيقي أن يُراد به سبعون سنة أو ما فوقها من الاحتمالات. فإن كان المراد سبعين سنة، فقد مضى، إلى تاريخنا هذا، أضعاف هذه المدّة، وما ظهر من العلامات المذكورة لا ما قل ولا ما كثر. فيقي أن يكون المراد بالسابوع سبع مائة سنة. فلننقل الكلام إليه ونقل: إنه على هذا التقدير ينبغي أن يظهر المسيح بعد تسع وأربعين ألف سنة لتاريخ نبوة دانيال عليه السلام. وقد مضى من ذلك إلى تاريخنا هذا ما يقارب ألفي سنة، فيلزم على ذلك، أن يكون مجيئ المسيح، بعد تاريخنا، تقريباً من سبع وأربعين ألف سنة.

ج - وكافة اليهود في انتظاره عن قريب حتى قد غلب على ظن كثير من علماء المعاصرين أن يكون في زمان القرآن التالي هذا القرآن الذي نحن فيه؛ وقد بقي من هذا القرآن قريب تسع سنين، ومدة القرآن التالي له جميعها قريب عشرين سنة، فيكون المجموع دون ثلاثين سنة. وهذا المبلغ يقتضى قبل

(١) سابوع.

(٢) سبعين.

(٣) نقول.

(٤) تقريب

سنة سبعين وسبعاية للهجرة. فإن كان كلام هؤلاء هو الصحيح، فكان ينبغي أن يظهر في زماننا هذا بعض العلامات. وإن كان ذلك هو الصحيح، فيُنظر اليهود مسيحيهم بعد سبع وأربعين ألف سنة، يزيد على تاريخنا هذا.

د - وأيضاً فعل اليهود حجة أخرى للنصارى ظاهرة قاطعة، وهي قول دانيال عليه السلام ما معناه: «إن المسيح يقتل، فتحرب مدينة القدس بعد ذلك بسبب قتله. ومعلوم أن المسيح قتل منذ مدة تُنيف على ألف وثلاثمائة سنة. والقدس حُرب بُعيد ذلك، وهو خراب إلى الآن.

ثم جميع ما يقولونه عن السيد المسيح من المعجزات وغيرها فهو عن الأفراد الذين هم أصحابه، فلا يكون متواتراً ولا موثقاً إليه، وتقدير صحته القليل فهو غير بعيد في العقل أن يكون واقفاً بالحيل أو بالمطواة عليه.

حاشية ١٢٤ أ - من أمر أرباب البرص بالتطهر فتطهروا، وأمر الشياطين بالخروج فخرجوا، وأمر الزمّي بالتهوض فتھوضوا، وأمر الميت الذي في التابوت وهو مُشيع خارج البلد، قائلاً له: «يا غلام، لك أقول قم»، فانبعث حياً، وعاد مع الذين يُشيعونه إلى البلد، كيف لم يُبعث في العقل أن يكون بالحيل، وكيف تنهياً الحيل والتواطؤ في هذه المواطن التي ما حلت من حضور قوم لا يتوهم جواز تواطؤهم عليها، سيما وقد وقع من هذه المعاجيز ما شاهده من كان يتوقع له عثرة يجعلها حجة عليه، لينال منه الغرض، بحسب الاستطاعة.

ب - ألا ترى أنه قال الزمّن الذي حملوه إلى المجمع الذي كان فيه السيد المسيح يومئذ: «يا ولده! قد غفرت لك خطاياك» قدّمدم عليه

الحاضرون من اليهود قائلين: «ما هذا الأفرقاء؟ من ذا الذي يُقَادَرُ على غُفْرَانِ الخطايا والذنوب غير الله؟» فأجابهم قائلًا: «أَيُّهَا أَسهَلُ، أَنَّن يُقَالَ له: «قد غُفِرَتْ خطاياك»، أو أَن يُقَالَ له: «قم» فاحمل سريرك،» حتى تَعْلَمُوا أَن ابنَ البشر له من السلطان ما يُغَيِّرُ به الخطايا، ثم التفت إلى الزَّمن قائلًا: «قم» فاحمل سريرك» وفي الحال نهض قائمًا، وحملَ سريره ومضى.

وإذا لم يثبت صحة نقلهم لم يتحقق ما ادَّعاه من كونهم علموا بالضرورة من رأي الجواريين والسيد المسيح أَن شريعتهم لا تُنسخ.

فهذا ما رأيتُ أن أذكره من المطاعين عليهم.

وأجود ما لَهم أن يُجيبوا به

عن هذه الأشياء ما هو ذا أنا ذاكره.

وهو أنهم يقولون - أما الأقباط وحضرها في الثلاثة فتشبع فيه ما ورد به الأمر ولا تعلم لأي معنى حُصِرَتْ في ذلك العدد.

وأما الاتحاد فتجهل كيفية في هذا العالم، وربما انكشفت حقيقة لنا في العالم الآتي. وإنما نؤمن به لورود في الإنجيل وأخبار الجواريين وشواهد الأنبياء. فإن في الإنجيل - من نظر الي فقد نظر إلى أي، وأنا وأبي سواء. وإن الملك قال للرعاة - اليوم أئلكم مخلص هو الرب يسوع المسيح، وإن زوجة زكريا قالت - من أين لي هذه النعمة أن أم زني تأتي إلي. وفي أول إنجيل مرقس: إن هذا ابتداء إنجيل يسوع المسيح ابن الله. وقال يوحنا - إن الكلمة صار لحمًا وحلّ فينا. وأقوال الجواريين في ذلك كثيرة.

ومن شواهد الأنبياء على الاتحاد قول أيوب - أنا أعلم أَن مخلصي

(١) أيًا.

(٢) تعلمون.

حي وفي آخر الزمان يسلك على الأرض. وقال سليمان - حقًا يجلس الرب على الأرض. وقال أشعيا - إن البتول تحبل وتلد ابناً ويدعى اسمه عشتار. وقال داود - إن إله الآلهة يترأى في صهيون. وأيضًا يقول - قال الرب لربي.

وأما جميع ما وُصِفَ به المسيح وحكي عنه مما يُثاني لإلهيته، كالنوم والأكل والألم وغير ذلك مما عُدَّ، فإنها هوباعتبار ما فيه من الناسوت، لا باعتبار اللاهوت. ولهذا قلنا إنه إنسان تام وإله تام. وأما قولكم إنه لا يستطيع أن يقضي أمره حتى نزل إلى الأرض، فنحن لا نقول ذلك، بل هو قادر على كل شيء وفعل ذلك كما أراد، ولا يجوز اعتراضه في ملكه. ونحن فلا اطلاع لنا على دقائق حكمه. ثم هذا معارض بمعجزات سائر الأنبياء فإنه كان قادرًا على هداية الخلق بدونها، مع أنه لا يقال لو استطاع ذلك لما فعلها، بل هو معارض بكل فعل يفعله البارى، عز وجل، لفائدة العباد. فانه قادر على إيصال تلك الفائدة إليهم من غير توسط ذلك الفعل.

وأما كون الخطايا لم ترتفع من الأرض بظهور المسيح فما ادَّعينا أنها ترتفع بالكيفية بحيث لا يفعل في الأرض شر ولا خطأ، بل ادَّعينا ارتفاع كثير من الكفر والفسق. وذلك فلا شك في وقوعه. فإن بسبب ظهوره انتشر الإيمان والعدل في بقاع كثيرة من المعمورة.

وأما إدعاء إلهيته فليس لحالة واحدة من أحواله، أو حالتين منها، أو أكثر، بحيث يُعارض ذلك بغيره من الأنبياء وغيرهم، وإنما هو مجموع أحواله. ومعلوم أن ذلك لم يجمع لغيره، لا قبله ولا بعده. وأما كون غيره أطلق عليه ابن الله، فذلك مجازًا باتفاق الموافق والمخالف، وإطلاقه عليه فتحقيقة لتواتر ذلك عن الجواريين الذين عنهم أخذت عقيدة الملة النصرانية.

وأما قوله - إني ما جئت لأَنْقُصَ التَّوْرَةَ ولكن جئتُ لِأَتَمِّمَهَا - فالمرادُ منه أن التَّوْرَةَ وُعِدَ فيها عِجْزُ الْمَسِيحِ ، وَالشَّرَائِعُ الَّتِي فِيهَا إِنَّمَا يَلْزَمُ الْعَمَلُ بِجَوَائِبِهَا إِلَى حِينِ ظُهُورِهِ ، لَا إِلَى الْأَبَدِ ، أَوْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فحَيْثُ ظَهَرَ فَقَدْ كَمُلَتْ نِجَازُ الْوَعْدِ بِهِ أَوَّلًا وَبِكَالِ الْكَلِيفِ بِهَا ثَانِيًا .

حاشية ١٢٥ أ - وَأَجُودُ مِنْ هَذَا الْجَوَابِ هُوَ أَنْ يُقَالَ : إِنْ كُلُّ شَيْءٍ نَاقِصٌ فَإِنَّهُ يَحْتَوِلُ التَّكْمِيلَ ؛ وَلَا شَكَّ فِي نَقْصَانِ التَّوْرَةِ لِأَنَّهَا مَا جَاءَ فِيهَا الصُّومُ وَلَا الصَّلَاةُ ، وَلَا بَقَاءُ النَّفْسِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَا الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ وَلَا الْمُجَازَاةُ الْآخِرُويَّةُ وَلَا الْجَنَّةُ وَلَا النَّارُ . فَالْسيِّدُ الْمَسِيحُ تَمَّمَهَا بِذِكْرِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَأَمْثَالِهَا . وَمِنْ الظَّاهِرِ أَنَّ ذَلِكَ تَتِمُّمٌ ١ لَا نَقْصٌ ٢ . وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ نَقْصٌ ٣ فَقَدْ غَلِطَ بِسَبَبِ اخْتِلَافٍ مَعَانِي لَفْظَةِ النَّقْصِ . وَمَعْنَاهَا هَهُنَا إِنَّمَا هُوَ بِمَعْنَى اسْتِعْمَالِهَا فِي الْجِدَارِ . فَإِنَّ الْجِدَارَ إِذَا لَمْ يَتِمَّ التَّمَامُ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْهُ شَيْئًا لَا عَلَى سَبِيلِ التَّوْبَةِ لِمَا يُرِيدُ بُشْيَانَهُ عَلَيْهِ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ نَقُصَ الْجِدَارُ . أَمَّا إِذَا بَنَى الْإِنْسَانُ فَوْقَهُ مَا يَبْلُغُهُ الْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْ بِنَائِهِ ، فَلَا يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّ ذَلِكَ الْبَانِي قَدْ نَقُصَ الْجِدَارَ ، لَكِنْ يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ تَمَّمَهُ . وَهَذَا الْعِتَابُ قَالَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ : « مَا جِئْتُ لِأَنْقُصَ التَّوْرَةَ وَلَكِنْ جِئْتُ لِأَتَمِّمَهَا » .

ب - فَإِنْ نَازَعَنِي مُنَازَعٌ أَوْ عَارَضَنِي مُعَارِضٌ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَقَالَ : إِنَّ التَّوْرَةَ أَمَرَتْ بِالْعِجْزِ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَرَتْ بِحِفْظِ السَّبْتِ ، وَالسَّيِّدُ

(١) تَتِمُّمًا .

(٢) نَقْصًا .

(٣) نَقْصًا .

الْمَسِيحُ نَهَى عَنِ الْعِجْزِ مُطْلَقًا ، وَظَهَرَ عَلَيْهِ حُلُّ السَّبْتِ ، وَهَذَا نَقْصٌ ظَاهِرٌ ، فَالْجَوَابُ أَنَّ يُقَالَ : لَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ نَقْصُ التَّوْرَةِ هَذَا وَأَمْثَالِهِ مِنْ سَائِرِ أَحْكَامِهَا ، لَكِنَّهُ تَمَّمَهَا بِذَلِكَ . أَلَا تَرَى أَنَّ التَّوْرَةَ قَالَتْ : « لَا تَحْتَسِ فِي يَمِينِكَ » وَأَنْتَ ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ يَجْزُمُ بِأَنَّ هَذَا غَيْرُ كَافٍ فِي سِدِّ بَابِ الْحَثِّ فِي الْعِجْزِ . وَذَلِكَ لِأَنَّا إِذَا قَرَضْنَا أَنَّ أَحَدَ الْيَهُودِ حَلَفَ بِاللَّهِ تَعَالَى قَائِلًا : إِنَّهُ لَا يَدُّ وَأَنْ يَقْتُلَ يَهُودِيًّا آخَرَ لِقَرَضٍ لَهُ مَعَهُ ، فَلَا يَخْلُو مِنْ هَذَا الْمَقْرُوضِ : أَمَّا يَبْرِي الْقَسَمَ هَرَبًا مِنْ مُخَالَفَةِ التَّوْرَةِ بِالْحَثِّ فِي الْعِجْزِ ، أَوْ يُتِمِّمَ مَا نَوَى مِنَ الْغَرَضِ ، وَإِذَا ذَلِكَ فَيَكُونُ قَدْ خَالَفَ التَّوْرَةَ بِالْقَتْلِ . فَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ لَا يَنْفَكُ عَنْ مُخَالَفَةِ التَّوْرَةِ ؛ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ تَجَنَّبُ مُخَالَفَتِهَا مَوْجِبًا إِلَى مُخَالَفَتِهَا . فَازَالَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ هَذَا الْمَحْذُورَ ، وَتَمَّمْ هَذَا النَّقْصَانِ بِقَوْلِهِ : « لَا تَحْلِفُوا بَنَةً ! » .

ج - وَأَمَّا فَرِيضَةُ السَّبْتِ فَلَمَّا كَانَتْ مُبْتَدِئَةً عَلَى وَصْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَجُوزُ وَصْفُهُ بِهِ ، وَهُوَ قَوْلُ التَّوْرَةِ : « فِي السَّبْتِ اسْتَراحَ اللَّهُ مِنْ تَعَبِهِ » ، فَلَا شَكَّ أَنَّ التَّعَبَ لَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى جِسْمٍ حَيَوَانِي يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً تَتَفَوَّقُ طَاقَتَهُ . وَإِلَهُ الْآلِهَةِ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ مُنَزَّهٌ عَنْ هَذَا الْوَصْفِ . وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ تَكْنِيفُ النَّفْسِ بِالْجَهْلِ الْمُرْكَبِ الَّذِي لَا يُرْجَى فَلَاحُ صَاحِبِهِ . وَهَذَا مِنَ الْمَحْذُورَاتِ نَقْصٌ عَظِيمٌ تَمَّمَهُ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ بِتَنْزِيهِهِ اللَّهَ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ وَظَهَرِ النَّقْصُ عَنْ هَذَا الْإِعْتِقَادِ الْفَاسِدِ ، فَحُلُّ السَّبْتِ هَذَا الْغَرَضُ .

د - وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُصَيِّفَ نَقَلَ فِي هَذَا الْكِتَابِ عَنْ بَعْضِ فَضَلَاءِ الْيَهُودِ فِي أَثْنَاءِ ١ جَوَابِ الْأَعْتِرَاضِ الرَّابِعِ مَا حِكَايَتُهُ : « فَإِنَّا - يَعْنِي شَرِيعَةَ التَّوْرَةِ

نَزَلَتْ، والسيرة المشهورة المألوفة هي تقريب أنواع الحيوان في هياكل الصور، والسجود لها، والتبخير بين يديها. « هذا حكاية كلامه، وهذا يدل على تقصير شريعة التوراة عن نقل الناس بالكليّة عن هذه الفريضة القذرة الحبيسة. وهذا نقص ثمة السيد المسيح، يستخرج هذه الفريضة أصلاً ورأساً. وفي الذي ذكرناه هنا كفاية للفظن المصيف، في تصديق قول السيد المسيح منه السلام.

وأيضاً فالسيد المسيح لم ينقص شيئاً من أحكام التوراة، بل عمل بجميع فرائضها إلى آخر وقت، كما بيّنا، فهو متمم لها من هذا الوجه أيضاً.

حاشية ١٢٦ هذا الكلام ليس بصحيح؛ وقد ذكرنا جوابه في موضعه، فتأمله من هناك. وأنا أتعجب من المصنف كيف يدعي هذه الدعاوي الفاسدة من غير استحياء، مع علمه وعلم كل يهودي أن السيد المسيح حلّ السبت. ولأجل ذلك شنع اليهود عليه في أكثر الأُمُر.

ولقاتل أن يقول

إِنَّا لَا نَسْلِمُ أَنَّهُ وَعَدَ فِي التَّوْرَةِ بِمَجِيءِ الْمَسِيحِ. فَإِنْ قَالُوا إِنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا جَمَعَ أَوْلَادَهُ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى يَهُوذَا قَالَ، فِي جُمْلَةِ قَوْلِهِ لَهُ، - لَا يَزُولُ الْقَضِيبُ مِنْ يَهُوذَا أَوِ الرَّاسِمِ مِنْ بَيْنِ أَقْدَامِهِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ لَهُ تَجْمِيعُ الشُّعُوبِ -؛ وَالرَّأْيُ بِالْقَضِيبِ قَضِيبُ الْمُلْكِ وَبِالرَّاسِمِ الشَّيْءُ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ الْمَسِيحُ بَطَلَ الْمُلْكُ مِنْهُمْ وَانْقَطَعَتِ النَّبُوَّةُ عَنْهُمْ، وَجَاءَ فِي مَوْضِعِ آخِرِ مِنَ التَّوْرَةِ أَنَّ - نَبِيًّا أَقِيمَ لَهُمْ مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ بِمِثْلِكَ، بِهِ فليؤمنوا -، وَالضَّمِيرُ فِي - هُمْ - عائد إلى بني إسرائيل وفي - بِمِثْلِكَ -

إلى موسى عَمَ؛ وَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، فَإِنَّ يَذَلِكَ قَسَرَهُ شِمْعُونُ الصَّفَا،

قُلْتُ

الْمُلْكُ زَالَ مِنْ آلِ يَهُوذَا قَبْلَ إِشْعَوَ الْمَسِيحِ. بِزِيَادَةِ عَلَى أَرْبَعِائَةِ سَنَةٍ، وَالْمُلُوكُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي كَانُوا مِنْ بَنِي حَشْمُونَايَ وَهُمْ هَارُونِيونَ مِنْ سَيْطِ لُوي. وَكَانَ الْمُلْكُ مِنْ بَعْلِهِمْ فِي هِيرُودُسَ، وَبَعْدَهُ فِي أَوْلَادِهِ، وَمَا كَانَ أَيْضًا مِنْ سَيْطِ يَهُوذَا. وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِنَّ يَعْقُوبَ كَتَبَ يَهُوذَا عَنْ الْيَهُودِ بِأَسْرِهِمْ تَسْوِيَةً لِكُلِّ الشَّيْءِ بِأَشْرَفٍ مَا فِيهِ لِأَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ إِنْ هَذَا غَيْرُ مُحْتَمَلٍ. فَإِنَّ يَعْقُوبَ خَصَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ، وَخَصَّ يَهُوذَا بِهَذَا الْقَوْلِ، فَلَا يَكُونُ اسْمُهُ عِبَارَةً عَنْ الْجُمْلَةِ. ثُمَّ قَوْلُكُمْ إِنْ الْقَضِيبُ هُوَ قَضِيبُ الْمُلْكِ وَالرَّاسِمِ هُوَ النَّبِيُّ غَيْرُ مُتَمِّينَ. وَالنَّبُوَّةُ انْقَطَعَتْ قَبْلَ ظَهْرِ الْمَسِيحِ بِمَا زِيدَ عَلَى ثَلَاثَةِ سَنَةٍ. وَاللَّفْظَةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِي اللَّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ بِمَعْنَى الْقَضِيبِ مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَى السَّيْطِ أَيْضًا. فَقَدْ يَمْتَنِعُ الْمَانِعُ أَنَّهُ اسْتَعْمِلَتْ لِلْقَضِيبِ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْقَضِيبِ، إِنْ اسْتَعْمِلَتْ لَهُ، قَضِيبُ الْمُلْكِ.

وكل ما استشهدوا به من كتب الأنبياء، إذا حَقَّقَ الحالَ عليهم فيه، لم يكن لهم منه حجة.

حاشية ١٢٧ هذا الكلام دعوى من غير دليل. وظاهر الحال أن المصنف ذكر ذلك تعصباً على النصارى كما جرّت عادته في هذا الكتاب. ولم يقتنع بما سلف منه حتى زاد عليه في أثناء الجواب عن المطاعين عليهم مطاعين آخر مثل الذي

هَـنَا. وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَ الْأَنْبِيَاءِ مَا لِلنَّصَارَى مِنْ حُجَّةٍ ، لَكَانَ قَدْ ذَكَرَ وَجْهَ ذَلِكَ ، وَلَوْ فِي نَقْلِ وَاحِدٍ مِنَ الثَّقُولِ الَّتِي يَحْتَجُّونَ بِهَا ، لِأَنَّهُ أَخْرَصُ الْيَهُودِ عَلَى مُعَادَاةِ النَّصَارَى وَعَلَى الطَّغْنِ فِي دِينِهِمْ وَعَلَى تَضْيِيعِ حُقُوفِهِمْ .

وإذا استقصى جميعه طالع الكلام . ولكن هذا كالأتمردج منه . فانه من أقوى ما يقولون عليه . والأظهر أن المراد به الإشارة بدادود عم بمعنى أنه لا يزول السيط من يهوذا ولا الرئاسة من بين ظهرانيهم إلى أن تبلغ رئاستهم في الزيادة إلى أن يملك داود ويتحقق عمل ملكه جميع شعوب إسرائيل .

حاشية ١٢٨ ليس في تحكيمات المصنف المذكورة في هذا الكتاب أبرد من هذا التحكم ، ولا في تعسفاته أظهر من هذا التعسف . ألا ترى أن داود النبي عليه السلام مسحه شعويل النبي ملكا في السر ، ولم يعلم اليهود ذلك إلا بعد حين . ومكث بعد ذلك سنوات هاربا من شاوول ملك الزمان الذي وقت فيه هذه الواقعة . وفي هذا كفاية في رد كلام المصنف . ومما يؤكد الرد عليه قوله « جميع شعوب إسرائيل » ، وذلك لأن إسرائيل شعب واحد لا شعوب عدة ، كما قد نطق به التوراة مرارا ، تارة حكاية عن الله ، وتارة عن موسى ، وتارة عن غير ذلك . وأيضاً كتب الأنبياء ما يحضرن في كم مرة قد نطقت بلفظة الشعب على سبيل الأفراد دون التثنية والجمع . وقد مضى في الحواشي السالفة عن الأنبياء كثير من تسمية بني إسرائيل بالشعب لا بالشعوب

وقول شمعون - إن النبي الذي وصي بنو إسرائيل بقبول أمره والايمان به هو المسيح - فقير مسلم ، بل هو إشارة إلى كل نبي يأتي على دين موسى . وسياقة الكلام المثلزل في هذا المعنى لا تقتضي

التخصيص بنبي دون غيره . وبقدير أن تقتضي ذلك ، فنتج أن المقصود بالتخصيص هو المسيح .

ولهم أن يقولوا

تفسير شمعون عندنا حجة قاطعة فنحن عليها عونا ، لا على مفهوم اللفظ هذا .

وأما قول السيدة مريم عن السيد المسيح إنه ابن يوسف وتسمية غيرها له بابن يوسف فهو مقول على مقتضى الشهرة في ذلك الزمان ، لا على الحقيقة . وقد قيل إن الجوارين لم يعرفوا حقيقة السيد المسيح ، ولا عرفوا كثيرا من أحواله ، إلا عند حلول روح القدس عليهم وذلك بعد قيامه من القبر وبعد صعوده إلى السماء .

وأما اختلاف التسبب في الإنجيل فقد تأوله شارخو الأنجيل وتأولوا أيضا كل اختلاف فيها مما يظهر منه انه لا منافاة بينها . وتلك التأويلات ، وإن كانت مما تستعدها عقول بعض الناس فهي غير مقبولة .

وأما العلامات التي جاءت لظهور المسيح في كتب الأنبياء ، ولم تظهر في زمان يسوع ، فقد تأولها أيضا علماء النصارى بما هو محتمل ، وإن كان احتمالا بعيدا . ولا حاجة إلى تفصيل تلك التأويلات . وقد عارضوها أيضا بأقوال كثيرة من الأنبياء ، تأولوها بما يدل على أن السيد يسوع المسيح هو الموعود به في كتب النبوات . ولكن تفاسير اليهود لها تصرفها عن ذلك . وكثير من كلام النبوات قد حرقه النصارى عندما نقلوه من العبرانية إلى اليونانية والرومانية ، ثم إلى العربية ، تحريفاً يتفاوت في المعنى تفاوتاً كبيراً ، ولكن في الفاظ قلائل فقط .

والتصاري يُعْتَرَفُونَ بِذَلِكَ التَّفَاوُتِ أَوْ يَنْقُضُوهُ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ
التَّحْرِيفُ عَنْ قَصْدٍ أَوْ إِهْمَالٍ وَقَدْ مَرَّرْنَا بِاللُّغَةِ الْمَقُولَ مِنْهَا.

حاشية ١٢٩

قد اشتهر أن التوراة وسائر كتب الأنبياء نُقِلَتْ إِلَى اللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ قَبْلَ
ظُهُورِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ بِزَمَانٍ طَوِيلٍ. وَحِكَايَةُ السَّبْتِ فِي ذَلِكَ طَوِيلَةٌ. وَكَانَ
الَّذِينَ تَقْلَوْهَا سَبْعِينَ شَيْخًا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ. فَكَيْفَ يَصْدُقُ قَوْلُ الْمُصَنِّفِ إِنْ
النَّصَارَى حَرَّفُوا شَيْخًا مِنْ ذَلِكَ.

(٤٢)

وما استشهدتُ به

مِنْ جَانِبِهِمْ مِنْ كُتُبِ النَّبِيِّاتِ فَإِنَّمَا ذَكَرْتُهُ عَلَى الرَّجْعِ الَّذِي نَقَلَهُ
النَّصَارَى، لَا عَلَى مَا هُوَ عِنْدَ الْيَهُودِ بِاللُّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ.

حاشية ١٣٠

الْمَعْهُودُ مِنَ الْمُصَنِّفِ أَنَّهُ يَكْفِي عَلَى النَّصَارَى بَغَايَةَ جَهْلِهِ. وَمَنْ يَكُونُ
هَذَا دَابَّةً يَسْتَعِدُّ مِنْهُ أَنْ يَطْفِرَ بِحُجَّةٍ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَذْكُرْهَا. فَلَوْ كَانَ نَقْلُ
النَّصَارَى مُحَرَّفًا، لَكَانَ قَدْ قَالَ: إِنْ النُّقْلُ هُوَ كَذَا وَكَذَا، وَحِينَئِذٍ كَانَتْ
الْحُجَّةُ لَهُ عَلَيْهِمْ، لَوْ كَانَ صَادِقًا فِي هَذَا الْكَلَامِ.

(٤٣)

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنْ النُّقْلَ لِمُعْجَزَاتِ الْمَسِيحِ وَأَحْوَالِهِ غَيْرِ مُتَوَاتِرٍ، وَلَا
مُتَوَفِّقٍ إِلَيْهِ، لَيَكُونُ رُؤَايَاهُ أَحَادًا، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا عَلَيْهِ أَنْ أُولَئِكَ الْآحَادَ
قَدْ قِيلَ إِنَّهُمْ فَعَلُوا مِنَ الْمُعْجَزَاتِ أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَهُ الْمَسِيحُ، وَالنَّاظِلُونَ
عَنْهُمْ ذَلِكَ فَمَخْلَقٌ كَثِيرٌ لَا يُرْتَابُ بِتَقْلِهِمْ، وَمُعْجَزَاتُهُمْ ذَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ
مُعْجَزَاتِ الْمَسِيحِ، بَلْ هِيَ عَلَى الْحَقِيقَةِ مُعْجَزَاتٌ لَهُ بِالذَّاتِ وَلَهُمْ
بِالْعَرَضِ، فَيَسْتَعِينُ إِلَيْهِ أَوَّلَى مِنْ نِسْبَتِهَا إِلَيْهِمْ. فَتَبَّتْ أَنْ كُلُّ مَا تَقْلَوْا عَنْهُ
مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَغَيْرِهَا صَحِيحٌ، وَبِهِ يَظْهَرُ أَنَّ صِحَّةَ شَرِيعَتِهِمْ لَا
تُسْخَعُ.

والحق

أَنْ مَا نَقَلَ عَنْ أَصْحَابِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ لَا نُسَلِّمُ
أَنَّهُ عَلَى وَجْهِ التَّوَاتُرِ الَّذِي هُوَ مُوجِبٌ لِلْيَقِينِ، كَتَوَاتُرِ وُجُودِهِمْ وَوُجُودِ
الْمَسِيحِ وَصَلْبِهِ، بَلْ هُوَ مِنْ قَبْلِ مَا يَنْشُرُ فَيَنْشُرُ فَيَنْشُرُ بِالتَّوَاتُرِ وَلَا
يَكُونُ مُتَوَاتِرًا عَلَى الْحَقِيقَةِ.

حاشية ١٣١

مَا ذَكَرْتُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَمَا وَجَّهْتُ كَوْنَهُ صَلْبِي رَاجِحًا، عِنْدَكَ،
عَلَى وُجُودِهِ، مَعَ أَنَّ صَلْبَهُ لَا يَعْتَقِدُهُ الْيَهُودُ، وَوُجُودُهُ هُوَ مُتَوَاتِرٌ عِنْدَهُمْ؛
وَإِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ لِمَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْقِصَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلذِّكْرِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ،
وَكَيْفِيَّةِ مُعْجَزَاتِهِ وَكَيْفِيَّةِ قَتْلِهِ. وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ الدَّلَائِلِ عَلَى تَعَصُّبِ الْمُصَنِّفِ
عَلَى النَّصَارَى.

(٤٤)

وَأَمَّا كَوْنُ مُعْجَزَاتِهِ لَا يَمْتَنِعُ الْقَبْلُ أَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِالْحَبِيلِ وَبِالسَّوَاطِئِ
عَلَيْهَا، فَهِيَ يَدْعُونَ تَحَقُّقَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ التَّحِيلَ وَتِلْكَ السَّوَاطِئُ مَا لَمْ يَكُنْ
وَلَمْ يَتَّعْ، بَلْ وَأَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَمَلٍ الْوُقُوعُ، وَأَنْ لَا فَرْقَ فِي عَدَمِ الْخِيَالِ
الْحَبِيلَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُعْجَزَاتِ مُوسَى عَمَّ، كَانَتْ قَائِلَةً بِالْبَحْرِ، وَمَا يَجْرِي
مَجْرَاهُ. فَإِنَّ مَنْ أَحْيَاهُ وَأَبْرَأَهُ لَمْ يَتَّعْ شَيْءٌ فِي مَوْتِهِ وَمَرَضِهِ. وَلَهُمْ أَنْ
يَسْتَدْلُوا عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ بِأَنَّهُ، لَوْ كَانَ مُشْكُوكًا فِيهِ، لَاشْتَهَرَ بَيْنَ أَعْدَائِهِ
مِنَ الْيَهُودِ أَوْ غَيْرِهِمْ فِي زَمَانِهِ. وَلَوْ اشتهَرَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ لِنَقْلِ. وَحَيْثُ
لَمْ يُنْقَلْ، بَلْ نَسَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى السِّحْرِ، أَوْ إِعَانَةِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ، أَوْ إِلَى
تَعَلُّمِ الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ، عَلِمَ أَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مُتَبَيِّنِينَ عَدَمَ الْحَبِيلِ
وَالْتَوَاطُرِ عَلَيْهِ. وَهَذَا إِقْنَاعِيٌّ غَيْرُ مُقْنِعٍ لِلْيَقِينِ.

حاشية ١٣٢ ما الدليل على أنه إقناعي، ولأي سبب لا يُقيدُ اليقين. ومن أي جهة يتطرق إليه الشك، أو يتوجه عليه الطعن. فلو كنت صادقاً في دعواك هذه، لذكرت شيئاً من ذلك.

بل عسى أن يُقيدَ ظناً غالباً، بعد تسليم ثوابتِ نقلهم. لكنه، إذا عُقِدَ بالنظر في جملة أحوال السيد المسيح وأحوال أصحابه في زهادهم وورعهم وتحملهم المشاق العظيمة في إقامة هذه الدعوة وانتظام أمور هذا الدين إلى هذه الغاية، عُلِمَ من جملة هذه القرائن أن أمرهم مربوط بتأييد إلهي وعناية ربانية.

وأما سائر ما ذكر من كلام المخالفين فبعضه مجرد تشنيع واستبعاد، وبعضه لا يخفى على المحصيل وجهه دفعه، ولو يتكلف وأكثر هذه الأجوبة لم أجدها في كلام التصاري ولكني أجبت بها نيابة عنهم وتعميماً للنظر في معتقدهم.

حاشية ١٣٣ هذا الكلام يدل على أن المصنف، رحمه الله، قد استدرك به ما كان أسلفه من الكلام الباطل في حق التصاري. لأنه لو لم يتبين وقوع التعصب عليهم لما كان قد انصهر لهم بذكر بعض الأجوبة نيابة عنهم. فإذاً يجب علينا نحن معشر التصاري أن نسأل الله تعالى في غفران ما بدا من هذا الرجل في حقنا بما آكال علينا وغالطنا في كتابه هذا. وهذه آخر الحواشي التي قصدت كتابتها في أثناء هذا الكتاب. والحمد للدايم ربّ الأرباب، ومسيب الأسباب سبحانه وتعالى عن قول المُلجِدِ الكذاب.

الفصل الرابع فهارس الحواشي

PATRIMOINE ARABE CHRETIEN

Textes et Etudes de Littérature Arabe Chrétienne Ancienne
sous la direction de Mgr Néophitos Edetby
avec la collaboration du P. Kh. Samir, S.J.

6

HAWĀŠĪ (NOTES)
D'IBN AL- MAHRŪMA
SUR LE
«TANQIḤ» D'IBN KAMMŪNA

Etude et Edition critique
par
Mgr HABIB BACHA

Distribution

Librairie Saint-Paul
Jounieh, B.P. 125
LIBAN

Patrimoine Arabe Chrétien

couvent St Michel
Zeuk Mikhael B. P. 44
LIBAN

Pontificio Istituto Orientale
Piazza Santa Maria Maggiore, 7
00185 Roma - ITALIA

1984